مكتبة

أنطونيو سكارميتا

التمرد

رواية

مكتبة ٨٩٢

ترجمة: عبد السلام باشا

مكتبة 892
سُر مَن قرأ

التمرد

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

LA INSURRECCIÓN

Antonio Skármeta

التمرد - رواية

تأليف: أنطونيو سكارميتا

ترجمها عن الإسبانية: عبد السلام باشا

تصميم الغلاف: قهوة غرافيك

ISBN: 9 - 13 - 641 - 9933 - 978

الطبعة الأولى: 2021

مكتبة
t.me/t_pdf

24 7 2022

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

سوريا - دمشق - ص ب: / 9838/

هاتف-فاكس: / 6133856/ 11 00963

جوال: 00971557195187

البريد الإلكتروني: addar@mamdouhadwan.net

الموقع الإلكتروني: addar.mamdouhadwan.net

twitter.com /AdwanPH fb.com /Adwan.Publishing.House

© Antonio Skármeta, 1982

أنطونيو سكارميتا

مكتبة 892
سُر مَن قرأ

التمرد

رواية

ترجمها عن الإسبانية:
عبد السلام باشا

تمّت ترجمة ونشر هذا الكتاب بدعم من مبادرة أضواء على حقوق النشر التي أطلقها معرض أبوظبي الدولي للكتاب 2021 والذي ينظمه مركز أبوظبي للغة العربية دون تحمّلهما أية مسؤولية عن محتوى الكتاب أو جودة الترجمة.

إلى أهل مدينة ليون

انتهز الفرصة وارقص
لأنّهم سيسلخونك
إن لم تذهب إلى المُعسكر
سيذهبون بحثاً عنك.

أغنية الجندي
من كلمات آندي ماثيا-فيكو
غناء فريق «رامبلرز».

- 1 -

مكتبة
t.me/t_pdf

عندما وضع أغوستين الرسالة في صندوق البريد الموجود أمام الوحدة العسكريّة، تعاملت معها هيئة البريد بمنتهى عدم المبالاة. بعد ثلاثة أشهُر -بعد انتهاء إضراب وسائل النقل، والمتاجر، والعمّال، والفلّاحين، والموظّفين، وعمّال الموانئ والمناجم، والممثّلين، ومذيعي المذياع، وعمّال التلغراف، والشعراء، والمُلهِمات، والطلّاب، والصحفيّين، وموظّفي البنوك، وموظّفي الحكومة، والرياضيّين- أوقفَ موظّف البريد سوبليمي سالیناس درّاجته ثلاثيّة العجلات أمام صندوق البريد. أفرغ محتواه بمهارةٍ في حقيبته المصنوعة من النسيج، ثمّ اتّجه إلى المكتب. أخرج مفتاح الباب من جيبه، ووضعه في المزلاج، وعندما سمع صرير المفصلات المثير للتوتّر، عزم للمرّة المئة في ذلك العام على أن يحصل على مادّة تزييتٍ من صديقه بلوتاركو. بدا ثقب السقف هائلاً، والوعاء فوق مائدة تصنيف البريد لم يعد يسع ماء المطر الغزير. استعمل كُمَّ مريوله لحكِّ الوحل المتناثر فوق السطح، وحينئذٍ فقط أفرغ الحقيبة النسيجيّة. عندما رأى محتواها، أدرك مرَّةً أُخرى سبب بؤس معاشه. كانت كتابة الرسائل تُعدّ ترفاً واستعراضاً إلى حدٍّ بعيدٍ في بلدٍ تبلغ نسبة الأمّيّين من

سكّانه الستّين في المئة. كموظّف بريد، لم يكن عليه في أحيان كثيرة أن يقوم بتسليم الأظرف فقط، إنّما قراءة الرسائل لمُتلقّيها المضطّربين، الذين كانوا يستقبلونها كهديّةٍ كريستاليّةٍ يمكن أن تتحطّم بين أصابعهم إلى شظايا صغيرة في أيّة لحظة. بالطبع، كانت هناك منفعة جانبيّة في هذا؛ الأعشية والبيرة التي كان يتركهم يكافئون بها خدماته الثقافيّة. كان الأمّيّون في المناطق المجاورة للمحطّة متحمّسين للغاية، حتّى يمكن القول: إنّهم يحترفون الحماس. عندما يظهر ساعي البريد في الحيّ، كان الأطفال يحيطون به بالحماس ذاته الذي يتبعون به الدمى الضخمة التي تحكي لهم حكايات ونوادر مقابل بضع عملات، وعندما كان يتوقّف بالرسالة المبتلّة بالعرق أمام أحد تلك البيوت التي بلا باب، كان الجيران يتجمّعون بتوجّسٍ على الرصيف المقابل، ظنّاً منهم أنّ أحد أقارب الجارة قد وافته المنيّة. كان ساليناس يطرد الحرّ ببيرةٍ مثلّجةٍ على حساب الزبون، وبعد أنْ يرطّب حلقه الجاف، يفتح المظروف باحتفاليّةٍ بسيطة. بعد ساعةٍ، أو ساعتين، بعد أنْ ينتهي العشاء، يخرج من البيت بهيئةٍ غامضةٍ من دون النظر إلى المجموعات التي لم تتفرّق بعد لأنّ التكهّنات أثقلت عليهم. كانت العظَمة ذاتها تنتاب صاحبة الرسالة، التي تسارع إلى الخروج إلى مقعدها الهزّاز على الرصيف بعد ساعةٍ من غروب الشمس، وتضع الرسالة في حِجْرها، وتأخذ بالتمايل في المقعد، بتعبيرٍ شاردٍ على وجهها. في النهاية يتغلّب الفضول على الحسد لدى إحداهنّ، وتقترب من المُتلقّية بعدم اكتراثٍ مصطنع: «هل تلقّيتِ رسالةً يا جارتي؟». تتفحّص المعنيّة السائلة، وتُخفض نظرتها من دون رغبةٍ إلى حِجْرها، وتلحظ وجود المظروف المفتوح، وتنتبه في النهاية إلى وجوده، فتعود إلى محدّثتها وتردُّ: «نعم، بالفعل». وطوال الشهر تأخذ في الكشف عن محتوى الرسالة على مراحل:

إنذار لسداد قسط ماكينة خياطةٍ اُشتريَتْ بالتقسيط، تعميد أحد الأحفاد في ماسايا، موت جدّةٍ بالقرب من بلوفيلدز، طلب الابن الذي يدرس في ماناجوا زيادة المبلغ الشهريّ.

في الماضي، لم يعدم وجود رسالتين يوميّاً، تؤدّي الحقيبة بهما مهمّتها، وبالمرّة تمتلئ بطنه الخاوية، لكنْ منذ اندلع التمرّد وانقلاب العالم، لم تعد الرسالة اليوميّة تأتي سوى بخبر موت أهالي الحيّ الذين كانوا يذهبون للمشاركة في حرب العصابات. عندما بدأ إضراب البريد، لم يأسَف لِفقدان البيرة، أو قطع اللّحم المطهوّ بالثوم. قبل وقتٍ قليلٍ من الهجوم قبل الأخير للمتمرّدين، أصبح أهل الحيّ يرتعدون عندما يرونه قادماً.

أصبح السؤال الملازم لظهوره: من مات هذه المرّة؟

في تلك الصباحات الحارقة؛ إذْ كانت الطراوة لا توجد إلّا في الأفواه شبه المفتوحة للمراهقات اللاتي بَدَوْن مستعدّاتٍ دائماً لدفع الفتيان وموزّعي البريد العطشى إلى الحلم بقبلةٍ مستحيلةٍ، وكان يشعر بالظلّ الهائل للقبه الجديد خلف ظهره: النسر آكل الجيفة. عندما أخذ الأطفال على عاتقهم نداءه بالوصف الجديد، بينما يرفقونه عن بُعدٍ بتقليدٍ سيّئٍ من أذرعهم وأكواعهم لتحليق الأجنحة، وتصدر حناجرهم نعيقاً مبحوحاً، كان الخجل الذي اعتراه أكثر ثقلاً وسخونةً من عرقه، وأكثر غزارةً على نحوٍ لا نهائيّ. منذ ذلك اليوم أصبح يأتي بالبريد من المركز الرئيس حتّى حظيرة الدجاج المسقوفة في الفناء الخلفيّ، ويراكم الأظرف المرتعشة هناك في انتظار وقتٍ أفضل. فكّر بأنّ هذه العمليّة تنضوي على توازنٍ حكيمٍ، يعفي الأمهات من الألم، ويوفّر على نفسه الحَرَج والجهد أيضاً. كانت العدالة

تكتمل باعتبارٍ أخير: ارتفعت أسعار كلّ شيءٍ بنسبة خمسين في المئة خلال العام الأخير، وعلى العكس فإنّ معاشه ثابت منذ ثلاثة أعوام، فضلاً عن خصم مساهمة طوعيّة-إجباريّة بمقدار خمسة في المئة من المعاش الشهري يتلقّاها سوموثا(*) بتأثّرٍ كبيرٍ من الموظّفين العموميّين الواعين من أجل القضاء على التمرّد الشيوعيّ لأتباع ساندينو(**). قال لنفسه: إن المعاش، مع فقدان القدرة الشرائيّة بهذا القدر؛ لم يكن يكافئ إلّا التعرّق في أثناء نوم القيلولة في ظلّ مكتب البريد. تركه الحيّ في حاله؛ لأنّه أدرك فجأةً أنّ موزّعي البريد انخرطوا في إضرابٍ عن العمل منذ أزمانٍ سحيقة. أحياناً، كان أحد المُلحّين يجتهد في دفع مفصلات الباب، ويفرض نفسه ذاكراً اسم المُقدّم فلوريس، الصديق الشخصيّ لِـ«شيجوين سوموثا»(***). سالیناس الذي كان يتمتّع بتواضعٍ بادٍ، كان يسمع الطلبات، ويعلن بصوتٍ خفيضٍ أجشّ سعرَ الطابع. بعد وزن الرسالة بميزانٍ استُعملت أوزانه الحديديّة في لعب النرد والحجلة مع الأصدقاء من أهل المنطقة، كان

(*) المقصود هنا هو أناستاسو سوموثا ديباليه (1925-1980) رئيس جمهورية نيكاراغوا بين عامي: 1974-1979، والحاكم الثالث والأخير في سلاسة سوموثا التي حكمت نياكاراجوا على فترات متفرقة. (المترجم).

(**) أوجوستو سيزار ساندينو (1895-1934)، قائد للمقاومة نيكاراغوية ضد الاحتلال الأمريكي خلال النصف الأول من القرن العشرين. وانتهى نضاله بإجبار القوات الأمريكية على الانسحاب من البلاد. لكن قبل خروج الأمريكان من نيكاراغوا قاموا بتأسيس «الحرس الوطني» ووضعوا على رأسه آنستاسيو سوموثا جارثيا، والذي أمر باغتيال ساندينو بناء على طلب من السفارة الأمريكية. (م).

(***) آناستاسو سوموثا بورتوكاريرو (1951-) الابن الأكبر لرئيس نيكاراغوا السابق أناستاسو سوموثا ديباليه، وكان مشهوراً بلقب تشيجوين، وخلال فترة حكم أبيه تولى رئاسة «مدرسة المشاة»، التي كانت تابعة للحرس الوطني، وتعتبر بمثابة الصفوة أو القوات الخاصة. (م).

يتلقّى المال، يلعق صمغ الطابع بلسانه الحزين، ثمّ يلصقه على المظروف، وبعد ذلك يدقّ عليه بقبضةٍ قويّةٍ، كأنّه يوحي إلى العميل أنّ رسالته ستصل إلى عنوانها بالدقّة والثقة ذاتها. ما إنْ يرحل العميل السخيف، كان ينزع الطابع بحركةٍ واحدةٍ، ويُعيد وضعه في الحافظة، ويدفن الرسالة في الجيب الخلفيّ لبنطاله؛ لكي يضعها في النهاية في حظيرة الدجاج. في الساعة الخامسة، أو السادسة تقريباً، كان يُخرج المقعد الهزّاز إلى الشارع مُستعدّاً لاستقبال الأصدقاء، أو تَحَمُّل الطفليّين، لكنّ تصنيفه للمحامي ريباس كان بعيداً تمام البعد عن هاتين الفئتين؛ فقد اعتاد المحامي إغلاق مكتبه الفخم في تلك الساعة وتحيّته.

- كيف حالك يا ميركوريو؟

- لا تنادني هكذا.

- ميركوريو كان شخصاً مهمّاً، إلهاً يمتلك أجنحةً في قدميه.

- لكنْ لا توجد على قدمي سوى الفطريّات.

- ميركوريو لقبٌ جيّدٌ يا أخي. لو كنت كاتباً لوددت أن يُطلقوا عليّ لقب شكسبير. ميركوريو اسمٌ يدعو إلى الفخر.

مزّق حزمة المنشورات فوق مائدة تصنيف البريد: منشورات مطبوعة، وأُخرى مكتوبة بخطّ اليد ضدّ سوموثا. ربّما وضعها شخصٌ ما مسرعاً في صندوق البريد ليتخلّص منها عندما أوشكوا على الإمساك به، بينما كان يستعدّ لتوزيعها أمام باب «مدرسة تدريب المشاة» نفسها. بقيّة الأشياء التي كانت في الحقيبة: أوراق لتغليف الحلوى، وعدد من صحيفة «لا برنسا» بصورة الأسقف سالاثار على الصفحة الأولى، وواقٍ ذكريّ مُستعمَل، وكرّاس رياضيات ممتلئ بمسائل طفوليّة، وأغلبها صحيح، وإشارة

دراميّة: «في الخامسة مساءً، في المكان المعتاد»، وفي القاع كانت رسالة أغوستين ملتصقةً قليلاً بورقة شجرٍ جافّة. أمسك ساليناس بأحد أطرافها وخبطها على فخده الأيمن، ثمّ وضعها تحت الكوة المنيرة في السقف، وقرأ اسم المُرسِل. قال بصوتٍ عالٍ:

– أغوستين مينور.

غرس نظرته في الجدار، من دون أن ينظر إليه. أخذ يفرك الرسالة براحتي يديه في مداعبةٍ صابرةٍ حتّى بدأ يفقد وعيه بالزمن. في النهاية أعادته تنهيدةٌ عميقةٌ إلى الواقع، وجفّف الجزء السفليّ من رموشه بإصبعه الوسطى. ترك الرسالة على المائدة، ثمّ استلقى على ظهر المقعد، وعقد يديه خلف قفاه، ونظر إلى الجزء المرئيّ من السماء عبر الثقب الذي فتحه القصف الأخير لسوموثا في السقف. بدفعةٍ قويّةٍ من خصره ارتمى فوق الرسالة، ونظر إليها للمرّة الأخيرة من دون أن يُبعد يديه عن قفاه. نهض بعد دقيقتين، وأمسكها برقّة، واتّجه إلى الحظيرة بخطى متمهّلة.

مكتبة
t.me/t_pdf

- 2 -

مكتبة
t.me/t_pdf

عَبرَ المُقدّم فلوريس الفناء متبوعاً بالبخار المتصاعد من أفواه الجنود الذين يمارسون تمارين الضغط على وقع الصوت الأجشّ المحفّز للرقيب ثيفوينتس، الذي رفع من وتيرة أوامره عندما لحظ وجود قائده. توقّف المُقدم أمام جنديٍّ مهندم، وبذراعيه المعقودتين نظر إليه بينما يمارس تمريناته، فجاء ثيفوينتس مهرولاً إلى جوراه.

- صباح الخير يا سيّدي المُقدّم.

رفع هذا إصبعين مرتخيين إلى قبّعته العسكريّة.

- صباح الخير. أريد أن تعيرني أغوستين لبضع ساعات.

وضع الرقيب يديه أمام فمه على هيئة بوق، وصاح بصوتٍ مرتفعٍ: «قف!»، وتجاوز صوته الأسوار، ووصل واضحاً إلى العجائز اللاتي يَحُمن بجوار المعسكر، بينما كان الحرس يُبعدونهنّ من حينٍ إلى آخر. حمل المُقدّم يده إلى حلمة أذنه، على نحوٍ غير ملحوظ، كأنّ هذا سيخفّف من طنين هذه الصرخة القويّة التي صدرت على بُعد سنتيمترات من أذنه. أصدر حُكمه من دون أن ينطق به: «ستتعفّن في منصبك كرقيب». عندما لحظ أنّه يوشك على إصدار أمرٍ آخر، غطّى أذنيه تماماً براحتي يديه.

-اعتدل يا رجُل!

- سيّدي المُقدّم؟

- صوتاً أخفض أيّها الرقيب.

سعل ثيفوينتس وأمكنه أن ينطق الاسم من دون صراخ.

- أغوستين مينور!

سار الفتى، وهو يشعر بحسد رفاقه الحادّ في نظراتهم الجانبيّة التي تتراكم خلف ظهره، وعندما وصل أمام الرتبتين الأعلى، وقف كما تقضي الأصول العسكريّة. دار فلوريس ربع دورة، وأشار لأغوستين لكي يتبعه، وبعد ثلاث ثوانٍ عاد صوت الرقيب يصدح كالرعد خلف ظهره:

- يا نمور، القفز، اِبدأ!

تحلّق الجنود في دائرةٍ، وبدأوا يقفزون حول ثيفوينتس. قبل أن يعبُر المُقدّم والشابّ الفناء، أخذ الرقيب في القفز معهم داخل التشكيل.

- هل تشعرون بالعطش أيّها الجنود؟

وردَّ الجنود:

- نعم.

- إلامَ أنتم عطشى؟

وصرخوا:

- إلى الدّم.

- هل أنتم جوعى أيّها الجنود؟

- نعم يا سيّدي.

- إلامَ أنتم جوعى؟

- إلى اللحم.

- هل أنتم عطشى أيّها الجنود؟

- نعم يا سيّدي.

- إلامَ أنتم عطشى؟

- إلى الدم.

- هل أنتم جوعى أيّها الجنود؟

أمسك المُقدّم بكوع أغوستين وقاده ببطءٍ نحو المخرج.

- أَخبرني، هل هو هكذا دائماً؟

- من يا سيّدي؟

- الرقيب. هل هو هكذا دائماً؟

- كما هو الآن يا سيّدي؟

- نعم.

- نعم يا سيّدي، إنه هكذا.

- هل يقول هذه الترّهات عن الدم واللحم دائماً؟

فكَّر أغوستين في السؤال، وركَّز نظرته على طرف حذائه من دون أن يجيب. نزع الآخر شعرةً من شاربه الكثّ، وتأمّلها بعمقٍ بعدما فركها بين طرفي إصبعين.

- «هل تشعر بالعطش؟». سأله.

نظر إليه الفتى لبرهةٍ، وابتلع لعابه.

- لا يا سيّدي.

تدافعت العجائز على باب الكتيبة، لكنّ الحرس وجّهوا بنادقهم إلى صدورهنّ، ودفعوهنّ برفق. وصل فلوريس إلى سيّارة شيفروليه كبيرة من

دون أن يعير انتباهاً للصرخات والنداءات، وأشار لأغوستين لكي يجلس خلف المقود.

- يصدر عنها ضجيجٌ هائلٌ، لنَرَ إن كنت قادراً على إصلاحها.

شغَّل المُحرّك، وداس على دعّاسة السرعة، ورفع قدمه ببطءٍ بينما كان مولياً انتباهه لأنبوب العادم. أعطاه فلوريس القبّعة الزرقاء التي يرتديها السائقون، كما رأى في سيّارةٍ تابعةٍ لسفارة فنزويلا. عندما وضع أغوستين ذراع تغيير السرعة إلى الخلف، تقاطعت نظرته في المرآة مع النظرات المتوسّلة لأمّ الجنديّ مارثيلو، فأسرت نظرةٌ الشابّ رغماً عنه بسرعة طائر نورسٍ يقبض على فريسته في البحر، وأجبرته على أن يحْدس المقاطع الثلاثة على شفتيها المتوتّرتين: «مار-ثي-لو».

شغَّل إشارة الحركة إلى الخلف، وفكَّر خلال خمس ثوانٍ قبل أن يعود إلى الخلف، ثمّ ينطلق بحدّةٍ نحو الشارع. كانت الإشارة الأولى خضراء، فترك السيّارة تنساب على السرعة الثالثة. بعد مدّةٍ وصل إلى سمعه ضجيج ارتطام أجزاءٍ معدنيّةٍ ببعضها، فخفّض السرعة ليعرف أصل الضجيج.

أشار إلى أنّه سيحيد إلى اليسار. منعه فلوريس بوضع إصبعٍ على المقود.

- إن انحرفت في الشارع التالي يساراً، يجب أن نمرّ أمام كنيسة سوبتيابا. استمرّ في خطٍّ مستقيمٍ حتّى شارع روبين داريو.

قاد أغوستين السيّارة بطريقةٍ متعرّجةٍ، وهو ما زاد من أعراض خللٍ ما في التروس. في شارع «11 خوليو» حادَ إلى اليمين في زاويةٍ ضيّقةٍ من دون أن يضغط على دعّاسة التعليق. كما كان يعتقد، صدر ضجيجٌ هائلٌ كالمطارق. قال المُقدم:

- لا تدخل هنا أيضاً.

توقّفت السيارة وسط الطريق. صدرت أصوات أبواق السيّارات الأُخرى بحدّة، لكنّها صمتت عندما وضع فلوريس قدميه على الإسفلت. اتّجه إلى عرض الطريق، ورفع ذراعه ليوقف شاحنةً تابعةً لمحطّات وقود موليري، حينئذٍ، أشار إلى عظام كتفه، في إشارةٍ لأغوستين لكي يرجع إلى الخلف. بعد أن أصبح داخل السيّارة أمره:

- اِتّجه الآن إلى شارع جوادالوبي مباشرة.

- أجل يا سيّدي.

- ماذا عن الضجيج؟

- إنّه المحور يا سيّدي المُقدّم. سينكسر التوجيه في أيّة لحظةٍ، وهذا خطر.

- هل يمكنك إصلاحه؟

- يحتاج إلى وقتٍ طويلٍ يا سيّدي.

- لا أهميّة لهذا. أسألكَ إن كنت قادراً على إصلاحه أم لا.

- من الأفضل أن آخذها إلى الورشة.

أخرج فلوريس علبة تبغ «كاميل» من جيب سترته، ووضع سيجارة في فمه، وقضم طرفها قبل أن يشعلها بالولّاعة الفضيّة.

- إلى الورشة، لا.

ابتلع الدفقة الأولى من الدخان برضا، وبطرف لسانه بصق بقايا التبغ العالقة بشفته السفلى.

- هؤلاء الملاعين قادرون على وضع قنبلةٍ لي في المحرّك.

- 3 -

السيّد رئيس الجمهوريّة

القائد العام للجيش، السيّد أناستاسيو سوموثا د.

القصر الرئاسيّ.

ماناجوا.

السيّد الرئيس:

ألجأُ إلى هذه الوسيلة الإعلانيّة؛ لأنّني لا أمتلك طريقةً أُخرى للتواصل مع فخامتكم.

ألوذ بشعوركم الوطنيّ؛ لأطلب تدخّلكم الحكيم لإنهاء الوضع المأساويّ الذي نعانيه في هذه المدينة، إضافةً إلى هذا، وبصفتي راعياً للمدينة، فإنّني مُكلَّفٌ وفق الواجب المقدّس بالحفاظ على أرواح البشر كما تنصّ الأسرار المقدّسة كلّها.

ربّما يثير الموقف الذي أتّخذه اليوم اتّهاماتٍ جديدةً ضدّ الكنيسة، لكنْ لا يمكن التسامح أكثر من هذا في أنْ يستمرّ الموت بحصد حيوات

البشر من دون أيّ سبب، وأن يسود قانون الغابة فقط. نعيش الآن تحت شعار: «لينجو كلّ امرئٍ بجلده».

تعيش هذه المدينة الآن أسوأ الأيّام في تاريخها. لا يوجد مَن يشعر أنّ حياته آمنة. لقد أصبحت مدينةً مُحتلَّةً وميّتةً. فِرق الجيش تتجوّل في الشوارع لتزرع الرعب وتحصد الحيوات من دون أن ينجو حتّى الأطفال. ماذا يحدث؟ هل فقدنا القدرة على التفكير؟ هل يجب تطبيق قانون الأقوى على شعب مدينة ليون الحبيب؟ ألم تعد هناك أخلاق، أو قوانين إلهيّة يجب الالتزام بها؟ هل يمكن حلّ مشكلات الوطن بالقتل فقط؟

لماذا لا نجلس إلى المائدة كأصدقاء وأبناء وطنٍ واحدٍ للتفكير والبحث عن حلولٍ متحضّرة؟ لماذا لا تُحتَرم حياة الإنسان؟ لماذا تُنسى كلمات الرَّبّ: «ليصحبكم السلام»؟

أتوسّل بحُبّ الربّ لكي تتوقّف هذه الموجة الوحشيّة، وعواقبها من الانتقام والاعتداء على البشر.

الرَّبّ يريد أن نكون إخوةً، وأن ننحّي جانباً كلّاً من الكبرياء، والصلف، والغرور، وأن نتذرّع بأسلحة النور، وهي: الخير، والوداعة، والتفهّم، والحُبّ.

سيّدي الرَّئيس، فلْتضع نهايةً لهذا الألم كلّه، فهناك الكثير من البيوت التي تبكي على فقدان أحبّتها. إنّ الوطن يفقد رجال الغد. سيكون لدينا وطنٌ من دون وجهةٍ، أو بوصلة. باستمرارنا على هذا الحال سيسود الموت.

لقد قَبِل المسيحُ الموت، وسعى إليه لكي يعطينا الحياة. لماذا نجعل تضحيته تضيع هباءً؟

يجب أن نعود مجدّداً إلى الكفاح في الحياة، لكي يحصل أبناء الرَّبّ على حقوقهم غير المنقوصة، ولا تنحطّ طبيعتهم: في الحقول مع الزرع؛ حيث يجعل الربُّ أمطاره تهطل فوق الأخيار والأشرار، ويجعل الشمس تشرق لكي تمنحهم الحياة، وفي حياةٍ أُسريّةٍ، ليتمتّع الجميع بالرفاه والسلام، وفي حياتنا كمواطنين، لكي نبني وطناً قويّاً، ومزدهراً، وسعيداً.

سيّدي الرئيس، لن تفقد أيّ شيءٍ بإجزال العطاء؛ لأنّ كلّ شيءٍ ينتهي في هذه الحياة، الأعمال الطيّبة فقط هي من تتبعنا إلى الحياة الأبديّة.

سيمنحنا الربُّ نعمة الوفاق إن طلبناها على نحوٍ حقيقيٍّ. ليكن عيد الفصح الذي نحتفل به الآن مزهراً، وليس دامياً.

أرجو أن تستجيب لروح هذا الراعي الموجوعة التي تطلب الرحمة، وأن يعود الموت إلى مخبئه المعتم، وألّا يسير في شوارعنا من دون حسيب، وألّا يقضي على حياة أبناء نيكاراغوا الذين يريدون مواصلة الحياة تحت نظرة الربّ المُحبَّة، وفي حماية أمّ البشريّة، السيّدة مريم. أملنا كبيرٌ في الربّ.

مونسنيور مانويل سالاثار إسبينوثا،

أسقف ليون.

- 4 -

بعد أن ارتدى قفّازيه، شدَّ السترة البيضاء ذات الأزرار الذهبيّة عن طريق جذبها من الأطراف. أشارت له مارتا دي فلوريس لكي يستدير، ففحصت طرف ظهره السفليّ، وبعد ذلك طلبت إليه أن يستدير مرَّةً أُخرى.

- اعقد الزرّ العُلْويّ.

انعقدت عُقَل أصابع أغوستين في الثقب الضيّق من دون نجاح.

- لا يمكنني بينما أرتدي القفّازين.

أمرته زوجة فلوريس:

- تعال إلى هنا!

غرقت يدا أغوستين في العرق داخل القفّازين، متأثّراً بقوّة رائحة البشرة المتجعّدة، المغطّاة بمنتجات التجميل على نحوٍ يثير الاضطّراب، والعطر الذي لم يشمّه من قبل، وكحلٍ ثقيلٍ فوق العينين الكستنائيّتين. خدشت الأظافر الحادّة عنقه، ودخل الزرّ في ثقب سترة النادل. عندما ابتعدت بضعة سنتيمترات لكي تُقيِّم مظهره بالكامل، أمكنها أن ترى عينيّ الفتى منغرستين في نهديها.

- «إلامَ تنظر يا وقح؟». سألته من دون أن تبتعد.

لاذَ بالنظر إلى طرف الحذاء اللّامع، الموروث من ابن المُقدّم الأكبر، وابتلع لعابه بصعوبةٍ. شعر بالكُره تجاه عنقه المنحني. انتصبت زوجة المُقدّم في وقفتها منتظرةً أن ينظر إليها، أو يردّ عليها، لكنّ أغوستين لم يُبدِّل من موقفه؛ حيث كان أسير الخوف أكثر من الحيرة.

- خُذ الكؤوس واخرج.

شعر بالراحة لأمر السيّدة مارتا، وذهب إلى الصينيّة، ووضع يديه الغارقتين في القفّازين على حافّتيها، وعندما حاول رفعها أدرك مرعوباً أنّ التدريب الذي قام به في الرابعة اقتصر على السير بترسانة الكوكتيلات بالأكواب فارغةً، لكن الآن، لمجرّد تحريكه مليمتراً واحداً، بدا له أنّ كلّ إصبع من الشمبانيا كان ينطلق في عاصفةٍ، في إعصارٍ ينتزعه بالكامل من هذه البُسط، ويلقيه مباشرةً إلى زنزانة العريف ثيفوينتس. وسط هذه المعاناة، شعر براحةٍ بسيطةٍ لتركه عيني زوجة المُقدّم المتحدّيتين في المطبخ، لكنّ هذه الراحة تلاشت بسبب انفجار الضوء، والضحكات، والموسيقا، والعطور، والحليّ في الصالون. كانت ابنة فلوريس متأبّطةً ذراع خطيبها، بينما يحاولان إرضاء مُصوّر مجلة «نوبيداديس» بوضع الخاتمين الرائعين في الكادر الأوّل، في حين أحاط إخوة العروس بهما مبتسمين، ومرتدين ربطات عنق متشابهة، والمنديل المُعلَّق بدبّوسٍ ذهبيٍّ، وتصفيفة الشعر إلى الخلف، والهيئة الوقور لمن يدرك أنّه يضفي قيمةً على الصورة بهالة خرّيجي المدارس الأمريكيّة. على الرغم من أنّ مكبّرات الصوت كانت تكرّر أغنية «*Feelings*» الرومانسيّة التي لا تُقاوم، لم يكن هناك من يرقص، وكانوا أكثر تركيزاً على المشروبات الكحوليّة التي تمرّ

حولهم بسرعة. طافت الفتيات في مخملٍ وأنسجةٍ حريريّةٍ فضيّةٍ وذهبيّةٍ، وانتهز الفتيان نظام التبريد الفعّال في بيت آل فلوريس لكي يرتدوا -في طقس نيكاراغوا الحارّ- سترةً غامقةً، وعقدةً صغيرةً لربطة عنقٍ إيطاليّةٍ فوق الأعناق المحلوقة في مرايا مُكبّرة. شعر أغوستين أنّ قدميه تتمايلان داخل البساط الناعم. كلّفته المسافة حتّى المُقدّم سيلاً من العرق أغشى جفونه، ولم يكن بإمكانه تجفيفه بيديه الممسكتين بالصينيّة، فرفع الرجلان كأسين، وعندما بدا أنّ أغوستين سيذهب، أمسك فلوريس بكتفه ليوقفه. أجبرت الحركة أغوستين على محاولة الوصول إلى توزانٍ صعبٍ لكي يتفادى سقوط عرقه فوق الشمبانيا.

- «اِبق هنا». قال له الرجُل العسكريّ، بينما يضع الكأس الفارغ فوق الصينيّة، ويدعو رجُل الصناعة لتناول كأسٍ آخر. قرعا الكأسين الزجاجيّين، وتذوّقا الجرعة الثانية.

- «أصدقاء؟». قال الرجُل ذو الملابس البيضاء.

- أصدقاء يا رجُل، أصدقاء. ما في الأمر كلّه أنّني أنظر إلى الأمور بطريقةٍ تختلف عن طريقتك. قبل أيّ شيءٍ أنا رجُلٌ عسكريٌّ، وأنت مدنيٌّ، وهذا لا يعني الفرق بين البدلة والزيّ الرسميّ فقط، إنّما يعني طريقتين مختلفتين في النظر إلى الواقع. وبصفتي جنديّاً، دائماً ما أسعى إلى الوصول إلى أفضل الشروط. تكتيكيّاً: حماية المؤخّرة هي ضماني لخوض معركةٍ جيّدة. إنّه أمرٌ شخصيٌّ ومهني. ببساطة، يكون أدائي أفضل عندما أعرف أنّ عائلتي في أمان.

وضع رجُل الصناعة يده الودودة فوق كتف فلوريس.

- هذا يعني أنّني لم أُعبّر عن نفسي جيّداً يا سيّدي المُقدّم. أنا مثلك، أعتقد أنّ العائلة أوّلاً.

- هذا ما تقوله الآن، لكنّك لم تقله من قبل.

- لأنّك لم ترغب بفهمي.

- إن كنت تخاطر بتجارتك، فأنا أخاطر بحياتي؛ هذا أوّل فارقٍ بين الجنديّ والمدنيّ.

- ما زلت متشبّثاً بالتفاصيل يا سيّدي المُقدّم. لقد اقترحت عليك فقط أن تكون رحلة عائلتك في طيّ الكتمان.

- قولك هذا بمنزلة اتّهامٍ لي.

وضع فلوريس كأسه الفارغة في الصينيّة، وأمسك بكأسٍ أُخرى، لكنْ من دون أن يحملها إلى شفتيه. نظر الرجُل ذو الملابس البيضاء إلى أغوستين بريبةٍ، وبعد ذلك جرَّب ابتسامةً مهادنة.

- بحقّ الربّ يا رجُل، لست أنا من يقول هذا، إنّما الناس هي من ستتقوّل هذا.

- أيّ أناس؟

- أوّلاً: سكّان مدينة ليون كلّهم، وبعد ذلك الصحفيّون، فمنذ اغتيال تشامارو أصبحت عيونهم أكثر اتّساعاً، ويرون تحت الأرض، ويخترعون ما لا يرون.

- اغتيال تشامارو كان حماقة.

- كلّ جريمةٍ مُدانةٌ يا سيّدي المُقدّم.

- الجرائم الحمقاء أكثر من غيرها.

ترك الرجُل ذو الملابس البيضاء كأسه على الصينيّة، وداعب ذقنه بشيءٍ من التأثّر. قال بعد برهةٍ:

- على سبيل المثال: كان يمكنك ألّا تعقد هذا الحفل.

- إنّها رغبة ابنتي، من يدري كم من الوقت سيمرّ قبل أن تعود لرؤية حبيبها! هل تعتقد يا سيّدي أنّنا -نحن العسكريّين- بلا مشاعر؟

رفع رجُل الصناعة ذراعيه محاكياً التضرّع، وابتسم بيأس.

- إنّك تترجم كلمات صديقٍ وَفِيٍّ إلى إهانات.

شرب فلوريس الشمبانيا باندفاعٍ، وبينما يفعل هذا، أمكنه أن يلحظ أنّ مجموعةً قريبةً قد صمتت عندما سمعته يرفع صوته.

- «لننس هذا الأمر». قال: «لننس هذا الأمر».

تلهّى بالنظر إلى شعر أغوستين الصلب، وبعد ذلك نظر إلى ملابسه كنادلٍ حتّى قدميه. بلّل الفتى شفتيه بطرف لسانه، وابتلع عرقه حادّ المذاق.

- أنت تُفضّل الوجود هنا، والنظر إلى الفتيات أكثر من أداء التمارين مع الأبله ثيفوينتس، أليس كذلك؟

- نعم يا سيّدي.

تنهَّد الرجُل ذو الملابس البيضاء عميقاً، وأراد انتهاز الهدنة لكي يتملَّص. أوقفه فلوريس بحزمٍ مُمسكاً بكوعه، وقال بينما يعضّ على أسنانه:

- ماذا سيقولون يا سيّد ثوريتا؟ ما الترّهات التي سيقولها الناس؟

ردَّ رجُل الصناعة على صاحب الزيّ الرسميّ بصمتٍ عنيد، ودعاه هذا إلى الكلام بالضغط على ذراعه، لكنْ بعدما اقتنع أنّ الآخر سيظلّ لائذاً بصمته، ردَّ على نفسه قائلاً:

- إنّ الفئران تهجر المركب قبل أن يغرق. أليس كذلك؟

كانت أغنية *Love in the air* تصدر عن مكبّرات الصوت، ولم يستطع الرجُل ذو الملابس البيضاء جذب انتباه ابنه الذي كان يبتسم مفتوناً لفتاةٍ في الخامسة عشرة ترتدي فستاناً ضيّقاً من التُّل.

-أشعر بالأسف؛ لأنّ هذا الحوار أثار أعصابك يا سيدي المُقدّم. أشعر بأسفٍ حقيقيٍّ؛ لأنّني أقدّر صداقتك كثيراً.

- لا تنشغل يا سيّدي؛ الكلمات تثير غضبي، لكنّها لا تقتلني. الرصاص شيءٌ آخر، أليس كذلك؟

جاء ابنا المُقدّم نهمين إلى الصينيّة، وشدّا على يد رجُل الصناعة بتهذيبٍ، وعندما رآهما فلوريس قريبين للغاية، ومتشابهين للغاية، ووسيمين للغاية، بتصفيفة شعرٍ جيّدة، وأنيقين على الذوق الأوروبيّ، شعر أنّ غضبه يذوب في ابتسامةٍ دافئة.

- «في صحّتك». دعا السيّد ثوريتا بهذا البريق الجديد في نظرته.

- 5 -

عزيزتي فيكي، المنتصرة، والكاسحة، والمحاربة، والمترعة بالحياة، والمترعة بالحيويّة، والمدوّخة، والمعيشة، والمُبصرة، يا زهرة، يا رياحاً، يا حياة، يا حياتي: ها هنا رسالةٌ أُخرى من شاعرك الذي يبتلعه الغياب، الذي ييأس؛ لأنّ هذه الأوراق قد لا تصل إليكِ، أو ربّما تصل إليكِ عندما لا تعودين راغبةً بسماع اسمي. لا أعرف أين أحفظ هذه الدموع كلّها التي لا تُذرف، والتي تتراكم كأنّهم يطلقون الرصاص عليّ من دون أن ينزف جسدي. عيناي مبلّلتان طيلة الوقت، وإن لم يكن بسبب ما أرى، فهو بسبب ما أتذكّر. نادراً ما أنام، وعندما أنام أحلم، والأحلام ليست سوى استمرارٍ لما أرى، وتكرارٍ لما أرى، لكنّني بصحّةٍ جيّدةٍ، مُستنزفٌ، ومجنونٌ إلى حدٍّ ما، لكنْ لم تمسَسْني أيّة رصاصةٍ على الإطلاق. أعتقد أنّ خوفي من الموت هو ما يُبعده عنّي. لا يقول أيّ شخصٍ هنا: إنّني أخشى الموت. وإن كان الأمر يتعلّق بالتصديق، فأنا أصدقهم، لكنّني أخاف الموت؛ لأنّني أريد رؤيتك مجدّداً. قبل ذلك كنت أفكّر دائماً بأنّني سألقاكِ بعد النصر. كنت أتخيّل نفسي بينما أدخل ليون بحقيبة ظهري الممتلئة بالزهور، وجيوب السترة والبنطال مترعون بالقصائد، فأعانق أهل البلدة، وحينئذٍ تظهرين بين

الجموع، وتقبّلينني بقوّةٍ في فمي، وتدخلين لسانك كلّه بين لثتي وشفتي، وتروين به أسناني الجافّة الجائعة، وتسرعين بي إلى غرفتكِ، وتنزعين عنّي ملابسي بطراوة مطر منتصف النهار، لكنّ النصر يتأخّر. ذلك النصر -حتّى الآن- ليس سوى أيّامٍ كاملةٍ أمضيها في نوبة الحراسة بجوار البحيرة من دون أن أراكِ، ومن دون أن أتمكّن من التحدّث إليكِ. لم أعد أحلم، أو أتمنّى أيّ شيءٍ الآن. أودّ رؤيتكِ اليوم، أودّ لو أنّني رأيتكِ بالأمس. لا يهمّ إن كان سوموثا ما زال في الحُكم، ولا يهمّ أن ينتشر الموت حولنا وينمو مثل الأعشاب البريّة. أودّ رؤيتكِ، وأن أُقدّم إليكِ نضالي، على الرغم من أنّني لا أحمل لك النصر. أنا أكثر الثائرين الساندينيّين جنوناً. تخطر على بالي صورٌ تجعلني أحلّق مثل طيورٍ ترفرف بيأسٍ داخل رأسي. كلّ شيءٍ يبدو لي مُعقّداً. أنا أخشى الموت. قلت هذا لقائدي، فسألني: «هل تخشى القتال؟». فأجبته: «لا أخشى القتال، إنّما الموت». أنا أكثر أفراد وحدتي هذياناً. لديَّ ثلاثة دفاتر ممتلئةٌ بالقصائد، وأحمل الكتب أكثر ممّا أحمل الرصاصات. أودّ لقاء الأب كاردينال ذات يومٍ؛ لأُطلعه على قصائدي. أنا أشعر بالخوف من الموت. أحمل في جيبي قصيدةً لخابير هيراود، دائماً ما أقرأها وأتأمّلها.

لا أسخر على الإطلاق
من الموت.
ببساطة،
ما في الأمر كلّه
أنّني أشعر
بخوفٍ

من
الموت
بين
الطيور والأشجار.

أفكّر بأنّني لو مُتُّ هنا، فإنّ الطيور والأشجار ستظلّ هنا، من دون أيّ اكتراثٍ لِموتي. ماذا سيتبقّى لكِ منّي؟ لا شيء سوى غيابي وحُبّي! سأعيش حتّى النصر؛ لأنّ هذا النصر للجميع، لكنّني أريد الاستمتاع به أيضاً. أريد أن أرى كيف تلمع عيناكِ ببريق النصر، وما يفعل النصر بجسدكِ الذي أرغب به كثيراً بعد أن أفلتِّ منّي كثيراً. أعرف أنّني لست فتى وسيماً، لكنّني لست قبيحاً أيضاً. إن رأيتني الآن بلحية، وبهذا الشَّعر، وإن أردت تقبيلي، يجب أن تفتحي طريقاً وسط أعشابٍ كثيفةٍ لكي تعثري على شفتيَّ. لا أعرف إن كنت أريد أن تصل إليكِ هذه الرسالة. أقرأها، ولا أشعر بالإعجاب تجاه نفسي. أشعر أنّني ضعيف. أتألّم بسبب الأيّام الطويلة من دون حركةٍ. أتألّم بسبب التعقُّل، والنظام، والاستراتيجيّة، الذين يجعلوننا نتقدّم ونتراجع. أريد الوصول في كلّ دقيقةٍ إلى نهاية كلّ شيء، من دون تلكّؤٍ، أو وقفات.

لا أريد الاكتئاب بسبب هذه السطور، وعلى الرغم من هذا، بينما أكتب يزداد حزني. فكّرتُ بأنّ الكتابة إليكِ ستعينني على قول الأمور كلّها التي كتمتها عندما كنت بجوارِكِ في أيّام الأحد في مقهى «إل سيستيو» عندما كنّا نتناول القهوة قبل دخول السينما، وعندما كنت تسألينني في كلّ لحظةٍ بمَ أفكّر، وبما أنّني لم أكن أحبّ التحدّث عن أفكاري، كنت أقول لكِ أيّ

شيءٍ اخترعته في لحظتها، وكنت أرى كيف تبتسمين لي، لكنّكِ أيضا كنت تنظرين إلى بعيد، إلى شاطئ ناء، بحزنٍ، بطيءٍ مثل ظلٍّ أو مثل كلب ضخم نائم تحت أقدام أسد الكاتدرائية. كيف يمكنني أن أحبّك إلى هذه الدرجة، وأن أعيش غارقاً في حبّي لكِ كأنّني أتأبّط ذراعاً؟

أفكّر أحياناً بأنّني أكتب المزيد والمزيد من القصائد؛ لأنّني لا أعرف كيف أعيش. أشعر أنّ كلّ شيءٍ يدفعني، أو يمرّ أمامي. عندما أتّخذ قراراً، وأفعل شيئاً، لا أعرف على الإطلاق كيف فعلته. أنا هنا اليوم، بالقرب من البحيرة، بصحبة الفتيان، والشيء الوحيد الذي أرغب به هو التمدّد بجوارِكِ، على مقربةٍ شديدةٍ من جلدكِ، جلدكِ أنتِ. لا أعرف بم يشعر رفاقي. بالنسبة إليّ الزمن يمرّ بطيئاً، وأعتقد أنّه لا يمرّ كذلك بالنسبة إليهم. انتظار الأخبار، أو التعليمات يبتلعهم بقوّةٍ شديدةٍ كما العمليّات العسكريّة. ذلك الصمت يصقلهم. كأنّ السكوت والانكباب على أنفسهم يجعلهم أكثر قوّة. لم أرد أن أحكي لكِ هذا، لكنْ مرَّت أيّامٌ؛ حيث كنّا ندخل ونخرج في مایاسا، وجرانادا، ونيكينهومو. ذات يوم أحد ذهبت مع أحد الرفاق للقيام بمهمّةٍ في كاتارينا. كان الحرس الوطنيّ قد ألقى القبض على شباب البلدة كلّهم، الذين ظهروا جثثاً بعد ذلك في الأماكن المحيطة بالبلدة. أخبركِ بهذا لكي تأخذي حذرك، إن كان عمرك أكثر من ثلاثة عشر عاماً سيريدون قتلكِ. أنت امرأةٌ، لكنْ لا يمكنك الركون إلى هذا. أحكي لكِ أمر شباب كاتارينا؛ لأنّني يجب أن أبلغكِ بخبرٍ سيّءٍ، وهو أنّهم قتلوا فرانثيسكو لاتينو. يُقال: إنّ هذا كان انتقاماً، ويُقال: إنّ الفتيان أشعلوا حريقاً في بيت أحد الوشاة. لا أعرف إن كان هذا حقيقيّاً، لكنّهم هنا في الجنوب يقتلون كلّ من يبلغ أكثر من ثلاثة عشر عاماً. قتلوا فرانثيسكو لاتينو. يجب

أن أبلغكِ أيضاً بالخبر السيّئ الآخر، وهو أنّهم قتلوا إخوة فرانثيسكو. قتلوا دومينجو بومبيليو وماريو. أخبري إغناثيو لأنّه كان صديقاً مقرّباً لهم؛ أقاموا لديه أسبوعاً في بونيولا في العالم الماضي. أخبري إغناثيو لكنْ قولي له: إنّني أطلب إليه ألّا يشعر بالمرارة، إنّما أن يحتاط. إنّهم يقتلون كلّ من بلغوا ثلاثة عشر عاماً هنا. لا تصدّقي ما يقول سوموثا حول أنّه سوف يحكم حتّى عام 81. سوف نطرده قبل ذلك. سأعيش لأرى هذا. حتّى إن قتلوا الكثيرين، سأعيش لأرى هذا.

ربّما تُشكّلين فكرةً سيّئةً عنّي؛ لأنّني أتحدّث كثيراً عن نفسي، وأتحدّث قليلاً عن الآخرين. بكلّ صدق، أقدّم إليكِ اعتذاري؛ لأنّني أعتقد أنّني دائماً ما كنت أنانياً إلى حدٍّ ما. دائماً ما تأخّرت في فهم مشاعري. دائماً ما أُدير الكلمات في عقلي من دون توقُّف. أعتقد أنّ كلمات داريو(*) تنطبق على ما حدث لي معكِ:

أنتَ، يا من تُريح ذقنك على يدك
بينما لا تتوقّف عن التأمُّل،
أخي، لقد أهدرت
زهرة عمرك.

لكنّني لن أكون أبلهَ هكذا عندما أراكِ. سأُقبِّلكِ من دون توقُّفٍ، وسأجعل منكِ شُعلةً، وسأنصهر فيكِ، وسأدع رأسي يمتلئ بحبّكِ إلى درجة عدم اضطّرارها إلى التفكير في أيّ شيء. يُقال: إنّ «الجبهة» ستصدر أمراً في أيّة لحظةٍ لكي ينتظم الناس كلّهم في إضرابٍ، وحينئذٍ سيحدث الهجوم العسكريّ النهائيّ.

(*) إشارة إلى روبين داريو. (م).

أُريد امتلاك تلك اللّحظة المثاليّة الرائعة بين يديّ الآن من دون تأخير، مثل تلك البرتقالة الممتلئة بالرحيق التي أودّ التهامها في تشيناندیجا. لا أتوقّف عن التّفكير في تلك اللّحظة التي لا تصل. تلك اللّحظة ترفعني إلى السماء مثل شِهابٍ. هنا تسقط النيازك في اللّيل. يبدو عاماً جديداً أبديّاً لا نهاية له. لكنّني لا أعرف أسماء الطيور. أسأل الفلّاحين ويخبرونني بأسمائها حسب حطِّها على فروع الأشجار، أو طيرانها، أو غنائها. أحياناً تكون الأيّام هنا طويلةً للغاية كالأنهار. تتحرّك، لكنّها تظلّ موجودةً. ساكنةً للغاية. وفجأةً! ندخل في المعمعة. نهجم على فِرقٍ من «الحرس الوطنيّ» على الطريق، وندخل قريةً، وننتشر في شوارعها، ويحلّ أزيز الرصاص محلَّ أصوات الطيور. يهتف الفتيان للوطن، أو للموت بينما يتقدَّمون. أنا لا أقول أيّ شيء. أحاول القيام بواجبي، فقد اعتدتُ على إطلاق الرصاص، لكنّني لا أريد أن أرى بعد ذلك إن كنت قد قتلت شخصاً ما. كم أودُّ أن يرحل سوموثا! سننتصر، لكنّ البلد سيكون محطّماً. يُحكى أنّ الأهالي في ماسايا ومونيمبو قاوموا «الحرس» في شهر شباط/ فبراير بقنابل من ألياف الخيش والبارود أيّاماً كاملة. من جانبنا سقط كاميلو. دخل «الحرس» مدينة مونيمبو بعتاده كلّه، من: دبّاباتٍ، وطائراتٍ، ومُشاة. لا أعرف أيّ شيءٍ عن ليون. تُقال أشياء، لكنّها دائماً ما تكون هائمةً وغير محدّدة. يُقال: إنّ الجامعة مُغلقة. وأنتِ، ماذا تفعلين إذنْ؟ هل ما زال أبوكِ عاطلاً من العمل؟ يُقال: إنّ نصف سُكّان نيكاراغوا بلا عمل. على الرغم من عدم ذهابك إلى المحاضرات، استمرّي في المذاكرة، وأكثري من التدريب على نحوٍ خاصّ؛ فعندما ننتصر ستكون هناك حاجة كبيرة إليكِ، بمثقابك ويدك الملائكيّة. أنا سعيدٌ؛ لأنّني أعطيتكِ أحد أضراسي

من أجل تدريباتك، لأنّ الغطاء ما زال ثابتاً مثل الصخر. أعتقد أنّه أكبر من اللّازم؛ لأنّني أشعر بحجمه عندما أُمرِّر لساني، أم كنتُ معتاداً على إدخال طرف لساني في الثقب المتسوّس؟ يوجد معنا فتى تشيليّ، وكان قد درس طبّ الأسنان أيضاً في بلده. يقول: إنّ هتاف كليّته في المنافسات الرياضيّة الجامعيّة كان: «الناب الناب، الضرس الضرس: كليّة طبّ الأسنان». لا أعرف عمّ أحدّثكِ الآن. الكلمات كلّها تثير ضيقي، وتُطبق عليَّ مثل حِلَّةٍ جديدةٍ، أو حذاءٍ أصغر بمقاسين. الشيء الوحيد اليقينيّ هما هذان الذراعان اللتان تطيران لعناقكِ، واللتان أمسك بهما بهذا الخطّ الصغير الذي يتضاءل باضطّرادٍ لكي تسعه الورقة، لو كنت أملك ورقاً لكتبت إليكِ أكثر. الآن لا توجد مساحةٌ سوى لكي أكتب إليكِ بخطٍّ صغيرٍ للغاية (لكنْ بنيّةٍ كبيرةٍ للغاية): «أُحبّكِ».

حاشية: كتبتُ ما سبق كلّه أمس. عرفنا اليوم بعدم وجود أيّ هجومٍ آخر فيما تبقّى من الشهر. يُحلّلون في كلّ مكانٍ آثار إضراب كانون الثاني/ يناير. يُقال: إنّ الشخص المدعو سولاون أثّر في بعض القطاعات لإنهاء الإضراب. كانت البروفة النهائيّة لإضرابٍ قادمٍ، الإضراب الكبير، إضراب النصر، الذي سيعيدني إليكِ (إن كنتِ ما زلت تقبلينني). والآن، أنتبه إلى أنّني كدت أنسى الهدف من هذه الرسالة: أعتذر إليكِ؛ لأنّني لم أذهب إلى بيتكِ يوم وعدتكِ بهذا؛ ببساطة لم أستطع. لا أعتقد أنّني سأستطيع الحصول على ورقةٍ أُخرى اليوم، كما لا يمكنني تصويب الرسالة؛ لأنّ شخصاً محلَّ ثقة كبيرة سيسافر إلى ليون وسيجعلها تصل إليكِ، هو سيتدبّر هذا الأمر. إنّه ماكرٌ كالثعلب، وشجاعٌ كـ... كالأسد، أو كأحد أبناء مدينة ليون. أنا سعيدٌ؛ لأنّني أعتقد أنّ هذه الرسالة ستصل

إليكِ، وأكثر سعادةً لأنّكِ ربّما تستطيعين الردَّ عليها. شاعركِ يُودِّعكِ بقبلةٍ إيروتيكيّةٍ للغاية.

ليونيل.

قرأ ساليناس حاشية الرسالة، ثمّ سار على أطراف أصابع قدميه حتّى الستارة الخضراء وفتحها. الظِّل الذي حلَّ لم يأتِ بأدنى نسمةٍ منعشةٍ. كان الهواء ثقيلاً، ولا يمكن تنفّسه.

مرَّر إغناثيو المنديل المُبتلّ مرّةً أُخرى على جبهته وجفنيه، وكان واعياً أنّ هذا لن يخفّف عنه، فرفع قدميه المتعاقدتين عن حافّة مائدة التصنيف، وأراح كعبيه على مقعدٍ، وبعد ذلك غرس ذقنه بين ركبتيه، وحاول التَّعرّف إلى تعبير وجه ساليناس في العتمة الرطبة. قال له:

- ما رأيك؟

ظلّ ساليناس يداعب ثنايا الستارة خلال بضع دقائق، ساعياً بإصرارٍ إلى ألّا يتسلّل أيّ شعاع نورٍ ساخن.

كرَّر إغناثيو من دون تبديل وضعه:

- ما رأيك؟

نظر إليه الموظّف من دون أن يجيب، وعاد لتمسيد الستارة بإصرارٍ وهوَسٍ. أضاف إغناثيو:

- دع هذا يا رجُل! ولنتحدّث عن الأمور المهمّة.

أخرج ساليناس رأسه عبر النافذة، وبدقّة صانع ساعاتٍ فحص الشارع الخاوي بسبب القيلولة، وقال بينما يجفّف راحتيه الرطبتين في الجزء السفليّ من الستارة:

- لا يوجد أيّ شخص.

- ومن يمكن أن يوجد؟

- «أيّ شخص». أمال عنقه تجاه إغناثيو ونظر إليه بريبةٍ كبيرةٍ، ثمّ أضاف: «ربّما يكون هناك شخص ما قد اتّبع خطاك».

تثاؤب إغناثيو الهائل، الذي صاحب بسطَ جسده وسقوطه على المقعد، لم يفلح في جعل سالیناس يشعر بتفاهة انقباضه. وضع الرسالة على المائدة، ثمّ وضع كتاب «كليوباترا» لِـ«إيميل لودفيج» فوقها ليغطّيها تماماً. قال الشاب:

- حسنٌ. أنت خائف.

- «أنا؟». صاح سالیناس مدهوشاً.

- أُخرج إذن، واحمل إليها الرسالة.

- «هذا ممكن». قال سالیناس.

- ماذا تعني بأنّ هذا ممكن؟ ستفعل هذا أم لا، هذا هو الأمر. إن كنت ستفعل هذا، قم به، وإن لم تكن ستفعله، لا تقم به.

رفع الرجُل حافّة الكتاب، واسترق النظر إلى الهامش السفليّ للرسالة، وقرأ: «شاعركِ يُودِّعكِ بقبلةٍ إيروتيكيّةٍ للغاية». وقال:

- لماذا أنا؟

- «لماذا أنت؟!». صرخ إغناثيو: «لأنّك ساعي بريد يا أبله! من هو الشخص الأفضل من ساعي البريد لتسليم رسالة؟».

وضع سالیناس إصبعه رأسيّاً على شفتيه، وأشار بطريقةٍ موحيةٍ نحو النافذة. اتّجه إليها، وأغلق الستارة، ثمّ نظر إلى جانبيّ الشارع، وقال:

- لا يوجد أيّ شخص.

ذهب إلى المائدة، ورفع الكتاب، وعن بُعدٍ فحص الخطّ في تلك الأوراق الثلاث المترعة بحروفٍ صغيرةٍ ومتوتّرة.

تقدَّم إغناثيو حتّى حافّة المائدة، وأمسك الأوراق، ووضعها في جيب قميصه، ثمّ قال:

- لنترك الأمر هنا؛ إن كنت لا تمتلك الجرأة على فعل هذا، لا تفعله.

استولى ساليناس على الأوراق بجذبةٍ قويّةٍ وحاسمةٍ، ووضعها بضربةٍ على المائدة، ثمّ بدأ في تسويتها. قال:

- كيف أفعل هذا؟

- قبل أيّ شيء، تضع الرسالة في مظروفٍ، وتضع طابعاً على المظروف، وتضع ختم البريد على الطابع.

- الختم الموجود لديّ يخص هذه المنطقة. الشاعر موجود في ريباس، أليس كذلك؟

- لتضعه إذنْ، ثمّ امحه بإصبعك هكذا. عندما يتلقّى المرء خطاباً يقرأ الرسالة، وليس الختم.

- إنّك تتحدّث هكذا لأنّك لست من سيحملها. أنا من سيحملها.

ابتسم إغناثيو. هو أيضاً قد نطق ذات مرّةٍ كلمة «أنا» الحماسيّة كما فعل ساليناس. في وقتٍ كهذا، يقع الثِّقل الأكبر على من يُنفّذ الأمور ويقوم بها، وليس على تأثيرها. قال:

- معذرةً؛ إنّه تفصيلٌ مهمّ.

- أنا مبتهجٌ لأنّك تدرك هذا!

- أنا مُدركٌ هذا.

وضع سالیناس الأوراق في مظروفٍ، وعندما كان يستعدّ لتبليل الصمغ باللعاب، أوقف لسانه على طرف الطابع:

- أعتقد أنّك لا ترى أهميّةً لمن يضع اللّعاب على المظروف.

- «لا أهميّة لهذا». صاح بصوتٍ مختنقٍ، بينما يكتم الابتسامة التي جاهدت لفتح شفتيه.

مرَّر سالیناس لسانه بعنايةٍ على الطرف المغطّى بالصمغ، كمن يُغلق سحّابه، وبعد ذلك بسط المظروف فوق مائدة التصنيف بوساطة ضرباتٍ صغيرةٍ من قبضته. قال من دون أن ينظر إلى الشاب:

- كنتُ أسألك؛ لأنّه يُقال: إنّ العسكر في بنما يتعلَّمون فئات الوسائل التقنيّة كلّها.

- هكذا؟

- من المُحتمل للغاية أن يكتشفوا صاحب اللسان عن طريق اللعاب الموجود على صمغ الطابع. فلْتكتب أنت المعلومات على المظروف.

وضع إغناثيو القلم بين أسنانه، وسوَّى سطح المظروف مرّةً أُخرى براحة يده اليمنى، وأمسك القلم، فكتب:

الآنسة

فيكتوريا مينور

المربّع السكنيّ الرابع، جنوب صيدليّة «لوسي»

ليون

نيكاراغوا

نظر ساعي البريد من فوق كتفه، وكتم أنفاسه بينما يقرأ الاسم، ثمّ قال:

- فيكتوريا مينور. ابنه أنطونيو مينور؟ الرسالة لفيكتوريا مينور!

- أين الطوابع؟

- أخت أغوستين؟ اللّعنة!

أخرج ساليناس طابعاً بقيمة «كوردوبا(*)» واحد من أحد الأدراج، ووضعه فوق الرسالة. بلّله إغناثيو باللعاب، وألصقه فوق الركن العُلويّ الأيمن. بعد ذلك أمسك الختم المطّاطيّ، ووضعه داخل فمه ليطلق عليه البخار الصادر عن حلقه، وفي النهاية دقّه بينما يحرِّكه على الطابع ليمحو الكلمات.

- حتّى المسيح لا يمكنه قراءة بيانات الختم.

كان ساليناس ينظر إليه كأنّ أنفاسه مختنقة، ولا يجرؤ على إطلاقها. ازدرد الكثير من اللعاب، ثمّ قال:

- «هل يمكن أن أخبرك بشيء؟». حكَّ إغناثيو أنفه في بادرةٍ على القبول: «في مرحلةٍ ما، كانت فيكي تعجبني كثيراً».

- هل كنت تعشقها؟

تمعَّن الشاب في حمرة الخجل البطيئة التي استولت على وجه ساعي البريد. أدرك الأخير أنّ اختناقاً مفاجئاً سيمنعه من الرَّدّ، فأحنى رأسه موافقاً، كمن يحاول التنفّس وسط محيطٍ من الخجل.

- ولم تُفصح لها عن هذا على الإطلاق؟

- «لا». قال بصوتٍ ناءٍ.

(*) اسم وحدة العملة، واستخدمنا «كوردوباس» كجمع لها في مواضع أخرى في العمل. (م).

- سنوات طويلة في المنطقة ذاتها، شراء الزيت من المتجر نفسه، وسماع الأسطوانات ذاتها، ومجموعة الأصدقاء نفسها...!

- كانت جميلة للغاية.

- وماذا؟

- إنّها أمورٌ تحدث للمرء؛ النساء الجميلات للغاية لا يمكن أن يكنَّ للمرء.

- هذه فلسفةٌ حمقاء وانهزاميّة يا ساليناس؛ النساء الجميلات دائماً ما يكنّ شديدات الحزن، ووحيدات؛ لأنّ الرجال الوسيمين فقط يقتربون منهنّ، ويتحدّثون إليهنّ عن ترّهات، ويستخدمونهنّ للخروج معهنّ، والتباهي بهنّ أمام الآخرين، وهذه الأشياء كلّها.

- أنا لا أمتلك هبة الكلمات العذبة.

- لا حاجة إلى هذا؛ عندما أشعر بشيءٍ عميقٍ تجاه فتاةٍ ما، شيءٍ كبيرٍ إلى حدٍّ ما، أنظر صامتاً فقط.

- ولم يخفق هذا على الإطلاق؟

- لم يخفق على الإطلاق.

- إنّني حتّى لا أمتلك مثل هذا الصمت الجميل.

رفع ساليناس الرسالة عن المائدة الكبيرة، وهزَّها أمام عيني إغناثيو مشهراً الدليل القاطع.

- هل ترى من عشقت؟ شاعراً.

غرس إغناثيو عينيه في خدشٍ قام به قطٌّ.

- عشقت رفيقاً، أليس كذلك؟

مكتبة
t.me/t_pdf

وضع ساليناس الرسالة في راحة يده كأنّه يزنها، وبدا غارقاً في عاصفةٍ من الذكريات. ذهب إغناثيو حتّى نهاية القاعة، ومرَّ بيده على الآلة المغطّاة بالغبار في الركن، وسأل من دون أن يستدير إلى ساليناس.

- هل هذا هو التلغراف؟

- نعم.

- هل تعرف كيف تستعمله؟

- رأيت كيف يستعملونه، لكنّني لم أستعمله بنفسي من قبل.

استدار إغناثيو واتّجه بخطى سريعةٍ نحو ساليناس، وغرس إصبعه في صدره بقوّة.

- «يجب أن تتعلّم طريقة استعماله». وغمز له بعينٍ: «هذا أمر!».

ظلّ ساعي البريد حائراً وسط الغرفة، بينما يخرج الشابّ سامحاً بوصول قطاعٍ من النور إلى جسده، لكنّه كان نوراً فقط لانعدام الهواء. ظلّ غارقاً في حيرته خلال وقتٍ طويل، وفجأةً! عاد إلى الحركة كأنّما بفعل شحنةٍ كهربائيّةٍ، فخرج إلى الشارع، وهرول بالرسالة في يده حتّى لحق بإغناثيو. عندما استطاع اللحاق به لاهثاً، شهر الظرف مرّةً أُخرى كما فعل في المكتب كأنّما يكشف عن دليل.

- لماذا لا تُسلِّمها الرسالة بنفسك؟ أنت جارها. وإن لم تكن راغباً بتسليمها إليها شخصيّاً، لماذا لا تلقيها تحت عقب الباب؟

سمع إغناثيو الأسئلة بينما يُحرّك ذقنه موافقاً، وينظر إلى السماء محاولاً التكهّن إن كان المطر سيسقط.

- هل لديك أسئلة أُخرى؟

- لا، هذه هي الأسئلة كلّها.

حرَّك الفتى عينيه ليشمل بنظرته الرصيف المقابل، وكلا الناصيتين. انتظر صابراً بينما يمسك أنفه بأصابعه حتّى مرَّ رجُلٌ غير معروفٍ بالنسبة إليه، وبعد ذلك أمسك يدي ساعي البريد بيديه وهزَّهما برقّةٍ، بأخويّةٍ.

- لأنّك يجب أن تبدأ في لحظةٍ ما.

- 6 -

عندما أصبح بجوار مستشفى سان بيشنتي، وضع يديه فوق الحقيبة حائلة اللّون، وحاول التركيز في محتواها؛ الفستان الأخضر، ذو فتحة الصدر الهائلة، من أجل ميريام. الحذاء الأسْود لأمّه، والحذاء البُنّيّ للجارة. من الأفضل أن يعطي الأحذية كلّها لأمّه، وتتولّى هي توزيعها. البلوزة الزرقاء لفيكي، والبلوزة الخضراء لميريام. ميريام الخضراء. بلوزة خضراء، حلّة خضراء. في الجانب الأيمن توجد كرتونة «وينستون». سأقسمها إلى اثنتين: نصف للعم إيميلو، ونصف لأبي. من نصف أبي سأعطي النصف لفيكي. من الأفضل أن أعطي ثلاث علبٍ لأبي، وثلاثاً لفيكي، وأربعاً لعم إيميلو؛ فهو أكثرهم شراهةً في التدخين. القمصان كلّها لأبي. مكويّةً ونظيفةً. دفع خمسة عشر كوردوباس، وقد دفعها في محلّها. السيّدة مارتا امرأةٌ طيّبة. ملابس مُستعملة من الدرجة الأولى. سيقول أبوه: «كالجديدة». ابتسم عندما صدر صرير المكابح عن القطار. عندما توقّف، بدا أنّ الهواء يتلاشى في العربة الخاوية، وغرق الفتى في ألفة روائحِ السوق، والترتيب ذاته لمواضع البيع في الشارع، التي لم تتبدّل مع مرور السنين. تجاوز الفتى السلالم بقفزةٍ واحدةٍ، وأخذ يجرى على رصيف المحطّة بإيقاعٍ متناقضٍ

مع المكان. أخذ يُمرجح الحقيبة. كان قد استعاد البهجة وخلوّ البال اللذين كان يشعر بهما قبل عقدٍ في الطريق ذاته، عندما كان يعود من المدرسة الابتدائيّة إلى البيت متلاعباً بالحقيبة المدرسيّة، ومعدته تئنّ من الجوع، خفيفاً مثل الشهاب، دائخاً بسبب الروائح القويّة لأكشاك اللّحوم، ونبات اليوكا المقليّ، وحَبّ الرُّمّان . في نهاية الرصيف، من دون أن يتوقّف عن مَرجحة الحقيبة، نظر إلى محطّة الحافلات الإقليميّة، عاجزاً عن مقاومة سحر حشود المسافرين والباعة الجوّالين. كلّ شيءٍ يتّسق مع المكان الخانق الذي كانت عليه مدينة ليون.

اختصر الطريق، وبقفزةٍ أصبح فوق الرصيف الذي يقسم الشارع. نهر من الحديد. أخذ يسترق النظر داخل تلك البيوت عبر قضبان النوافذ، في هذه البيوت أكل ذات مرّة، وعمل الواجبات المدرسيّة مع زميل المدرسة، أو لعب حتّى وقتٍ متأخّرٍ في اللّيل، وذهب أنطونيو بالبيجاما للبحث عنه. لطالما قتل العطش بأكوابٍ كبيرةٍ من عصير الليمون في كلّ بهوٍ من تلك الأبهاء. حينها توجّب عليهم الذهاب لإحضار الثلج بالدرّاجة، أو إقناع ساعي البريد ليعيرهم درّاجته ثلاثيّة العجلات. كان يبدو أنّ أهل الحيّ كلّهم من صانعي الأحذية، أو من الحلّاقين. بعد خطواتٍ قليلةٍ انتبه إلى أنّه لم ير أيّ شخصٍ مألوف، لكنْ بعد قليل، قامت بضعة وجوهٍ مألوفة بتتبّعه من دون توقُّفٍ. قال لنفسه: إنّ السبب قد يكون في قصّة الشعر العسكريّة. آخر صورةٍ يتذكّره الجيران عليها حين كان شعره الطويل يتطاوح بينما يرقص «كومبيا» مع ميريام في مبنى المطافي، لكنْ عندما دار في الناصية الأخيرة التي ستقوده إلى منزله مباشرةً، اصطدم بإغناثيو، الذي كان يحمل عجلة درّاجةٍ، فأدرك أنّ هناك أسباباً أُخرى عندما شعر بنظرته الحادّة. قال أغوستين منزعجاً:

– أخذت إجازةً خلال عطلة نهاية الأسبوع.

ضغط الآخرُ الإطار المطاطيّ على العجلة المعدنيّة، ونظر باهتمامٍ عبثيٍّ إلى أعمدتها الصدئة. رغب بكسر الصمت، لكنّه لم يجد سوى تلعثمٍ في اللسان، واضطرابٍ في الأصابع. تفادى أغوستين ودار في الناصية بينما يحكّ كوعه في الجدار. أراد الجنديّ التصفير له، لكنّ الحيرة تغلّبت على الرغبة، وواصل طريقه بينما يُمرجح حقيبته من دون حماس.

لفت انتباهه أنّ بيته مغلقٌ. كان الناس في ليون يلاحقون الرياح بحميّةٍ، وفي اللّيل فقط، عندما يشعرون أنّ العتمة والهواء الرطب قد امتزجا، يتجمّعون على الأبواب. دقّ على مطرقة الباب عاجزاً عن التوقّف عن الابتسام بينما يتخيّل نفسه بعد دقيقةٍ في الصالون وسط دهشة أهله. آماليا، التي كانت تكنس في أحد الأركان، التفتت بعدما لفت انتباهها الضوء المفاجئ، وعندما تعرَّفت إلى ابنها خبطت على نحوٍ مسرحيٍّ على جبهتها كأنّها تشهد معجزةً. ألقت المكنسة على الأرض، ووضعت ذراعيها تحت كتفيّ الشابّ، بينما تعرّض وجنتيها لشفتيه. لَمْ يتسنَّ لأغوستين الوقت لترك الحقيبة. ترك نفسه لسحر حنان أمّه، وشعر أنّه صغيرٌ فوق صدرها النابض. مرجحته على إيقاع رقصةٍ غير مرئيّةٍ، وبعد ذلك أبعدته قليلاً، فقط لكي تبلّل وجنته بقبلةٍ طويلةٍ مصحوبةٍ بنَهْنَهة.

ظهر الأب في حلق باب المطبخ.

تحرَّر أغوستين من عناق آماليا، ووقف منتصباً أمام أنطونيو، وكان مبتسماً بينما يُمرجح الحقيبة. رمشت عينا أنطونيو مرّاتٍ عديدة، ثمّ اتَّجه إلى إبريق الماء كأنّما يتبع أمراً داخليّاً، وشرب طويلاً من الحافّة التي أبعدها عن فمه.

قال أغوستين:

-ألن تُحَيّيني يا أبي؟

شرب أنطونيو جرعةً أُخرى، ومسح فمه بكُمّ القميص، وغمغم من دون أن ينظر إليه:

- مساء الخير.

وضع يديه على الإبريق، وبدا أنّه يغرق في أفكاره.

صاح أغوستين:

- لقد أخبرتكم بزيارتي. ألم تتلقّوا الرسالة؟!

رفعت الأمّ ذقنها مُشيرةً للأب لكي يجيب.

- «لا». قال بصوتٍ خافتٍ: «لم نتلقّ أيّ شيء».

داعبت الأمُّ شَعره.

- أهمّ شيءٍ أنّك قد أتيت.

- لديّ عطلة نهاية الأسبوع فقط.

- وهل خرج مارثيلو؟

- لا، إنّه في الداخل. رأيت أمّه تحوم حول المعسكر.

- هل تركوها تدخل؟

- كيف يخطر هذا على بالك؟ لم يعد أيّ شخصٍ يدخل، أو يخرج الآن.

بدا أنّ أنطونيو منشغلٌ بفكّ لغز الضجيج في الشارع، لكنّه التفت إلى أغوستين بحدّة:

- وكيف خرجت أنت؟ هل يمكن أن تخبرني؟

تذكّر الشابُّ تعابير الشقاوة التي لطالما أثارت ضحك أبيه عندما كان طفلاً، ورفع حاجبيه غامزاً بإحدى عينيه بتواطؤٍ:

- هناك ملائكة ترعاني.

عوضاً عن الابتسامة، أو اليد المشعرة للرجُل تداعب شَعره الطويل، أو الخبطات الرقيقة على وجنته، قال أنطونيو: «بعد إذنك». ثمّ اتّجه إلى المطبخ. التقى في طريقه العمّ إيميليو. اتّجه هذا إلى الشابّ، وربّت على وجنته، وتحسّس الحقيبة التي كانت متدلّيةً من يده حتّى تلك اللّحظة.

- هل أحضرت سجائر؟

من دون أن يسمعه، التفت أغوستين إلى آماليا مُستفسراً بعينيه عن خروج وتصرُّف أبيه. قالت الأمّ:

- سيتجاوز هذا سريعاً.

وضع العمّ إيميليو شاربه الكثّ الرماديّ في أذن الفتى تقريباً، وهمس:

- منذ توقّف عن العمل، أصبح غريب الأطوار.

- وماذا يفعل؟

- يساعد في السينما أحياناً، ويجوب من هنا إلى هناك أحياناً.

خلعت الأمُّ المريلَة، ووضعتها فوق أحد المقاعد، وغادرت البيت. ظلّ أغوستين والعمّ واقفين في القاعة، وتبادلا ابتسامةً طويلةً. تنهَّد الشابّ عميقاً، ومرَّ بعينيه على عناصر الزينة بحنان من ينظر إلى أصدقاء قدامى: تقويم بشعار مخازن خوسيه خيرون يحمل منظراً طبيعيّاً لبركان، في شهر كانون الأول/ ديسمبر من عام 1960 المُخلَّد على الجدار، والصورة المُصفرّة التي تحمل توقيع روبين داريو، والبطاقة البريديّة الصغيرة التي تحمل صورة قبر الشاعر في كاتدرائيّة ليون، والمروحة الكهربائيّة الضخمة

التي تنتظر الإصلاح منذ عامين، وتطريز حوافّ هذا المفرش من ماسايا، الذي اشتراه بأوّل معاشٍ يتقاضاه من مدرسة المُشاة. ترك العمُّ الشابَّ يستمتع بهذا اللقاء (هذه الهدنة) من دون أن يحدّثه. وسط السكون، سُمِعت سارينة الشرطة بينما تقترب. قال العمُّ:

- أصبحوا يبدأون مُبكّراً يوماً بعد الآخر.

جذبته صورة المناولة الأولى. هو وفيكي كانا يطفوان بروحانيّةٍ أمام المُصوِّر الفنّان إيبونور: العينان الزاهدتان، وشعرُه مُتصلِّبٌ بفعل مُثبِّت شَعر، وشَعرها مُغطّى بشالٍ، وترترٍ، وخرزٍ دقيق، والنطاق الذي يحمل اسم القدّيس الموافق لليوم مطبوعٌ بحروفٍ ذهبيّة. وقّعا أسفل الصورة: «تين وفيكي، إلى العزيزين: بابا، وماما». على الرغم من أنّها كانت تتظاهر بالجديّة، تمكّن أغوستين أن يقرأ الابتسامة الخفيّة التي تُوتِّر جلد وجهها، جذوة هذا المصباح الذي كان يُنير أيّ شيءٍ تنظر إليه، والشّرك العذْب؛ حيث كان الغاوون المحترفون، أو الهواة، يُدخلون حوافرهم واثقين من تقنياتهم في المقاربات الأولى، وفي النهاية كانوا يحومون شاحبين -بسبب الحُبّ- بالقرب من ناصية البيت، أو يترصّدون على باب المدرسة الثانويّة، وأملهم الوحيد أن يفوزوا بابتسامة. ألبومها السريّ كان يحتوي على قلوبٍ مُتَّقدةٍ، ونُسخٍ مُتفحِّمةٍ من «عشرون قصيدة حُبّ» لِـ«نيرودا». بعد ذلك أصبحت فيكي هي كلاوديا القصائد القصيرة لِـ«كاردينال»، لكنّها أيضاً محظيّات بيكر، وفي صفحةٍ في المنتصف كان مبدعٌ يقول: «أنتِ الشِّعر». كانت فيكتوريا هي القمر الإقليميّ الذي يجذب روّاد الفضاء المستقبليّين، وتجّار الأحذية، ولاعبي البيسبول الحزانى، ورجالاً وسيمين بنُدبٍ، أو من دونها، وموظّفين بشواربهم الأنيقة المخضّبة بالشمع. بعد سنواتٍ، بعدما

لم يعد التمرّد مجرّد غوايةٍ، وكلمة «الشروق» أصبحت تثير دُوارهم أكثر من عِرْقَيْ قصب السكّر في الصباح، بات يسعى خلفها طُلّابٌ جامعيّون، شاحبون، ومتآمرون، وغير مجتهدين في دراسة التاريخ، أو تائهون في حبكة «اللطيف الكبير»، وقرّاء نهمون لِـ«ساندينو، ومارتي، ومارياتيجي»، وفاشلون في الجبر والكيمياء، لكنّهم مدمنون على خلطة المولوتوف، والتفاصيل البنائيّة لدبّابات شيرمان العصيّة على التدمير، وتأثير الأحماض والقلويّات على مدافع «بونتو 30»، وإن اضطّرتهم الحاجة، لم يكونوا يتقزّزون من المتفجّرات المتواضعة المصنوعة من الألياف.

كان أغوستين يخرج من الصف وينتظرها منتصباً بهيئة المنتصر، بينما يمسك بقُمعٍ من المثلّجات، وهي تخرج بينما تتلاعب بضفائرها كعادتها دائماً. بعد دقيقةٍ تفتح الزرّ العُلويّ في بلوزتها المدرسيّة، فيظهر منبت نهديها. كانت تقول دائماً: «يا للجوّ الحار!». ثمّ يأخذان طريق العودة إلى البيت، ويشعر أغوستين أنَّ حفلاً موسيقيّاً من آلات النفخ، والكمان، والأطباق النحاسيّة، والتشيلّو الحزين، يسير خلف ظهره بأصواتٍ تزداد ارتفاعاً، وتصاحبها الغمغمات والتنهُّدات. هو ذاته حصل على منزلةٍ بارزةٍ لمجرّد كونه الأخ الشرعيّ لأخته. منذ بلغت الثالثة عشرة، وبلغ هو الثانية عشرة، لم يعد معروفاً بلقب «تين» بين فتيان الحيّ، وأصبح مشهوراً على مستوى العالم بأنّه «أخو فيكي». إضافةً إلى المتطلّعين المحلّيين، وكانوا كلّهم من السكّان الأصليّين من عرق سوبتيابا (كان يَحِجُّ إليها أوشاق من إقليم «استريا»، من الأرجاء القريبة من كليّة الطبّ)، بل كان هناك متطلّعون من العاصمة ماناجوا التي تغرق في البحيرات، وترزح تحت الزلازل. يفوحون برائحة كريم الحلاقة، ونعال أحذيتهم تخلو من الثقوب. قبل

مباريات البيسبول، كان قائدا الفريقين يسيران متواجهين خطوةً بخطوةٍ حتّى يضع أحدهما قدمه فوق قدم الآخر، وللفائز الحقّ في اختيار أعضاء فريقه. ودائماً ما كان الفائز يقول: «أخو فيكي»، كأنّ أغوستين لا يدرك أنّ خلف هذا الاختيار الطائش توجد نيّةٌ إيروتيكيّةٌ واعيةٌ في تجاوز المناطق المحظورة حول القصر، وعبور الجسور المتحرّكة، حتّى الوصول ذات ليلةٍ إلى غرفة الأميرة.

لكنّ فيكتوريا كانت تملُّ كثيراً من العشّاق الجريئين المتردّدين، وممّن يمدّون أيديهم سريعاً. كانت تُبعد كليهما بالعذر المعتاد: «يجب أن أذاكر مع أخي». أمّا الذين يتحدّثون عن البيسبول، أو عن المستقبل الباهر الذي ينتظرهم عندما يرثون محالّ آبائهم، فكانت تتثاءب في وجوههم كاشفةً عن عظمة أسنانها الماكرة. والشعراء محتقنو الوجوه الذين يعدونها بقصورٍ من السُّحب، وخواتم من العشب، فكانت تطلب إليهم أن يتفضّلوا بالكلام على نحوٍ أكثر دقّةً وواقعيّةً. ومن كانوا يأتون لها بهدايا في كلّ زيارةٍ، اعتادت أن ترجوهم ليكونوا أكثر تجريداً. ومن يشاركون في ماراثون الجنس، الرابحون الدائمون بجوائز «الذكورة»، و«العذراوات الضائعات»، فكانت تحكي لهم أنّ أباها يمتلك بندقيّة «فال» كبيرة الحجم، وأنّ هذا السلاح لم يكن للاستعمال في حرب العصابات. وفي نقاشٍ سياسيٍّ حامٍ ينتهي بالطلّاب، وهُم يرفعون متاريس أمام الجنود، صعدت فوق الدكّة لتعترض على عدم تكليف النساء بمهامّ في التحرُّك القادم. قالت: «إنّهم جمعياً ثوريّون للغاية، لكنّهم في الحقيقة كانوا بضعة ذكوريّين وحقراء». صرخ من يترأس الاجتماع: «حسناً يا رفيقة، نحن نتناقش الآن حول الثورة، وليس عن ترّهات نسويّة!». الشيء الوحيد الذي وُجد في متناول يد فيكي لحظتها كان قلم رصاص فابير 2، فأطلقته وسط جبهته بدقّة سهم. صرخت

لإثارة بنات جنسها: «متى سنتحدّث إذنْ عن أمورنا؟». قال رئيس الجلسة: «عندما تنتصر الثورة». ضحكت فيكي كسوبرانو أوبرا، ونظرت إلى كلّ رجُلٍ من الرجال الموجودين في الاجتماع، ثمّ قالت: «قال الكوبيّون الكلمات ذاتها؛ عشرون عاماً من الثورة، وما زالت الذكوريّة مخيّمة ومتأصّلة. ألم تروا فيلم لوثيا؟».

وهكذا أخذت تتجاوز العقبات، وعندما أنهت المدرسة الثانويّة أمكنها أن تعرض شهادة تَخَرُّجٍ برَّاقةً أمام عائلتها، وأكثر المُتطلّعين إصراراً. بدأ الحفل الذي عُقِدَ للاحتفال بالمناسبة كحفلٍ عائليٍّ، وانتهى بحشودٍ من المدعوّين السُّكارى، وأعلنت خلاله عن خطّتها الخمسيّة بدقّةٍ وتفاصيل، كوزيرٍ في بلدٍ اشتراكيّ:

أوّلاً: ستكون الشخص الوحيد في العائلة الذي يلتحق بالجامعة. وستشكر أباها أنطونيو، وأخاها تين، وأمّها المحبوبة آماليا، الذين جعلت الشعر الأبيض يغزو رؤوسهم؛ ستشكرهم على جهودهم وتضحياتهم لكي تواصل دراستها.

ثانياً: فيما يتعلّق بمن باحوا بأشواقهم، وزملاء المدرسة، ومن تقدّموا لخطبتها رسميّاً، ومن أصابتهم نوبةٌ مفاجئةٌ من الوله بها، ومن نصَّبوا أنفسهم كخُطَّاب، فستُنزع عنهم هذه الصفات بدءاً من تلك اللّحظة، لينتقلوا إلى فئة «أصدقاء فقط» التي لا لبس فيها؛ هذا التبديل في التراتبيّة لا يجب أن يُعدّ نهائيّاً وقطعيّاً، إنّما هو انتقاليٌّ؛ إذْ لا توجد مدّةٌ محدّدةٌ لسريان هذه الحالة، ويرتبط انتهاؤها بتحقيق أهداف إتمام دراستها.

ثالثاً: بعد مراوحاتٍ، وتأمّلٍ، وقراءة برامج ومستندات، وتحليل ميولها، مع الأخذ بعين الاعتبار تكلفة الموادّ الدراسيّة، والكتب، والأدوات، في

ظلّ العرض والطلب في السوق المحلّيّ، وسوق وسط أمريكا، اختارت دراسة -صمتٌ مشحونٌ بالتوتّر- مجال طبّ الأسنان. المميّزات: أنها ليست دراسة طويلة، أو صعبة للغاية مثل الطبّ، لكنّها أيضاً ليست هلاميّةً وغير واقعيّةٍ مثل القانون (خاصّةً، يا بابي، في هذا البلد؛ حيث احترام القوانين أقلّ من احترام إشارات المرور).

رجع الأب إلى الصالون، وظلّ يحكّ وجنته الخشنة غير الحليقة. كان قد خلع القميص الرطب، وعلّقه على طرف أحد أصابعه، وقال بحدّة:

- ماذا دهاكما؟

- «ماذا تعني بماذا دهانا؟». ردَّ عليه العم إيميليو بالحدّة ذاتها.

- إنّكما صامتان، من دون كلام، ومن دون أن تقولا أيّ شيء.

دسَّ إيميليو يده داخل الحقيبة، وظلّ يعبث بين الملابس حتّى عثر على صندوق سجائر. تعمّد التمهُّل في فكّ السولوفان في انتظار تراجُعِ حصار أنطونيو.

عادت الأمُّ من الشارع بدجاجةٍ ملفوفةٍ في كيسٍ بلاستيكيٍّ، بينما كان أنطونيو يعود إلى النافذة، ويخبط القميص على فخذه. وضع أغوستين الهدايا على المائدة.

- لقد أتيت لكم ببضعة أشياء بسيطة.

عندما رفع القمصان الثلاثة المطويّة بعنايةٍ شديدةٍ، غمزت آماليا له بعينٍ؛ لكي يعطيها لأبيه بنفسه. رأى الرجُل الملابس التي يقدّمها إليه ابنه، فتردّد لحظةً، وأدرك مقدار توتّر زوجته من دون حاجةٍ إلى النظر إليها، وجذب القمصان بحدّةٍ، ثمّ مدّدها فوق المائدة وركّز انتباهاً حانقاً على بقع الزيت على الأرض.

- «شكراً». قال بعدما أعطاه ظهره.

- لماذا تُعاملني هكذا يا أبي؟

بدأ الرجُل يتخلّى عن انحناء جسده تحت حلق الباب، وفقط عندما أصبح منتصباً تماماً التفت ببطء.

- هل كنت تكلّمني؟

- لماذا تُعاملني هكذا يا أبي؟

حاد أنطونيو بنظرته إلى الشارع.

- «اِخلع هذه الملابس». قال، من دون أن يتوجّه بكلماته إلى أيّ شخص.

- أبي.

جثم فوق ابنه بقفزةٍ واحدةٍ، وجذب سترته العسكريّة الخضراء الفاتحة بأصابعه المتوتّرة.

- «هذه الحقارة!». صرخ: «عندما تكون في بيتي يجب أن تخلع هذه الحقارة!».

اتّجه إلى المطبخ، وصرَّت الألواح الخشبيّة على الأرض تحت ثقل جسده. مسحت المرأة جفنيها السفليّين بطرف ظفرٍ، واستعمل العمّ إيميليو قبّعةً من القشّ الأبيض لمروحةٍ للتهوية. كانت هناك سيجارة غير مشتعلةٍ بعد في فمه، فقام بتمريرها من جانبٍ إلى آخر بين شفتيه. بعد ذلك وضع القبّعة على رأسه بشرود، كأنّه يضعها على رأس شخصٍ، ثمّ تحسّس جيوبه:

- هل تحمل ولّاعة؟

- «ابق للغداء». قالت آماليا.

- يجب أن أفتح أبواب السينما؛ توجد حفلةٌ صباحيّةٌ، ماتينيه.

وضع علب تبغ «كاميل» في جيوب سترته المختلفة، ونفض غباراً كثيراً لا وجود له على ياقة السترة.

- اليوم سنعرض «بيرانياس».

عندما فتح، دوّى انفجارٌ قريبٌ وجمَّده في حلق الباب. جاء الأب حتّى وسط الصالون، وظلّوا جميعاً يستمعون إلى الهدوء الغريب الذي تبع الضجيج. لم تكن هناك سوى موجةٍ زلزاليّةٍ تنساب عبر هيكل البيت الهشّ حتّى سقط تمثال سان خوسيه الصغير على الأرض، متحوّلاً إلى شظايا. بعد دقيقةٍ دوّت صافرة الإنذار، وشُغّلت محرّكات الكثير من عربات الجيب في الوقت ذاته، وانهمر الرصاص فوقهم تقريباً، كسيلٍ مفاجئٍ وغزيرٍ في ساعة القيلولة.

- «ماذا سنفعل؟». سألت الأمّ.

لم يردّ الرجال. كان هناك عواءٌ بالقرب من البيت، وعلى خلفيّةٍ من الانفجارات صرخ شخصٌ ما: «الوطن، أو الموت!».

حينئذٍ ظهر إغناثيو ليقف في حلق الباب بأنفاسه الحبيسة. استغرق لحظةً لكي يستطيع التنفّس، كأنّ الدم لا يصل إلى قلبه، وبَسَط يديه المسودّتين بالبارود أمام عيني أنطونيو. قبل أقلّ من ساعةٍ رآه أغوستين يحمل باليدين ذاتهما عجلة الدرّاجة التي لا ضرر منها. أحاط الأب كوعه بذارعه، وقاده دفعاً إلى الفناء. اتَّبعهما أغوستين كأنّما كان مجذوباً بمغناطيس. وصلوا حتّى السور الملاصق لبيت الجيران، وبقفزةٍ واحدةٍ قفز إغناثيو فوق العارضة الموجودة في منتصف السور. عقد أنطونيو يديه

على مستوى بطنه ليصنع له متّكأً. استند إليه الشابّ، وأمكنه الوصول إلى أعلى السور، والتمدّد فوقه. رمشت عيناه لبرهةٍ بِحَيرةٍ قبل أن يترك نفسه ليسقط في الفناء الخلفيّ المجاور.

بعدما أزال الغبار الموجود على فخذه، أسند الأبُ قلبَه بإحدى يديه، من دون أن يتمكّن من التحكّم بالفوضى التي تعتمل داخله. عندما عادا إلى غرفة المعيشة، واجها الأسئلة التي لم ينطق بها إيميليو، والأمّ. لخَّص أنطونيو ما حدث بحركةٍ من رأسه نحو البيت المجاور. سمعوا وقع ركض أحذيةٍ عسكريّةٍ على الرصيف. جلس أنطونيو على رأس المائدة، وأشار لكلٍّ منهم بحركاتٍ حاسمةٍ لكي يحتلَّ مكاناً فوق المقاعد، فأطاع الثلاثة وقلَّدوا الأب عندما قرَّب منه كوباً وزجاجة بيرة. لم ينظروا باتّجاه المدخل، لكنَّ السمع حلّ محلَّ النظر. انزلق كوب العمّ فوق المفرش، وعندما حاول الإمساك به تجاوز الحافّة وسقط على الأرض من دون أن ينكسر. غَمغم الأب:

- اهدأ يا لعين!

وضع العمّ قبّعته فوق ركبتيه المضمومتين كأنّه موظّفٌ وقورٌ. لم ينهض أحدٌ سوى الأمّ لتخفض الخصاص الخشبيّ، وتميل زاوية فجواتها. وعادت إلى مكانها في العتمة. تحسَّس أغوستين قاعدة المصباح، لكنّه أدرك أنّه لا يجب أن يوقده.

بعد خمس دقائق، وضع أنطونيو الزجاجة على وجهه، وجعلها تدور على جبهته.

- هذه البيرة أصبحت ساخنة.

- هل تريد أُخرى؟

- «اللعنة على كلّ شيء!». صاح الأب، بينما يصبّ السائل في الكوب ببطءٍ؛ ليتفادى تكوّن الرغوة: «وأنتم، اشربوا هذه البيرة اللعينة قبل أن تحرق أجوافكم».

وضعت الأمّ طبقاً به قطعٌ من الدجاج كحاجزٍ بين أغوستين وزوجها. تجاهله الأب، لكنَّ الفتى مدَّ إصبعين ككلّابةٍ، وحمل قطعةً بحرصٍ نحو فمه. قالت الأمّ لأنطونيو:

- كُلْ!

تأمّل أنطونيو الفرائس لبرهةٍ، ثمّ أبعدها من دون حدّةٍ إلى منتصف المفرش.

- لا يمكنني.

اضطرّ أغوستين إلى حكّ جلده حتّى آلمه قبل أن يقف على قدميه، كأنّ الدم يجعله ينهض بانفجاراته. عضَّ على عُقد قبضتيه المتكوّرتين؛ لأنّ بصيصاً أخيراً من البصيرة أمره بعدم الصراخ. خلع السترة العسكريّة، ووضعها أمام الطبق الفارغ للأب. خلع القميص الداخليّ، وألقاه فوق السترة العسكريّة، وقرص جلد صدره.

- هل هذا هو ما تريد يا أبي؟ ماذا تريد أن أخلع أكثر من هذا؟ هل تريد أن أنزع جلدي؟ أن أقتل نفسي؟ أن أختفي؟

دفع الأبُ الملابسَ قليلاً، وأخذ ينهض بنظرته الثابتة على جلد ابنه.

- هل أنت جادٌّ في سؤالك؟

- «أنطونيو!». توسَّلت الأمُ.

- «انتظري!». كبحها الرجُل: «الفتى يريد أن يعرف ما أريد، وسأخبره بما أريد بكلّ دقّة».

- «قُل إذنْ!». صاح به الفتى ملوّحاً بقبضته.

- أن تهرب من الخدمة العسكرية؛ هذا هو ما أريد، أن تهرب من الخدمة العسكريّة يا لعين! أن تهرب من الخدمة العسكريّة.

- «أعتقد أنّني يجب أن أذهب». قال العم إيميلو، لكنّه ظلَّ في مكانه على المقعد.

أدرك أغوستين أنّ أباه يتحكّم في نفسه كيلا يمسك به، وأنّ كلّ كلمةٍ عضَّ عليها كانت لكمةً، أو رميةً بحجر. ولا إراديّاً وضع يديه أمام وجهه كمن يحمي نفسه.

- «أنت سريعٌ في الكلام، لكنّك بطيءٌ في التفكير». قال: «هل تعرف ماذا يحدث للفارّين من الخدمة العسكريّة؟».

- نعم، عندما يمسكون بهم يقتلونهم.

- وأيضاً الأب، والأمّ، والأخ، والكلب، وعصفور الكناريا، إنْ وجدوهم.

- لا توجد مشكلة لدينا.

- أنت لا ترى مشكلة في هذا، لكنْ ماذا أفعل خارج الخدمة؟ أتسوّل في الشوارع حتّى يعثروا عليّ، ويرموني بالرصاص. أظلّ طريداً بلا حولٍ ولا قوّة أم ستُعيلني، وأنت عاطلٌ من العمل؟

منح لنفسه وقتاً ليزدرد لعابه، وفي اللحظة ذاتها رأى أباه، بينما ينهار فوق المقعد. أحنى عنقه، وعلى نحوٍ غير عقلانيٍّ أخذ يُطلق أنفاسه على فخذيه. ثور يحفر في الرمال قبل أن يهجم على التموّجات الحمراء التي تثيره. أدرك أنّ أباه يتلوّى داخل جسده، ويرتطم بدورته الدمويّة، ويعضّ على لسانه، لعدم وجود كلماتٍ في العالم قادرةٍ على الردّ على دفوعه.

أغرقه انتصاره في التراشق اللفظيّ في حزنٍ لا نهائيّ. هو أيضاً انهار، وتفكّكت أوصاله كأنّها مزقٌ من قطعة نسيجٍ. بدا أنّه سيمسك البيرة، لكنّه تراجع عن حركته. وضع قبضتيه في أعماق جيوبه.

نظر الأب بسرعةٍ إلى زوجته وأخيه، عواءين وبضعة تأوّهاتٍ حزينةٍ، وعندما لم يتلقّ حتّى الإيحاء بالراحة، أو العزاء، استنشق الهواء اللاذع في الغرفة، ثمّ قال:

- لنأكل.

- 7 -

خرج ساليناس من المكتب المحلّيّ لشركة الاتّصالات النيكاراغويّة، كان يحمل حقيبته الجلديّة مُعلَّقةً على كتفه اليُمنى، وقبّعته متوازنةٌ فوق رأسه العنيد، والقميص ناصع البياض بعدما أزال عنه البُقع بكحولٍ قويّة. عندما رآه أهل المنطقة علَّقوا رحلاتهم إلى المتجر، وخفّفوا من إيقاع خطواتهم عندما مرّ هادئاً واثقاً بهيئةٍ جديرةٍ بوظيفته. المحامي ريباس، الذي كان يقرأ «نوبيداديس» مستنداً إلى حائط مكتبه، رقب حركته بطرف عينه، وتابعه بضعة أمتارٍ غير مُصدِّقٍ.

- «ساليناس». صاح به عندما أدرك أنّه لن يلحق به إلّا بالمخاطرة بالركض تحت الشمس الحارقة.

استدار ساعي البريد، وخبط قدمه على الرصيف القذر مُعطياً الانطباع بأنّه في عَجَلةٍ من أمره.

- «هل تعمل؟». صاح ريباس، بينما ما زال على بُعد بضعة أمتار.

- «كالعادة». ردَّ عليه.

- «وماذا تحمل؟ خطابات أم تعليمات سريّة؟». غَمغمَ، بينما يغمز له بعينٍ.

- لا علاقة لي بالسياسة.

ربّت المحامي ريباس بمرحٍ على الحقيبة.

- الحقيبة ممتلئة، أليس كذلك؟

- أنواع الهدايا والأغراض كلّها.

- ألا تحمل أيّ شيء لي؟

بالبصيرة التي يتمتّع بها المُحتضرون، استدعى ساليناس المرّات كلّها التي تردّد فيها بين ضمّ رسالة المحامي ريباس إلى مجموعة حظيرة الدجاج، وبين العبور تحت الشمس العموديّة في منتصف النهار حتّى مكتبه، والمعاناة من مزاحه، إضافةً إلى المسيرة الخانقة. وكما تعلّم في المدرسة، اختار الطريق الأقصر والأسرع.

- أوّل ما أفعل كلّ يومٍ هو النظر إن كان هناك أيّ شيء لك يا سيّدي؛ إن كانت هناك أيّة رسالة لك، ستكون في حوزتك على الفور.

قطّب المحامي حاجبيه. تصارع كلٌّ من السخرية والإذعان في نظرته ليحدّد أفضل طريقةٍ للتقصّي. التوليف بينهما كان ناجعاً؛ لأنّ ساليناس أخفض نظرته، وبدأ يثير الغبار بطرف حذائه، كأنّه يسعى إلى حفر بئرٍ تبتلعه.

- يجب إذنْ أن نُبلغ المُقدّم فلوريس بأحوال البريد والاتّصالات.

- أبلغ فلوريس والرئيس سوموثا إن أردت يا سيّدي المحامي. المشكلة ليست في البريد، إنّما في الثورة.

- أيّة ثورةٍ يا رجُل! هل تعتقد أنّ الثورة تُصنع برصاصةٍ هنا، وأُخرى هناك؟ يجب الحصول على دعم الشعب من أجل النصر.

- «أنا لا أفهم في السياسة». قال ساليناس بصبر نافد.

- سوموثا سيحكم نيكاراغوا حتّى نهاية القرن العشرين.

فجأةً! رفع المحامي يده اليمنى بجرأةٍ، وأمسك ذقن ساعي البريد، ثمّ رفعها وأخذ يتحسّس ملمس جلد في انحناءة الفكّ. أمسك ساليناس معصمه، وأبعدَ اليدَ المُتطفّلة بحزم.

- «يا رجُل». قال المحامي ريباس: «لا أصدّق أنّك حلقت ذقنك أخيراً. جلدك يشبه ثدي راهبة».

- «يا سيّدي المحامي». قال له ساليناس: «لا تقل لي الآن: إنّك أصبحت مثليّاً في هذا العمر!».

الجيران الذين كانوا يتسمَّعون على الرصيف المقابل اقتربوا شيئاً فشيئاً.

- «هكذا إذنْ، لا تحمل أيّ شيء لي؟». اختتم ريباس، بينما يمسح جبهته بالمنديل.

- لا، يا سيّدي المحامي.

- أخبرني إذنْ إن وصل إليك شيءٌ ما.

عندما استدار المحامي، أطلقت النساء نظراتهنّ ككلابٍ تختبئ خلف سيقان أصحابها. كانت النظرات ثابتةً عليه، بينما يتعثّر على أولى درجات سلّمٍ مؤدٍّ إلى بيت، ويستند إلى حلق الباب كيلا يدقّ أنفه على الرصيف. واصل ساليناس سيره متظاهراً بأنّه يخطو خطى سريعةً وواثقةً، وكان يستعدُّ لعبور منطقة الحافلات الإقليميّة، والمرور بجوار المحطّة، ثمّ السير فوق الأرصفة حتّى الوصول إلى طريق «ديبايلي»، لكنْ عندما أصبح بجوار مبنى البلديّة، أمكنه أن يرى أنّ النساء العجائز اللائي شهدن حواره مع ريباس لم يتوقّفن عن ملاحقته من دون استثناء. خفّف من

سرعته بحذر من يحْدس ما سوف يرى. توقَّف بعد بضعة أمتارٍ، ثمّ أدار عنقه بسرعةٍ. حَسِب أنّ مجموعةً من عشرين شخصاً تتبعه، كانوا أطفالاً، وعاطلين، ومتسوّلين، وعجائز، وباعة صُحف. توقّفوا عن السير من دون أدنى مداراةٍ، كأنّ نظرته الصاعقة قد أمرتهم بهذا. نقل الحقيبة من كتفٍ إلى أُخرى، وبعدما أربكته هذه الرحلة، تآمرت الحقيبة مع العرق لفتح جرحٍ سيظهر بعد ذلك في كتفه. تفلسف قائلاً لنفسه: «هذا على الرغم من أنّني أحمل رسالةً واحدة». ومرَّر لسانه على شفتيه شديدتيّ الجفاف. شعر بالأسف؛ لأنّه لم يأخذ من الحظيرة مظروفاً قديماً لمحلّ تصفيف شعر «دون تشيبي»؛ حيث احتمالات الحصول على زجاجة بيرة مثلّجة كانت أكيدة مئة بالمئة.

دار ساليناس في الناصية الأخيرة التي وضعته في شارع فكتوريا مباشرةً، ومن دون حاجةٍ إلى الالتفات، أمكنه أن يلحظ أنّه قد راكم خلف ظهره عدداً كبيراً من الأشخاص، وكانوا كافين للقيام بعرضٍ عسكريٍّ، أو مسيرةٍ دينيّةٍ. كانوا يتهامسون فيما بينهم، وبدوا مستعدّين لاتّباع خطوات ساليناس إلى حيث تحملهم، حتّى إن كانوا سيذهبون إلى ماناجوا سيراً على الأقدام. شعر ساليناس أنّ كلّ واحدةٍ من مسامه مسدودة بالعرق، سائل لزج يرفع من الغضب، ويزداد مع اقترابه من وجهته. في النهاية فاض به الغضب، واستدار، ثمّ أشار للناس بيديه ليفرّقهم كأنّهم دجاجات.

- «حسناً، هذا يكفي!». صرخ: «لنرَ إن كنتم ستتفرّقون الآن».

توقَّف تابعوه. عاد ساليناس كأنّه يكنسهم:

- اذهبوا، وإلّا سوف أبلغ الشرطة.

سألت عجوز، بينما تبحث عن دعم بقيّة مجموعة الطفيليّين:

- لماذا يا سيّدي؟ ماذا فعلنا لك؟

- «اعتراض طريق موظّفٍ عموميّ». قال مسرعاً.

- كيف نعترض طريقك إذا كنّا نسير في الخلف، وأنت في الأمام؟

- «للرسائل خصوصيّة». قال بصوتٍ فخْم: «لن يودّ أحدكم أن تعبث الأيدي بخطاباته».

- قبل أيّ شيء، فنحن لا نعرف أنّك تحمل رسالة.

- تبقّى لكم القليل لكي تدخلوا الحقيبة.

- «ألا ترى أنّنا نقوم في طريقنا للتبضّع؟». ردَّت العجوز، بينما تُريه الحقيبة الشبكيّة. قلدتها النساء الأُخريات، بنظراتهنّ الثابتة على ساعي البريد، بينما يتوخّين احتكاك الحقائب بجلده.

- «دجاجات». قال بصوتٍ خفيضٍ بما يكفي كيلا يسمعْنه. استدار واستأنف السير بخطى غير متناسبةٍ مع المناطق الاستوائيّة. تقدَّم مربّعين سكنيّين في دقيقةٍ واحدةٍ، وابتعد عن سرب العجائز والعاطلين من العمل الذين ظلّوا يسترقون النظر من مكانهم على الناصية، وسار الأطفال فقط إلى جواره، وهُم يتقافزون، ويأتون بحركاتٍ أكروباتيّةٍ في الهواء. عندما أصبح أمام باب بيت فيكتوريا، خشي أن يقفز قلبه إلى فمه في نبضته التالية. وضع يداً على صدره، وحاول تهدئة الكلب الهائج الذي يعتمل داخله. انتابه شعورٌ مفزعٌ كما لو أنّه استحال صنبور ماءٍ يتساقط منه ذلك السائل المالح فوق أحجار الرصيف. فرك الكُمَّ على جبهته، وكان جهده كبيراً إلى درجة أنّه شعر بالتهاب أذنيه، ثمّ دقَّ على باب الفتاة.

أضاء جسد فيكي حلقَ الباب كردٍّ سريع على قبضته التي دقَّت على الباب. وقف ساليناس أمامها، وظلّ مرتعشاً أمام تلك الابتسامة التي بدا

أنّها تكبر كشلّالٍ، وأمام ذلك اللسان الشهيّ الذي دفع شفتيها الخاليتين من «الروج» بنقطة لعابٍ مثيرةٍ للجنون.

- «رسالة؟». سألت بصوتٍ أجشّ، مقدود ومُستوحى من جسدها كلّه.

- «رسالة». قال ساليناس بصوتٍ لم يسمعه هو ذاته.

- «لي؟». سألت الفتاة.

- لكِ.

- «ممّن؟». سألت الفتاة.

وسط السحر، اجتهد ساليناس للإتيان بالمقطع الأوّل من اسم الفتى حتّى شفتيه، لكنّه كبح نفسه محنياً رأسه بحدّةٍ نحو الأرض.

- «هذا...». قال.

انتظرت الفتاة أن يُسلِّمها المظروف، لكنّ ساليناس بدا متجمّداً في وقفته كأنّهما في رقصة حفل التخرّج في المدرسة الثانويّة، ولم يكن سيطلقها حتّى تنتهي المقطوعة الموسيقيّة.

- «هل يمكن أن تعطيني إيّاها؟». قالت.

- نعم، بالطبع.

أدخل يده في الجيب الكبير للحقيبة، ولم يجد صعوبةً في إخراج الرسالة الوحيدة التي وُزّعت خلال الشهرين الفائتين، فأودعها في راحة الفتاة.

تيقَّن ساعي البريد من أنّه سيتذكَّر الخدر الأحمر في وجهه في تلك اللحظة إن كلَّفه شخصٌ ما ذات يومٍ بتعريف الحرّ القائظ.

- «إنّ وجهك مُتّقد!». صاحت فيكي.

أراد ساليناس أن يقول: «إنّه الحرّ». لكنّه لم يستطع النُّطق بالكلمات.

- «أُدخل لتتناول زجاجة بيرة». قالت الفتاة ممسكةً بيده لتجذبه بقوّةٍ ودودةٍ إلى الداخل. ما إن أصبح هناك حتّى سعت عيناه إلى اعتياد العتمة.

- «أهلاً يا ساليناس». قال صوت أنطونيو.

- «مساء الخير يا سيّد أنطونيو». ردَّ من دون أن يراه، لكنّه حدس أنّه على اليسار.

- تعال لتشرب زجاجة بيرة.

كانت ملامسةُ الكوب البارد صارياً يُمسك به للتغلّب على ارتعاشاته. تناول رشفةً كبيرةً، وبعد ذلك مدَّ لسانه لجمع اللعاب المُتراكم على شفتيه. أدار السائل في الكوب كأنّه يخلط الويسكي بالثلج. كان السيّد أنطونيو يبدو أكثر وضوحاً مع مرور الوقت، ومع الانتعاش بفعل المشروب أصبح لضجيج الشارع وقعٌ طيّبٌ. كان يميّز زقزقة الطيور من بين صرخات الأطفال. اقتربت فيكتوريا من النافذة بالمظروف، وتفحّصته في ظلّ الضوء الشاحب، وانتقلت من لقب عائلتها إلى اسم المُرسِل، وأمالته لتحاول قراءة الختم فوق الطابع. أنهى ساليناس البيرة بدفع الكوب حتّى وضع رأسه على خطّ حلقه، ودقَّ به المائدة عندما وضعه.

- «شكراً يا سيّد أنطونيو». قال.

-ألا تبقى لنتحدّث؟

- يجب أن أواصل التوزيع.

اتّجه ساليناس إلى الفتاة، وقبل أن يحدّثها توقّف لثانيةٍ مُستمتعاً بطراوة جسدها. شعر بدوارٍ لمجرّد رؤية شعاع الشمس الممتلئ بالزغب، وهو يحطّ برقّةٍ على حلمة الأذن اليُمنى للفتاة. بدت له غلالة شفّافة تدعوه لاختراقها بأسنانه لكي يعضّ بنعومةٍ على الأذن التي تثير إعجابه منذ

المدرسة الثانويّة، وأعياد المراهقين في الحيّ، وحفلات الماتينيه في سينما جونثالث، عندما اعتاد الجلوس على المقعد خلف مقعدها، الذي كانوا يتصارعون عليه، ويضعون حماساً أكبر في التركيز على انحناءة عنقها الانسيابيّة أكثر من نزهات كاثرين روس على الدرّاجة في فيلم «بوتش كاسيدي وساندانس كيد».

فجأةً! نهضت نظرة السيّد أنطونيو لتصبح كجدارٍ بينهما.

- «هل يمكن أن تصحبيني إلى الباب؟». قال.

استدارت فيكتوريا، ووضعت الرسالة في جيب التنّورة، وتركت يدها في الداخل، وذهبت مع ساعي البريد إلى الشارع، وأمالت كتفيها إلى الأمام في حركةٍ بدت لساليناس حركةً راقصةً مُتقنة. عندما أصبحا على الرصيف اقترب منهما الأطفال، وشدَّ أحدهم تنّورة الفتاة:

- «هل هي لك؟». سأل بنظرةٍ تشقّ طريقها بصعوبةٍ شديدةٍ في الوجه المغبرّ.

أمسكت الفتاة بذراع ساليناس وصحبته في طريق العودة إلى المكتب. انتبه ساليناس إلى دهشة العجائز والعاطلين الذين تبعوه حتّى تلك المنطقة. حاول تحديد شعوره بجوار ذلك الحضور الطاغي إلى جانبه. وفجأةً! من دون أن يكون شاعراً، أمسك بالصورة التي تحدّد أشواقه. عرف أنّ الصوت سيصدر عنه سريعاً مثل ببّغاء عندما يغنّي:

- «أشعر أنّني طائرةٌ ورقيّةٌ حمراء انقطع حبلها، وأخذت تُحلِّق في السماء». قال، بينما يزدرد لعابه.

- «أنت أيضاً أصبحت تتكلّم على نحوٍ غريب». ردَّت فيكي، بينما تحيط نظراتها بالمكان المُحيط بهما، وتقول للريح، والشمس، والأشجار،

والناس: أنا هنا معكم، أنا منكم، أنا أحبّكم كما أنتم، أحبّ طريقتكم في الإعجاب بي، أحبّ أن تُعجبوا بي، أحبّ، وأعشق، وأتوه بالسير في الشارع مُمسكةً بذراع سالیناس، أحبُّ فضول العجائز اللاتي يحدْن بنظراتهنّ لمداراة أنّهنّ يمزّقننا بأعينهنّ.

وأضافت:

- سوبليمي.

- «سأطلب إليكِ معروفاً». قاطعها ساعي البريد: «خاطبيني على نحوٍ رسميٍّ؛ بلقب عائلتي».

أراحت الفتاة شعرها فوق كتف ساعي البريد، وسارت هكذا مدّةً، بنظرتها المرحة مائلة على الرصيف. في تلك اللّحظة شعر سالیناس أنّه إذا ما طالبته محكمةٌ عليا بإصدار حُكمه عن مفهوم المجْد، فإنّه سيردّ بسرعةٍ قاطعةٍ: «هذا».

- «هل يمكن أن أخاطبك بـ «سالي»؟». غمغمت الفتاة.

- «فيكي!». ردَّ، بينما يدهن هذين المقطعين بالوله.

- إنْ تغيّرت الأمور في هذا البلد...

نظر سالیناس خلف ظهره، وإلى الرصيف المقابل. لحظت الفتاة حركاته، فتوقّفت، ثمّ واصلت الكلام:

- إنْ تغيّرت الأمور في هذا البلد... هل تعتقد أنّني يمكن أن أُقبل في الجامعة مجدّداً؟

ردَّ عليها ساعي البريد موافقاً بحماس. لأوّل مرّةٍ تصل الكلمات إلى شفتيه قبل الخجل. دفعةٌ أُخرى من الشجاعة حملته ليحيط خصر الفتاة بذراعه، وقال:

- إنْ سقط سيموثا، سيجري تعيينك رئيسةً للجامعة.

أطلقت فيكي قهقهةً اهتزّ معها نهداها، وتلقّى ساليناس هذه الرعشة في ذراعه التي تجاور ضلوعها. ضمَّها أكثر بخفّةٍ، وقال لها مُبتسماً:

- لكنْ مهما حدث، لا تتزوّجي!

- لم لا؟

- لكي تستمرّي كما أنت الآن.

- ماذا يعني هذا؟

- أي: خطيبتنا جميعاً.

- 8 -

لم يتناقص زبائن السيّد تشيبي، ولا حتّى خلال تمرّد شهر أيلول/ سبتمبر، عندما قام بمهارة جرّاحٍ بقصِّ شعر ما يقرب من خمسين رأساً بقصّة «ترافولتا»، وإن كان سبعون في المئة منها بالدَّيْن.

في شهر تشرين الأول/ أكتوبر حضر الحرس الوطنيّ إلى دكّانه، وواجهوه بإحصائيّات «على درجةٍ عاليةٍ من السريّة» (كما كرّروا له)، وكانت هذه الإحصائيّات هي موضوع النقاش في تلك اللّيلة، بينما يتمايلون بالكراسي الهزّازة على الأرصفة. كانت بعض الملابس العسكريّة الرسميّة الخاصّة بجنود جيش سوموثا قد اختفت من مغاسل المعسكرات، وطلب المُقدّم فلوريس إلى السيّد الحلّاق أن يتفضَّل بالإدلاء بمعلوماتٍ لهذه الرتبة القياديّة العليا حول أولئك الشباب الذين قاموا خلال المدّة الأخيرة؛ (أيّام، أو ساعات، أو أسابيع) باختيار قَصَّة الشعر العسكريّة المنعشة للتغلُّب على مشاقّ الصيف الأبديّ.

- «لا أحد منهم هنا». قال السيّد تشيبي مدهوشاً، بينما يستعرض أكثر التصاميم شعبيّةً في أثناء العصيان وتوابعه في مجلّة «كانثيونيرو ثنتروأمريكانو»: قَصَّة كومانشو على طريقة روبرت دي نيرو في «سائق

التاكسي» (أربع حالات)، وقَصَّة ترافولتا في فيلم «غريس» (ما بين أربعين وخمسين)، وقَصَّة موظف بنك (سبعة، أو ثمانية).

بعد أسبوعٍ ظهر المُقدّم فلوريس من «مدرسة المشاة» بنفسه في سيّارة شيفروليه سريعة يقودها ابن السيّد أنطونيو، وجلس على المقعد المصنوع من القشّ في نهاية الدكّان، بينما يُحدِث فنّان المقصّات تغييراً في هيئة رأس فتى في الخامسة عشرة، ليتركه لا إراديّاً مع قَصَّةٍ على طريقة قبائل «سيو كس» عوضاً عن قَصَّة «البحريّة الجديدة» حسب طلبه المقتضب. لم يقبل المُقدّم أن يحلق له في الحال، وفي بادرةٍ ديمقراطيّةٍ أشار لكي ينتهي الحلّاق من مريضه بحذرٍ، وأمسك النسخ المدهنة لمجلّتي: «كونتينينتال»، و«بانيداديس»، ولم يرفع عينه حتّى دُعي للجلوس على مقعد الحلاقة بحركة احترامٍ أوبّراليّةٍ من السيّد تشيبي، الذي كان يقوم في الوقت ذاته بوداع أكثر السكّان الأصليّين الهنود غرابةً في الإقليم، ويُعَقِّم ماكينة الحلاقة بلتر من الكحول. كشفت جولةٌ من نظرة فلوريس في المحلّ أنّ بقيّة الزبائن أفسحوا له الطريق مثل منفاخٍ مشقوقٍ وملمومٍ في طرفيه. صعد على المقعد الرسميّ للحلاقة، ووضع قُبّعته العسكريّة على ركبتيه، سامحاً لقَصَّة شعره الأمريكيّة القصيرة أن تظهر ببريقها وإتقانها. وفي تلك الثانية حَدس الحلّاق أنّ قيام طبيبٍ بإحاطة ذراعه بشريط جهاز قياس ضغط الدم سيؤدّي إلى انفجار الجهاز مثل أيّ بالونٍ عاديٍّ في عيد ميلاد. أبعد المُقدّم النسخ القذرة للمجلّات، وحرَّك المقعد الدوّار يمنةً ويسرةً. بعد ذلك ضغط على المحور ليجعله يرتفع بضع سنتيمترات بهذا المجهود البسيط.

– «خيوط العنكبوت». همس، بينما يريح ذقنه فوق نياشينه، ويخترق الحلّاق بنظرته.

غريزة البقاء التي سبقت التحضّر هي التي أنبأت الحلّاق بوجوب تقديم أكثر ابتساماته براءةً ومودّةً لزبونه الفريد.

- سيّدي المُقدّم؟

- «خيوط العنكبوت». كرّر المُقدم.

وسط ذهوله، فحص الحلّاق سطح مقعد العمل؛ كان مهترئاً، ولكنّه نظيفٌ، وعندما لم يرَ أيّ شيءٍ غريب، جاب أركان وزوايا المحلّ بابتسامةٍ تجمع بين البراءة والفزع، ليرى إن كان قد خالف قواعد الصحّة العامّة في أيّ شيء.

- «سيّدي المقدم؟». سأل بصوت خفيض.

كان صاحب الزيّ العسكريّ قد أخذ القبّعة من فوق حِجره، وجعلها تتراقص حول سبّابته خلال عشر ثوانٍ بالضبط (الوقت النظاميّ الذي يعدُّه الحَكم للملاكم حتّى يسقط بالضربة القاضية)، وقبل أن يخرج من المحلّ ليركب السيّارة، قال:

- خيوط العنكبوت؛ يُطلقون على دكّانك اسم «خيوط العنكبوت».

بزغ السيّد تشيبي من وسط الغمام الذي خلّفته السيّارة عندما انطلقت. عَبر الشارع بعينين ملتهبتين بسبب البنزين، واتّجه من دون أن يرى إلى بيت إغناثيو، كان الباب مفتوحاً كالعادة، فوجد الشابّ يثبّت بكوعيه ضفيرةً من الصوف، لتلفّها أمّه على هيئة كُرة. كان هناك جهاز كاسيت يعمل بالبطاريّات على ركبتيّ الفتى، يصدر عنه صوتٌ خفيضٌ لأغنية «فلور دي بينو(*)» لِـ«كارلوس ميخيا جودوي، وفريق بالاكاجوينيا». لم يبدُ أنّ أيّاً منهما قد انتبه إلى اقتحام الحلّاق لانغماسهما في رقصة الصوف، لكنّه

(*) زهرة الصنوبر. (م).

اضطرّ إلى تصويب اعتقادهما بأنّه يتطفّل عليهما عندما قال الشابّ من دون أن ينظر إليه:

- ما الذي جاء بك؟

- المُقدّم فلوريس كان في عندي في المحلّ.

التزم السيّد تشيبي بالصمت خلال برهةٍ متوتّرةٍ بقدْر ما كانت واعدةً، فسأل إغناثيو بينما يحكّ أنفه:

- هل جززت عنقه؟

- من الأفضل أن تسمعني.

- «لماذا لا تجلس إذن؟». قالت الأم.

لم يسمع الحلّاق الدعوة من الأصل. ذهب نحو الفتى، واستند إلى ركبتيه، ثمّ قال له مُغمغماً:

- ظلَّ لبعض الوقت، وقرأ بضع مجلّات، وذهب بعد ذلك، لكنْ هل تعرف ما قال قبل أن يذهب؟

- ماذا؟

- خيوط العنكبوت.

- خيوط العنكبوت؟

- أجلْ، قالها مرّتين. وقبل أن يركب السيّارة أدار قبّعته العسكريّة فوق سبّابته، مثل الدوّامة، واخترقتني نظرته حتّى النخاع، وقال لي: «خيوط العنكبوت؛ يُطلقون على دكّانك اسم خيوط العنكبوت».

وضع إغناثيو نهايةً لرقصة الصوف بحركتين خبيرتين من معصميه، وضغط على الزرّ الذي أوقف الإيقاع الحالم لِـ«ميخيا جودي».

- «هل معك بعض المال؟». سأل بينما ينهض.

حكَّ الحلَّاق أذنه، بينما كان مستمرّاً في استناده إلى ركبتيه.

- نعم. لماذا؟

- «حسنٌ». قال الشابّ: «عُد إلى المحلّ، واغلق الباب المعدنيّ، واذهب إلى بيت أختك في ماناجوا، وإن كنت تعرف أيّ شخصٍ في ميامي، فهذا أفضل.

بدا أنّ الأمّ قد أدركت التوتّر الحادّ في نبضات قلب الحلَّاق، وأصرّت مُبتسمةً:

- لتجلس يا رينيه.

ردَّ السيّد تشيبي بسرعة: «لا، شكراً». وانقاد خلف الفتى حتّى باب الشارع.

- هل تعرف ما هي الاستعارة؟

- «إنْ كان الأمر يتعلَّق بالمعرفة، فأنا أعرف، لكنْ إن كان يتعلَّق بفهمها جيّداً، فأنا لا أفهمها». توقَّف لبرهةٍ: «هل هو أمرٌ خطر؟».

- الاستعارة هي أن يقول المرء أمراً للتعبير عن شيءٍ آخر. هل تفهم هذا؟

- أعطني مثالاً.

- حسناً. إن قلتَ: «السماء تبكي»، فماذا تعني؟

- يا رجُل، هذا يعني أنّ السماء تُمطر.

- وإن قال لك شخصٌ ما: إنّ محلّك معروفٌ باسم «خيوط العنكبوت»، ماذا يعني إذنْ؟

ترك السيّد تشيبي نفسه فريسةً للحيرة. سقط فكّه. كانت علامة استفهام جسديّة تقريباً مُعلَّقةٌ بذقنه. مُقارنةً به، أيّ سورٍ كان ليبدو أكثر ذكاءً منه.

-لا. لا أفهم!

- يُقال: إنّه «خيوط العنكبوت»؛ لأنّ الذباب كلّه؛ أي: التعليمات السريّة، تسقط فيه.

مرّت سيّارتان تنتفضان فوق أحجار الطريق قبل أن يستعيد السيّد تشيبي قدرته على الكلام. فتح عرقٌ باردٌ بطيءٌ طريقه من عموده الفقري حتّى جلده.

- «أنت شاحب!». علَّق الفتى.

- «إن كنتُ شاحباً من الخارج، فأنا مُتَقدٌ في الداخل». قال الحلَّاق الذاهل عن نفسه، بهيئةٍ كئيبةٍ، بينما يتوه بنظرته في الغروب الذي يغزو الشارع.

- «أين تعلَّمت هذه الاستعارات؟». سأله إغناثيو وأيقظه من ذهوله كي يتحرّك.

- من داريو يا رجُل؛ من روبين داريو.

ظلَّ محلّ الحلاقة مُغلقاً طوال شهرٍ ونصف. حوارات السيّد تشيبي مع أخته في ماناجوا أصبحت لا نهائيّة منذ اليوم الثالث. بعدما كان مُعتاداً على تنوّعٍ هائلٍ في المحاورين (المرضى، كما كان السيّد أنطونيو يُطلق عليهم)، فإنّ الكلام المتكرّر لماتيلدي أصبح لا يُطاق بالنسبة إليه. في اليوم الرابع ظلّ يجول في المدينة. مع حلول المساء انطلق دويُّ الرصاص، ونباح الكلاب؛ كان عشرات من الثوّار الساندينين يسقطون عن الأشجار، أو يبزغون من الأرض، ويتّجهون إلى المعسكر، بينما يُطلقون

الرصاص. تنهَّد عميقاً ثلاث مرّاتٍ ليتفادى السكتة القلبيّة، واستدار مُسرعاً ليعود إلى البيت. ما إن استدار في الناصية الأولى، حتّى رأى دبّابة شيرمان من الحرس الوطنيّ قادمةً باتّجاهه، وبدا له أنّها تُصوّب مدفعها إلى جبهته مباشرةً، ومن دون أن يخطو خطوةً واحدةً، كان يحتمي برعبه على نحوٍ غير عقلانيّ، وكان شاهداً على تحطيم الدبّابة لحاجزٍ، وهي تصدر شحنةً عنيفةً من الشرر والقعقعة، وكيف أنّها حطَّمت واجهة مصنع نسيجٍ بفوضى أكثر من دقّة التصويب. بعد ثانيةٍ واحدةٍ، مرَّت رصاصةٌ على بُعد مترٍ. «احتكَّت بي»، هكذا سيحكي بعد ذلك. كانت رصاصةً أطلقها أحد رجال العصابات من فوق سطح أحد البيوت في محاولةٍ للتشويش على إصابة الدبّابة شيرمان للأهداف. دخل إلى ردهة أحد البيوت، وأراد الانتظار، وهو يجلس القرفصاء، حتّى يتوقّف إطلاق النيران. اقتنع بعد نصف ساعةٍ أنّ المعركة ستطول أكثر من المُتوقّع، وركض مُلتصقاً بجدران البيوت حتّى منزل أخته، وكان يحتمي بمداخل البيوت الضيّقة في أثناء أكثر الأحداث صخباً وحدّةً. عندما استلقى لاهثاً فوق الأريكة المصنوعة من القشّ، طلب إلى أخته جرعةً صغيرةً من عرق قصب السكّر، لكنّها ذكَّرته -متباهيةً- بأنّها لا تشرب الخمور، فقرّر أنّه سيعود إلى ليون في اليوم التالي.

- «هناك أطلقوا عليّ استعارات، لكنّهم هنا يطلقون عليّ الرصاص». كانت هذه هي خاتمة استنتاجاته.

- 9 -

بينما كان أبوه يطوف في بهو كنيسة سان خوان دي ديوس بخطواتٍ ثقيلةٍ فوق البلاط، وقف أغوستين تحت إحدى المراوح المُعلّقة في السقف، التي تئنّ معلنةً هزيمتها أمام الحَرّ. كان الهواء الذي تحرِّكه المروحة لا يرطّب الجوّ، إنّما يخلط روائح الزهور الذاوية، والشمع، والخشب، وملابس القسس، والبخور. لاعتياده النسق الحديثة المتناظرة في المعسكر، لفت انتباهه أنّ كلّ مروحةٍ من المراوح الضخمة تمتلك هيئةً وطرازاً يختلف عن الأخريات. ذات مرّةٍ قال له المُقدّم: «هكذا نفعل كلّ شيءٍ في نيكاراغوا. عظمتنا قائمةٌ على أشياء صغيرة. لصقنا أقزاماً بالصمغ فكوّنّا جيشاً، وبجيشٍ جيّدٍ صنعنا حكومةً قويّة».

ذهب أنطونيو بصبرٍ نافدٍ إلى غرفة الاعتراف، وطرق على النافذة الشاغرة. بدَّل القسّ مكانه على الجانب الآخر؛ حيث تعترف امرأةٌ شابّةٌ مُتعطِّرةٌ بعطرٍ لا مثيل له، وكان يشعر بالأسف لتوقّفه عن سماع المُقدِّمة التي كانت حتّى لحظة المقاطعة في حكم تشويه الحرس الوطنيّ، والزنا على حدٍّ سواء. وبضجرٍ فتح الشبّاك الصغير المقابل لذلك الصندوق الممتلئ بالأشياء الساذجة والفضائح التي يضطرّ إلى التعامل معها متذرّعاً

برباطة الجأش لكي يهزم الضجر والنعاس. ذات مرّة جاء السيّد تشيبي ليعترف بأنّه سمح لنفسه بالاحتفاظ بورقةٍ ماليّةٍ سقطت من جيب أحد الزبائن على مقعد الحلاقة في محلّه، فقاطعه بصوتٍ عبْر الشبكة: «اصنع لي معروفاً يا تشيبي، إنْ لم يكن لديك شيءٌ مهمٌّ جديرٌ بالاعتراف، اخترع أيّ شيءٍ؛ لأنّني أسقط نائماً».

- «ماذا تريد؟». قال لأنطونيو.

- أريد التكلّم معك أيّها الأب بدرو.

- «لتصلِّ «أبانا الذي» بينما أعود، لن أتأخّر». قال له.

وعندما فتح الكوة على الجانب الأيسر، ترك نفسه ليستحمّ في نعمة ذلك العطر الذي أعاده مرّةً أُخرى إلى توتّر الأحداث كما تفعل الموسيقا التصويريّة في الأفلام.

- «أكملي!». دعا السيّدة، بينما يستنشق رائحتها عميقاً.

ذهب أنطونيو إلى وسط البهو، ونظر متفحّصاً باتّجاه غرفة الاعتراف، وبنفاد صبرٍ متجدّدٍ ترك نفسه يسقط على طرف صفّ المقاعد. حينئذٍ ذهب أغوستين ليحوم حول غرفة الاعتراف، وبينما كان قد سمعه منتبهاً قليلاً إلى همسات المرأة، فحص تمثال سان أنطونيو محاولاً فهم ما يُمثّله ذلك الرجُل بزيّ القسّ البنيّ، الذي يحمل طفلاً بين ذراعيه، بينما يقف طفلٌ آخر تحت قدميه، كأنّما يتضرّع إليه، وهو نفسه ذاهل عنهما، بنظرته المغروسة في الزائر الذي ينظر إليه عبر زجاج واجهة العرْض، وفي الأسفل كانت هناك لوحة بخطٍ علّمته أخته بأنّه يُدعى الخطّ القوطيّ. كانت قد قالت له: «سأكتب وصفاتي الطبيّة بهذا الخطّ، لن أكون مثل أطبّاء الأسنان الآخرين الذين لا يمكن تمييز إن كانوا قد كتبوا أسبرين، أم أفيال». وكان هناك سهمٌ

باتّجاه باب الخروج يشير إلى «دروس في المسيحيّة، والسكرتاريّة». ظلّ هناك خلال بضع دقائق، مراقباً وميض الشموع التي تتركها العوانس لكسب شفاعة القدّيس الودود.

عندما انتهت السيّدة ذات العطر البارز من الاعتراف، لم يستطع الأب بدرو مقاومة إلقاء نظرةٍ لتكوين فكرةٍ، حتّى إن كانت بسيطةً، عن مشيتها. عَبَر أنطونيو مجاله البصريّ مشيراً له كشخصٍ يودِّع سفينةً في الميناء. خرج القسّ من الغرفة، وهو يطوي البطرشيل، أو المريلة كما كان يُطلق عليه، واتّجه بنشاطٍ نحو الرَّجُل، وكان أنطونيو منتبهاً إلى مجيئه، ولفت انتباه القسّ بالإشارة بإصبع سبّابةٍ متوتّرٍ نحو ابنه. رأى أغوستين الحائر أنّ حيويّة القسّ لم تخفت على الإطلاق عندما أصبح بجواره فيما الجزء السفليّ من زيّه يحتكّ بحذائه.

- ماذا بك؟

هزّ أغوستين كتفيه، ولمح أنطونيو الذي كان يرقبهما عن بُعد، بينما يقف خلف القسّ.

- أتى بي أبي.

- ما الخطب؟

لوى القسّ عنقه مشيراً لأنطونيو لكي يتكلَّم.

- هذا الأبله أصبح جنديّاً من جنود سوموثا.

- «اِخرس!». صرخ القسّ. استدار بسرعةٍ ليحيط بالكنيسة بنظرته: «اِخرس!». كرَّر بصورةٍ أكثر هدوءً.

سوَّى زيّه بجذب الصدر، وهزَّ الجزء السفليّ ليدخل الهواء، ويصل

إلى ما بين ساقيه. بعد ذلك أمسك بذراع أغوستين وقاده عبْر البهو المركزيّ الضيّق باتّجاه المنبر.

وهمس في أذنه:

- ماذا تفعل هناك يا لعين؟!

- أبي لا يفهم يا أبتِ؛ أنا لست في قوّات القمع. سيرسلونني للدراسة في الولايات المتّحدة في العام القادم، وهناك...

- هناك ستحصل على دكتوراه في البله!

تحمَّل أغوستين استفزازات القسّ مثل عمودٍ مغطّى بالجصّ، أو مثل الأعمدة الخشبيّة التي تتقاطع تحت القبّة. تخيَّل القسّ كأحد هؤلاء الملاكمين البنميّين قليلي التَّحمّل، لكنّهم يمتلكون لكمةً خاطفةً عصابيّةً، ويسعون إلى إيقاع الخصم بالضربة القاضية في الجولة الأولى. أدار عنقه، ورأى أباه الذي ينظر مُترقّباً على بُعد بضعة أمتار، على المسافة ذاتها التي ترفع عندها مرافقاتُ العروس ذيل الفستان في حفلات العرس.

- «ما المشكلة يا فتى؟». قال القسّ، بينما يدفعه قليلاً باتّجاه المذبح حتّى لانت صلابة أغوستين إلى حدٍّ ما، ووافق على السير معه.

- أحوالي جيّدةٌ في المدرسة يا أبتِ. أنا الشخص الوحيد في العائلة الذي يأتي بمالٍ للبيت. هل تعرف هذا؟

- لم أكن أعرف.

-والآن...

توقَّف القسّ منتظراً استكمال الكلمات. حكَّ أغوستين جبهته في محاولةٍ لضمّ حاجبيه عن طريق الضغط عليهما باتّجاه عظام الأنف.

- «الآن يريد أن أفرّ من الخدمة». قال موكّداً، ونفذت نظرته بعزمٍ في

عيني القسّ الرماديّتين. بدا له نائياً وغامضاً مثل مركبٍ شراعيٍّ صغيرٍ يُنظر إليه من الشاطئ.

- «وماذا تنتظر؟». قال في النهاية: «أم إنّك تحبّ الأزياء الرسميّة، والنياشين، وهذه التفاهات كلّها؟».

تخلَّص الشابُّ من يد القسّ الذي كان يقبض على كوعه، فكلَّمه، وشيءٌ من التعالي يرتسم على وجهه:

- يا أبتِ، هل تعرف ماذا يعني الفرار من الخدمة؟

فركَ القسُّ معصمَ الذراعِ الرافض، وضغط على كوع الفتى من دون إظهار أدنى بادرةٍ من الرقّة. شعر أغوستين أنّهما يطيران في الهواء حتّى توقّفا خلْف المذبح، وهناك رفع القسُّ الستارة التي تخفي الطريق إلى مائدة النذور بحبالٍ ذهبيّةٍ مضفورةٍ ثخينة، وفي ظهورٍ إعجازيٍّ كما يحدث في الأحلام، بان إغناثيو جاثياً على ركبتيه، ومصوّباً عليهما مسدّس جاراند. احتفظ الأب بدرو بالستارة مرفوعةً، وبنظرةٍ متعاليةٍ لتاجرٍ عربيٍّ يعرض بضاعته، وأشار لأغوستين بذقنه وحاجبيه مُطالباً بتعليقٍ. عندما لحظ أنّ وجه أغوستين يشحب، ترك الستارة الأرجوانيّة الثقيلة تسقط، وقال بينما ينظر إليه من فوق كتفه:

- الجوّ حارٌّ للغاية، أليس كذلك؟

قام بتهوية فخذيه بالزيّ مرّةً أُخرى، وهي الحركة التي عدّها أغوستين الذاهل متلازمةً شخصيّةً، واتّجه بإيقاعٍ حماسيٍّ نحو الأب، وهناك هزّ كتفيه، وسمح لنفسه بإلقاء نظرةٍ سريعةٍ إلى الخلف، وأشار بذقنه نحو أغوستين بينما يقول تقريباً: «ها هو أمامك، إنّني أهديه إليك».

ذهب أغوستين إلى حوض الماء المبارك، محنياً بعنقه تحت نتف

الأفكار الغزيرة، والإشارات، والمقاطع الصوتيّة، والأسماء التي يرتطم بها كما يرتطم المرء بالأثاث في غرفةٍ معتمة.

- «والآن؟». قال أنطونيو.

مخمّناً أنّ الدموع ستغطّي وجهه إن نظر إلى أبيه لأصغر جزءٍ ممكنٍ من الزمن- ما يستغرقه سيفٌ حتّى يمزّق قلباً، أو الوقت الذي يحتاج إليه بالون للانفجار تحت ظفر طفلٍ، أو الفترة بين وخزة أشواك زهرة وبين انبثاق الدم من الإبهام- غطّى وجهه بيديه الخشنتين، وقال من دون أن ينظر إلى الرجُل:

- يجب أن أفكّر في الأمر يا أبي.

وضع السيّد أنطونيو يديه داخل جيبيّ السترة الكتانيّة، وخرج من الكنيسة. من دون الانتباه إلى ما يحيط به، اتّجه إلى شارع 1 عندما حاد عند الناصية.

مكتبة
t.me/t_pdf

- 10 -

حبيبتي، حبيبتي، حبيبتي. ساعديني على الكلام يا حبيبتي!

أفكّر بكِ. الأشياء كلّها تؤدّي إليكِ. أنت شيءٌ رقيقٌ وشفّافٌ يلفّ حياتي. أنت مثل الموسيقا التي تتبعني في كلّ مكان. أتذكّر حفلات الرقص في المدرسة، وأرى رأسي مستنداً إلى وجنتكِ، غير قادرٍ على قول أيّة كلمةٍ لكِ؛ فقد أصابني حبّكِ بالخرس، أصابني حبّكِ بالضيق. حبيبتي، حبيبتي. ساعديني على الكلام يا حبيبتي! ليلة أمس، سمعت إذاعة «ريلوخ» في مذياع الترنزيستور الملتصق بأذني، بينما كان زملائي ينظرون إلى النجوم. أذاعوا أغانيَ قديمة، وكما قال المذيع: «أغانٍ قديمة، لكنْ جيّدة». أذاعوا «أنت ستكونين حبيبتي، الشيء، رسالة مهلكة، فينسينا من دونك». الأغاني التي يحبّها أبوكِ، وكنّا نسمعها في فناء بيتك عندما كنت أزورك، بينما يقوم بإصلاح الآلة الناسخة التي أخذتِها «استعارةً» من كليّة طبّ الأسنان. كيف تسير الدراسة يا ملكتي؟ دائماً ما أقول لك أشياء لطيفة، وأحدّثك عن مشاعري هنا، وعمّا أعاني هناك، ولا أسألك على الإطلاق عن أشياء عمليّة. هل لحظتِ أنّ العالم معكوسٌ الآن؟ مثلما يحدث عندما ينظر المرء إلى نفسه، كما قال تشي غيفارا؛ فالآن أصبحت

أنت العمليّة، وأنا الرومانسيّ. لا أعرف كيف سأقيّم أودي عندما ننتصر. يقول الزملاء: إنّنا لن نحلَّ مشكلة البطالة في عامٍ، ولا حتّى في خمسة أعوام. البديل هو الانخراط في الجيش. يُقال: إنّهم سيسرّحون الحرس المدنيّ، ويُنشئون جيشاً من الثوّار الساندينيّين. نحن سنكون الجيش الرسميّ لنيكاراغوا، تخيّلي! يوجد قائدٌ في مجموعتنا في الخامسة عشرة من عمره. انتقل الكثيرون من اللّعب بالطائرات الورقيّة، ولفّ حبالها، إلى الحرب، لكنّني لن أظلّ في الجيش، حتّى إن حصلتُ على رتبة جنرال. سأظلّ حتّى يرحل سوموثا، وبعد ذلك أريد العودة إلى الجامعة. لا أعرف إن كنت أريد العودة إلى الدراسة؛ لأنّ الشيء الوحيد الذي أراه عندما أفكّر في الجامعة هو مقهى الكليّة. أودّ تمضية بقيّة حياتي جالساً إلى مائدةٍ في المقهى، بينما أدخّن التبغ الأسْود، وأرى كيف تلقين بشعركِ إلى الخلف بيدك الخالية من الخواتم والأساور، وأظافركِ غير المطليّة، وعلى الرغم من هذا فإنّك مشرقة بجوار القهوة المائعة، والخبز البائس الذي تقضمينه، وكنت أصنع من لبّه كريّاتٍ أطوّح بها بظفري نحو راحة يدي، في انتظار كلمةٍ ملهمةٍ تغويكِ، وحركة من جسدي تبدو لكِ جذّابةً، حتّى تنتهي مدّة الراحة مع سخونة الفنجان، فتعودي إلى محاضرات الفسيولوجيا، أو علم النفس العام، أو الإحصاء؛ أمّا أنا، فكنت أريح أساتذة القانون الرومانيّ، والاقتصاد السياسيّ، والدستور من حضوري، وأظلّ مع الفتيان في المقهى نخطّط للمؤامرات. هل تذكرين أنّ أباكِ كان يُطلق عليّ لقب «ثوريّ الكافيتريا؟». أودّ رؤية وجهه الآن! أخبريني إذنْ، ماذا سيقول أبوكِ عندما يعرف أنّني أتسلّق الجبال كالقرد؟ يمكنك أن تخبريه أنّني شاركت في احتلال ماسايا في أيلول/ سبتمبر. هل أخبرتكِ بهذا في رسالتي الفائتة؟ بل هل وصلت إليكِ رسالتي الفائتة؟ فكّرتُ أمس: «إن لم تكن قد تلقّتها،

فما ذنبها؟». لأنّني كنت غاضباً منكِ. لأنّني أبْله. إن كنت ترغبين بالرَّد عليَّ، فإلى أيّ عنوانٍ سترسلين رسالتكِ؟ لكي تعرفيه وتتمكّني من الردّ عليَّ الآن، سأذكر لكِ العنوان: «العريف الشاعر ليونيل، في تخوم جرانادا. سلسلة جبال نيندري، تحت مجرّة درب التبّانة، في اتّجاهٍ مائلٍ على كوكب الزهرة في الفجر، على بُعد خمسة أمتارٍ من عشٍّ للببغاوات الخضراء، التي يبدو أنّها وصلت حالاً من أوتشوموجو، ويوجد العشّ بين شجرتين برّيّتين تصدر عنهما غمغمةٌ عندما تهبّ الرياح».

عندما ننتصر... بينما أكتب هاتين الكلمتين مرّةً أُخرى الآن، أدركُ أنّها أكثر جُملنا استعمالاً، يجب أن يكون هناك شهرٌ بهذا الاسم. هل تتخيّلين؟! تشرين الثاني/ نوفمبر، كانون الأول/ ديسمبر، عندما ننتصر.

الحياة هنا ليست سهلة. أعرف أنّ الحرس الوطنيّ يجعل حياتكم مستحيلةً في ليون. الحياة ليست سهلةً هنا، أو هناك. وصل طفلٌ من سوبتيابا قبل شهرٍ؛ إنّه صغيرٌ للغاية؛ لهذا قد لا تعرفينه. يقول: إنّه قد هرب من عمليّة فرزٍ. حملوا الفتيان كلّهم البالغين أكثر من خمسة عشر عاماً إلى مقبرة جوادالوبيه، وقتلوهم أمام أحد أسوارها. طلب إليه أبوه أن يرحل. أن يأتي إلى هنا، ويبحث عنّا. هذا أمرٌ غريبٌ، أليس كذلك؟ فاحتماليّة البقاء على قيد الحياة بينما تحاربين ضدّ سوموثا أكبر من احتماليّة بقائك منتظرةً وصول الحرس الوطنيّ لقتلك في بيتك. هل حكيت لك أنّهم دخلوا ماسايا، وقتلوا الأهالي؟ لأنّ الناس كلّهم هناك من الجبهة، لسنا نحن فقط. كانوا يقولون لنا في ماسايا: «نحن من الثوّار الساندينيّين حتّى لو لم ترغب الجبهة». تركونا نحتلّ المواقع في أرجاء المدينة كلّها، وفي أثناء تبادل إطلاق النار كانوا يأتون إلينا باليوكا المقليّة، أو بعصير الليمون. صباح

يوم الأحد هجمنا على المعسكر الذي تتركّز فيه قوّات الحرس الوطنيّ، وفي أثناء ذلك نظّم أهل البلدة أنفسهم لإيقاف العربات المُتَّجهة إلى المدينة. في ليلة الأحد تلك انقطع النور. قالوا: إنّ انقطاع النور يعني أنّ الماء سينقطع بالتأكيد. ملأوا الدلاء، والأواني، وأحواض الاستحمام. في اليوم التالي، انقطع الماء، لكنّنا كنّا نمتلك ماءً. كانوا يعرفون التكتيك أكثر من العسكريّين. اضطّررنا إلى التراجع عندما ألقوا علينا بترسانتهم كلّها. جاء الشباب معنا، لكنّ الشيوخ بقوا. قالوا: «ماذا يمكن أن يحدث لنا؟». لكنّهم هجموا على الشيوخ والنساء بخمس طائرات هيلوكوبتر، ودبّابات، ومدافع. حرقوا المتاجر كلّها. قتلوا ما يقرب من خمسمئة شخص.

قال لي القائد: «إن كنت تحبّ الكتابة، فلْتسجّل قائمةً بأسماء الرفاق الذين يسقطون».

عندما ننتصر... عندما ننتصر، يجب عليّ الكتابة إلى عائلاتهم، والتقصّي عن أسمائهم الحقيقيّة وعناوينهم، والبحث في قُراهم الأصليّة... أحياناً أُدوّن عن علامةٍ في الجلد، وطابع الحُسْن في الوجه، وندبة في العنق؛ هؤلاء هُم الزملاء الذين أشاهدهم بعينيّ، لكنّهم يحكون لي عن الآخرين. يقولون لي: إنّ هذا اسمه ميجيل. أخبرهم أنّه من ماسايا، لكنْ إن كانوا يقولون: إنّه من ماسايا، فربّما كان من ريباس. كلّهم هنا حذرون للغاية. عندما ننتصر، سأترك الجيش... أنا لا أصلح لهذا يا فيكي. لا أتذكّر اسمي وسط المعارك، ولا أعرف كيف أعبُر شارعاً، وأنا أقرفص تحت القصف الكثيف. لا يمكنني الشعور بالخوف؛ لأنّ كلّ شيءٍ يحدث فجأةً في دوّامة. تماماً كأنّني مع الفتيان في الموجة ذاتها التي تتكسّر على الصخور، وتكسح كلّ شيءٍ في طريقها؛ هذا هو ما يؤلمني. الليالي على

فراشي بصحبة دفتر الأموات، وبينهم قصائدي التي لا تنتهي إلّا عندما يمحو النهارُ النجومَ أيضاً. أحاول كتابة الأشياء كما تخطر على بالي. لا أريد استعمال زخارف لغويّةٍ، أو استعاراتٍ، أو كناياتٍ، أو رموزٍ غريبةٍ. أريد أن تخرج الكلمات بتلقائيّةٍ في الصفحات مثل السلاح في أيدي الزملاء، مثل الرطوبة في شفتيك. أنا معجبٌ بكلمات الأب كاردينال، الذي يجعل من كلّ شيءٍ شِعراً: حتّى كلمة سوموثا تبدو شعراً عندما ينطق بها، ولافتات محطّات بنزين «إيسو»، وإعلانات كوداك. لا نمتلك أشياء كثيرة هنا؛ الوحل هو أكثر ما نملك. كأنّ الربّ انتهى من النفخ فينا. إن كتبت قصيدةً واقعيّةً يجب أن أستعمل كلمة «ثعبان»، وكلمة «عظاءة»؛ لأنّنا نزحف هكذا. سأستعمل كلمة «طائر» كثيراً، لكنّني لم أسمع الطيور على الإطلاق في ليون. لا أعرف التمييز بين زقزقة طائر آكل الأرزّ وبين طائر صيّاد السمك الأخضر. على العكس، فإنّ الفتيان من أهل المنطقة يشعرون أنّهم في بيوتهم عندما يكونون في أيّة قطعة أرضٍ معشبة، كأنّهم يكرهون الجدران، وشوارع القرى تخنقهم.

هل تعرفين ما أودّ امتلاكه الآن؟

مرآة.

أقسمُ لكِ إنّني لا أتذكّر كيف كان شكلي. هل تحتفظ ذاكرتك بأيٍّ من ملامحي؟ هل أعجبك ذات مرّة شيءٌ ما في شخصيّتي؟ هل تذكرين وجهي؟ أتذكّرُ أنّكِ كنتِ تتركينني أُقبِّلك في عينيكِ المغمضتين، وعندما كنت أمتدحكِ بكلماتٍ متدافعةٍ، من جبهتك حتّى أظافرك الصغيرة المُطلّة من الصندل، لم تكوني تنطقين بأيّة كلمةٍ لطيفة. هل كنتِ دائماً عمليّةً هكذا؟ لا تسيئي فهمي؛ لا أعني أنّكِ باردة، فما زالت أطراف أصابعي

تخفق بنبض ذلك الوريد العالي في عنقك، ووجنتيك المتّقدتين، ولسانك الرطب الملتوي مثل طائرٍ بين أسناني؛ كنتِ تلخيصاً لفيلمٍ عظيمٍ لا يُعرض في أيّ مكان. ذات مرّة، تحسّست فخْذكِ، لكنّني لم أستطع مداعبتك على نحوٍ حقيقيٍّ. كنتِ تجعلينني أشعر بأنّني أنافس مجرّة درب التبّانة بالكامل لكي أكون بجوارك، مع: عشّاقك من أيّام الطفولة، ومع مساعدي الأساتذة في الكليّة، ومع أخيكِ الذي كان يحرسكِ، ويبدو كتابعٍ بجوارك، ومع أبيكِ وخطاباته الثوريّة الذي لم يكن اللّيل بأكمله كافياً لإطفاء حماسه، ومع كتبكِ في طبّ الأسنان، ومع القوالب الجصيّة التي كنتِ تنتقلين بها من قاعةٍ إلى أُخرى خلسةً بينما تخبّئينها بين الشطائر وعلب الحليب في حقيبةٍ مصنوعةٍ في ماسايا.

بِمَ تفكّرين بشأني يا فيكي؟ على سبيل المثال: إنْ ظهرت في غرفتكِ على نحوٍ سحريٍّ في حُلمٍ، هل ستتشبّثين بعنقي ببطءٍ بأظافركِ الصغيرة؟ هل ستخرجين ذراعيك القصيرتين من تحت الملاءة لتجذبي فمي نحو شفتيك ببطءٍ؟

الأنفاس مقطوعةٌ اليوم يا فتاة!

الحرُّ شديدٌ. الطيور ضامتةٌ. القائد يدخّن بجواري. يبدو أنّ الذئاب البريّة تتحاور بنوبات عواءٍ طويلة. سقف قصري المصنوع من أشجار القابوق يحجب عنّي القمر. سنحاول التّقدّم نحو خينتوبي غداً. ستصلُ قوّاتٌ من أماكن أُخرى. الإعداد جارٍ لأمرٍ مهمّ. أُقبِّلكِ، وفجأةً! أشعر بالحزن والوحدة الشديدة على الرغم من كلّ شيء.

- 11 -

حكى السيّد تشيبي أنّ إغناثيو ظلّ مختبئاً طوال ثلاثة أيّامٍ في الفناء الخلفيّ لدكّان الحلاقة، في كشك المعدّات، التي كان أغلبها صدئاً، حتّى تلقّى إشارةً سريّةً لكي ينضمّ إلى الفتيان في جبهة تشينانديجا.

كان القسّ قد اعترف في الاستجواب بأنّ ذلك المواطن إغناثيو أورتيغا توقّف عن التردّد على كنيسته منذ ثلاثة أعوامٍ تقريباً، عندما تشيطن بأفكار ساندينو الشيوعيّة. في محاضر الرقيب ثيفوينتس، الذي كان يقول له: «معذرةً يا أبتِ» عندما يطفئ السجائر في ظهر يده اليمنى، مُثبتاً أنّ القسّ بدرو موثوراجا سمع في جلسات الاعتراف أفكاراً معاديةً للحكومة، لكنّه لم يسمع على الإطلاق -من دون حنث بالقسم- أنّ أيّاً من المؤمنين في منطقته قد شارك في اعتداءاتٍ إرهابيّةٍ؛ ولذلك فهو يميل إلى الاعتقاد بأنّ هذه الاعتداءات من تنفيذ عناصر بعيدة عن لُحْمة الشعب، وعلى الأرجح عناصر شيوعيّة من أنصار أفكار كاسترو وساندينو.

قام تشجوين بتكليف المُقدّم فلوريس بتطبيق قبضةٍ حديديّةٍ، وفرض النظام في مدينة ليون المتدينة، ومحاولة الإمساك بالمدعو إغناثيو أورتيغا حيّاً، فمن المُحتمل ألّا تكون لديه معلومات عن عصيان أهل مدينة ليون

فقط، إنّما، حسب وشاية مصدرٍ موثوق به؛ قد يكون هو جهة الاتّصال مع جبهة تشيناديجا.

ساليناس، واسمه الأوّل هو سوبليميه، ومهنته ساعي بريد، من مواليد مدينة ليون، اعترف لطالبة طبّ الأسنان السابقة، فيكي مينور، بأنّ إغناثيو أورتيغا لم يزر مكتب البريد الذي يعمل به منذ أسبوعين تقريباً، وأنّ المحامي ريباس، المعروف بكونه أُذن النظام؛ قد سأله بينما ينظر إلى عينيه مليّاً، وقتاً طويلاً للغاية، إنْ كان المدعو إغناثيو أورتيغا لم يعد يذهب إلى مكتب البريد، وسأله عن السبب المُحتمل لهذا حسب تقديره.

العميد أناستاسيو سوموثا -المُلقَّب بِـ«تشجوين»- ذهب بنفسه إلى مسرح البلديّة، وتقدَّم برفقة المُقدّم فلوريس إلى التمثال الذي يمثّل حيواناً أسطوريّاً؛ حيث فُجِّرَت القنبلة التي دمَّرت السيّارة الجيب الخاصّة بالحرس الوطنيّ، وتسبّبت بموت ثلاثة ضبّاطٍ من المخلصين للنظام. أمام الفرقة التي كانت تحرسه بمسدّسات جاراند، كلّف العميد تشجوين المُقدّم فلوريس بإلقاء القبض على أيّ فتى يبلغ عمره أكثر من ثلاثة عشر عاماً، إن كان هناك أدنى احتمال للشكّ في تعاونه مع الشيوعيّين المؤمنين بأفكار ساندينو، وفي حال تأكّد الشكّ، يُعدم على الفور أمام باب منزله. بنبرةٍ مُتعاليةٍ تسبَّبت في احمرار الوريد المتوتّر في عنق المُقدّم فلوريس، ذكَّره تشجوين بأنّه بصفته قائداً ناجحاً لم يُحرز التقدَّم المنشود منذ أن كُلّف بإلقاء القبض على إغناثيو أورتيغا، واختتم ببريقٍ شرّيرٍ قطعَ أنفاس القائد: «أبلغ تحيّاتي إلى عائلتك عندما تكتب إليهم».

حسب ميريام هيريرا بيريث، أخت مارتا هيريرا بيريث، ميس ليون السابقة، ذات الشخصيّة اللطيفة، والروح الشابّة، فإنّ الشابّ إغناثيو أورتيغا

لا يُعدّ من الدائرة الضيّقة لصداقاتها، وستكون قد أتت بفعلٍ سيّءٍ إن كانت قد وفَّرت له ملاذاً في بيت السيّدة أمّها كما يُقال، ويُحكى، ويُؤكَّد. فتَّشت قوّات الحرس الوطنيّ بيت الآنسة ميريام، ولم يعثر أفرادها على أيّة قرائن تدلّل على حضور أشخاصٍ ذكور في البيت. لم تكن هناك سوى رسائل عاطفيّة من المواطن تيكو أنطونيو إجلاسياس، لكنّها مُرسلةٌ إلى مارتا، وليس إلى المذكورة ميريام.

أحد المدنيّين الذين أُسْكِنوا بطريقةٍ غير مثيرةٍ للشكوك بجوار منزل السيّدة إدلميرا، أرملة أورتيغا، وأمّ المُشتبه به إغناثيو أورتيغا، أخبر أنّه بعد حواراتٍ مع السيّدة المذكورة، يمكنه الإقرار أمام قيادة ليون بما يلي: السيّدة أورتيغا تجهل مكان ابنها إغناثيو البالغ من العمر عشرين عاماً، وتجهل أيضاً أين يوجد ابنها رامون، ذو الثمانية عشر، وإرنستيو البالغ من العمر سبعة عشر عاماً، وسيزار البالغ خمسة عشر عاماً، ودانييل ذو الأربعة عشر عاماً، لكنّها تعتقد أنّهم قد يكونون في أحد الأماكن في الأراضي النيكاراغويّة، وعلى الأرجح في ماناجوا؛ حيث يعيش بعض الأقارب، وبالاستفسار منها عن عنوان هؤلاء الأقارب، أجابت بأنّها قد نسيته، وتعزو هذا النسيان إلى عمرها المتقدّم، فحسبما تؤكّد بدأت في إنجاب الأبناء في سنٍّ متأخّرة. هذ المُخبر يؤكّد على عدم وجود أيّ قاطنٍ آخر في البيت يمكن اللجوء إليه للحصول على المعلومات المطلوبة بأيّة صيغةٍ من الصيغ التي يقتضيها أسلوب العمل. على الرغم من هذا، فإنّ فحصاً بصريّاً دقيقاً للغرف يؤدّي إلى استنتاج أنّ الشبّان المذكورين كانوا يعيشون في ذلك البيت حتّى أسبوعٍ مضى تقريباً؛ وذلك لعدم وجود هيئة غرفٍ مهجورةٍ منذ مدّةٍ طويلةٍ. لا توجد موادّ قراءةٍ معادية لمصالح الدولة الديمقراطيّة في غرفة المُشتبه به إغناثيو أورتيغا، لكنْ لم يفُت هذا الموظّف

ملاحظة أنّ أغلفة أسطوانات الموسيقا الكلاسيكيّة لِـ«برامز، وموتسارت، ومانتوفاني» تحتوي على تسجيلاتٍ للفرق الموسيقيّة التشيليّة: كيابايون وإنتيليماني، وأسطوانة طويلة كاملة بأغانٍ شيوعيّةٍ مناصرةٍ لِـ«ساندينو»، للمطرب النيكاراغوي كاروس ميخيا جودوي، وفرقة بالاكاجوينيا. هذه الوقائع لا تتيح الاستنتاج مباشرةً أنّ الشابّ إغناثيو أورتيغا هو مُنفّذ الاعتداء بالقنبلة التي أودت بحياة ثلاثة ضبّاطٍ في الحرس الوطنيّ، والخسارة التي لا يمكن تعويضها لسيّارة جيب مُجهّزة بنظام مذياعٍ متطوّرٍ، لكنّها قرائن كافية للتوكيد على أنّ:

أ) الشابّ أورتيغا، بسبب ميوله الموسيقيّة، يمكن أن يرتكب فعلاً إجراميّاً، وربّما يكون قد ارتكبه بالفعل.

ب) الشابّ أورتيغا اختفى من بيته تقريباً -لكي لا نقول: «تحديداً»- يوم وقوع الاعتداء الإرهابيّ المفجع الذي أثار حزن أهل مدينة ليون.

ج) بقيّة العائلة -المُكوّنة من أربعة شبّانٍ آخرين في سنٍّ حَرِجة- هجروا حضن الأم في تاريخٍ شبيه؛ خوفاً من ردود الفعل الانتقاميّة تجاههم قبل، أو بعد هذا التقرير.

الإجراء: يوصى باستجواب -وإن تطلَّب الأمر يوصى بسَجْن- كلّ شابٍّ يبلغ أكثر من خمسة عشر عاماً، ويمكنه أن يخبّئ أحد أعضاء عائلة أورتيغا في منزله. هذا الخادم للوطن يُقدّر أنّ العثور على أحدهم، مع الأخذ بالاعتبار الروابط العائليّة والأيديولوجيّة الواضحة التي تربط بينهم؛ سيؤدّي إلى الإيقاع بالآخرين سريعاً. فيما يتعلّق بالمعاملة الخاصّة للسيّدة إدلميرا، فإنّ المرشد المذكور لا يوصي به؛ نظراً إلى تقدُّم عمر المرأة والمرض الذي تعانيه، وحسب كلماتها فإنّ: «انقباضاً هنا في الصدر، يمنعني من

«التنفّس». وبسؤال طبيب التأمين الصحّيّ عن هذه الحالة، أشار إلى أنّه لا يمكن تحديد مرض المريضة بناءً على مثل هذا الوصف فقط، لكنّه أيضاً يوصي بعدم اللجوء إلى أيّ علاجٍ خاصٍّ؛ لأنّ «الانقباض» المذكور يمكن أن يكون صعوبةً مؤلمةً في التنفّس بسبب مشكلات في القفص الصدريّ، أو التهابٍ في الغشاء الحاجب، كما يمكن أن يكون بسبب اضطّراباتٍ في العضو التناسليّ، أو قصورٍ في وظائف الكلى، أو إمساكٍ مزمنٍ، بل ويمكن أن يكون التهاب الكبد، من دون أيّة إضافةٍ أُخرى. تحيّاتي لسيادتكم.

توقيع: مينولتا.

حسب الرسوم التخطيطيّة المُرفقة للمنطقة، التي تمتدّ إلى أسفل، حتّى حيّ بارايسو، ومقبرة جوادالوبيه، وإلى أعلى حتّى كنيسة سان سبستيان؛ حيث رُؤيَ الشابّ المتسبّب بالاعتداء الإرهابيّ، فإنّ الاحتمالات تنحصر في أنّه قد اختبأ في أحد البيوت الموجودة بين المنطقتين، أو بحث عن ملاذٍ سرّيٍّ في مكانٍ ما بالمقبرة. وأفادت الدوريّات عن إجراء تفتيشٍ دقيقٍ للبيوت كلّها المُشتبه في تورّطها بعد دقائق -لكي لا نقول: ثوان- من وقوع الحادث المفجع، من دون أن يؤدّي هذا التفتيش إلى أيّة نتيجةٍ، كما تجب الإشارة إلى تطبيق الإجراء الصارم بإعدام شابٍّ على باب بيته بإطلاق النار عليه في اتّباعٍ حرفيٍّ للتعليمات الناتجة عن حظْر التجوّل. على الرغم من أنّ هذه الواقعة لم تغيّر من عدم استعداد أهل المنطقة للتعاون، فلن يُتمادى في معاقبة قطاعٍ مجتمعيٍّ لا نتمتّع وسطه إلّا بدعم الأقليّة، التي يمكن، لأسبابٍ عاطفيّةٍ؛ أن تنفضَّ عن قضيّتنا؛ أمّا الفرضيّة الثانية المتعلّقة بملاذٍ مؤقّتٍ في المقبرة، فقد استبعدها الضبّاط المشاركون في العمليّة كلّهم؛ لأنّ عناصر إرهابيّةً أُخرى قد لجأت إليها في الماضي القريب، وبعد

الإجراءات العقابيّة الصارمة التي طُبِّقَتْ قبل شهورٍ قليلةٍ، لم تعد مكاناً آمناً حتّى للاختباء على نحوٍ عابر.

في أثناء إحدى عمليّات التفتيش، عثر الموظّف المدنيّ خورخي ألفارو على خريطةٍ لمدينة ليون؛ حيث حُدّدت المسافة بين الكاتدرائيّة إلى ما وراء مقرّ القيادة بخطٍّ دقيقٍ وواضحٍ. والأمر المدهش أنّ التعليقات على الخريطة تحدّد ارتفاعات المباني، بدءاً من سينما جونثالث حتّى المحكمة رقم 21. في المقام الأوّل، يعزو الموظّف المدنيّ خورخي ألفارو فحص لفافة ورقٍ من هذا النوع إلى الحظّ، لكنّه أيضاً يضيف في المقام الثاني نوعاً من الحدس -لا يمكنه تحديده- جعله يضع هذه الخريطة تحت تصرّف القيادة العليا لكي تتولّى الأمر، إنْ رأت القيادة العليا أنّ الأمر يستحق. وأتى الموظّف المدنيّ خورخي ألفارو بمبادرةٍ، ولم يفُت على هذه الإدارة أن تشكره عليها؛ إذْ ذهب مرَّةً أُخرى إلى البيت الذي عُثر فيه على الخريطة المثيرة للتساؤلات في محاولةٍ للحصول على معلوماتٍ إضافيّةٍ عن هذا الأمر. المسكن مِلكٌ للسيّد سلفادور راميريث، القاطن القديم في هذه المدينة، وأبو بلوتاركو راميريث، ومهنته رجُل إطفاء، معروف في الحيّ بلقب «دي آرتنجان»، وهو اسمٌ لا علاقة له بالألقاب السريّة، إنّما يصف شاربه العجيب الذي يُذكِّر بالرسّام السرياليّ دالي، أو بالفارس الذي يحمل الاسم ذاته. سار الحوار مع السيّد راميريث بهدوءٍ، ولم يشْهد صوته انفعالاً عندما قام الموظّف المدنيّ ألفارو بسؤاله فجأةً عن الغرض من خريطة مدينة ليون التي أخذ يفضّها من الشريط المطاطيّ الذي يربطها. أبدى السيّد راميريث إعجابه بالخطّ ودقّة الرسم، وقال من دون أن يُضغَط عليه للكلام: إنّ الخريطة لا يمكن إلّا أن تكون من رسْم يد ابنه الموهوب، رجُل الإطفاء المذكور بلوتاركو راميريث. وبدعوة السيّد راميريث بلُطفٍ لإبداء

رأيه في سبب امتلاك ابنه لخريطةٍ دقيقةٍ إلى هذا الحدّ للمدينة، ومن رسمه هو شخصيّاً، اكتفى بالردّ بأنّ بلوتاركو أبدى موهبةً بارزةً في الجغرافيا منذ صغره، وكان يحصل على أعلى الدرجات في هذه المادّة. وبحنانٍ -لم يبدُ متصنّعاً للموظّف ألفارو- تذكّر مرحلة الدراسة الابتدائيّة لابنه، خاصّةً كيف كان معاشه الشهريّ ينُفق على المساطر، والبراجل، والمثلّثات، وأقلام رصاص فابير 2، التي اعتاد أن يرسم بها مختلف أنواع الأشكال الهندسيّة. وانتهى الحوار عندما مدحا معاً مرّةً أُخرى الوصف الدقيق للمدينة في خريطة بلوتاركو. وبما أنّه أمرٌ مثيرٌ للشكّ أنْ يمتلك مواطنٌ عاديٌّ موهبة الملاحظة حتّى يجسّدها في مستندٍ لا يبدو أنّ الغرض منه هو ممارسة المواهب الجغرافيّة الهندسيّة، يقترح الموظّف المدنيّ ألفارو في رسالته على القيادة -وعلى المُقدّم فلوريس من مدرسة المشاة- أن يجري التقصّي عن المدعو بلوتاركو راميريث بالدقّة التي تتطلّبها القضيّة.

كتبَ رجُل الإطفاء، السيّد بلوتاركو راميريرث؛ رسالةً، ولتفادي إضراب العاملين في البريد، قام بتسليمها شخصيّاً في قيادة الحرس الوطنيّ، وطالب حامل الرسالة بمقابلة أحد الأشخاص من ذوي السُلطة مُتذرّعاً بمرتبته بصفته رجُل إطفاءٍ في خدمة الوطن، وأهميّة الأمر الذي يحمله بين يديه. وبالاستجابة إلى طلبه، اصطُحِبَ حتّى مكتب الرائد جونثالو إيبريس، وهناك أُجْريَ معه الحوار الآتي، الذي قمنا بتفريغه من النسخة المُسجَّلة بجهاز الكاسيت، ماركة فيليبس، الخاصّ بهذه الإدارة:

السيد بلوتاركو راميريث (ولأسبابٍ مُتعلِّقةٍ بتفريغ التسجيل سيُدعى بدءاً من الآن **راميريث**): سيّدي الرائد. أريد الإبلاغ عن أمرٍ مهمّ، ولأنّني رجُلٌ قليل الكلام، وغير فصيح، أطلب تصريحكم بقراءة هذه الرسالة التي حُرّرتْ بمساعدة أشخاصٍ مثقّفين، ومن ذوي الثقة.

الرائد السيّد جونثالو إيبريس (ولأسبابٍ مُتعلّقةٍ بتفريغ التسجيل سيُدعى بدءاً من الآن **الرائد إيبريس**): هل هي رسالةٌ طويلةٌ للغاية؟

راميريث: صفحةٌ واحدة.

الرائد إيبريس: اقرأها إذن.

راميريث: مدينة ليون، 25 أيار/ مايو....

الرائد إيبريس: يمكنك تجاوز هذا.

راميريث: إن...

الرائد إيبريس: قُل: إلخ.

راميريث: سيّدي الرائد، أتيت للإبلاغ عن أنّ محلّ عملي في فرقة الإطفاء، الكائنة...

الرائد إيبريس: ... بجوار الميدان. يمكنك تجاوز هذا.

راميريث: هذا... اللغو التمهيديّ... حضرت دوريّةٌ من الحرس الوطنيّ تحمل خريطةً لأحد قطاعات مدينة ليون، وطلبوا إليّ الاعتراف بملكيّتها، ولم تكن اللّهجة متعاليةً، إنّما تهديديّةً. وعبَّرتُ للسادة الجنود -بأكثر الطرائق ودّاً- عن أنّ هذه الخريطة من صنع يدي بالفعل، وسألت السادة الجنود عمّا يرونه غير لائقٍ في هذا. بعد برهةٍ بدت لي مُحمّلةً بالحيرة، كأنّ السادة الجنود لا يعرفون ماذا يسألون، أو كأنّما يجهلون سبب زيارتهم، أمسك أحدهم بذراعي الأيسر، وثناه على نحوٍ مؤلمٍ حتّى سقطتُ على ركبتيّ على الأرض بين العربتين، وفي أثناء ذلك كان يصيح (وأعتذر من الكلمات): «لقد انتهى أمرك يا عاهر! الآن ستعترف بسبب رسمك للخريطة». ووسط الألم والإهانة التي تسبّبت فيها هذه المُعاملة، لم أفلح سوى

في التأوّه من دون أن تصدر عنّي أيّة كلمة. السادة الجنود، الذين ربّما فسّروا هذا التصرّف كصمتٍ عنيدٍ لشخصٍ يخفي شيئاً، قاموا بركلي ولكمي بصورةٍ تسبّبت في إصابتي على نحوٍ جسيم. عندما تعرض للضرب، وفي الخصيتين أيضاً، فقدت الإدراك لبرهةٍ. عندما أفقتُ، أجلسني السادة الجنود على مقعدٍ، وأعادوا عليّ أسئلتهم، هذه المرّة بنبرةٍ لطيفةٍ، ويمكنني أن أقول: بشيءٍ من الندم، لكنّني قد تلقّيت الضربات، ولا يمكن للضربات أن تشعر بالندم، أو تتوقّف عن إيلامي. وبما أنّني كنت قد تلقّيت هذه المعاملة، فقد أجبت بالشيء الوحيد الذي يمكن الردّ به، والذي أردّده اليوم أمام حضرتك يا سيّدي الرائد: رسمت خريطة هذه المنطقة من المدينة بكلّ دقّةٍ؛ لأنّني أحبّ الإتقان فيما أعمل كلّه. أحبّ القيام بعملي بصفتي رجُل إطفاء كما يجب، وكما أنّك تتطلّع إلى الوصول إلى رتبة جنرال من أجل مصلحة الوطن، فإنّني أودّ أن أكون ذات يومٍ قائداً عامّاً لجهاز الإطفاء، وأن أكون أفضل استراتيجيٍّ في مكافحة الحريق، ووفقاً لهذا التصوّر، أقوم بإثراء ثقافتي المهنيّة باستمرارٍ، بفحص كلّ شبرٍ في المنطقة الواقعة في نطاق مسؤوليّتي. وإن حدثت فاجعةٌ ذات يوم -كما حدث مرات عديدة في الاعتداءات التي يقوم بها أتباع ساندينو الشيوعيّون، أو الردّ الوطنيّ لقوّات الحرس الوطنيّ- سأعرف النقاط الحسّاسة كلّها مثل راحة يدي، على سبيل المثال: أعرف ارتفاع مبنى التأمين الاجتماعيّ، وأيّ نوعٍ من السلالم أفضل. أعرف أيّ المباني مصنوعة من موادّ قابلة للاشتعال، وأيّها من الإسمنت المسلّح، وفي حالة الحاجة إلى تحديد الأولويّات عاجلاً. ...إلخ. هذه الغيرة المهنيّة، يا سيّدي الرائد، التي ستحظى بالتشجيع، والمكافأة

بالنياشين، والترقية، وزيادة المعاش في أيّ مكانٍ في العالم، تؤدّي في نيكاراغوا إلى الشكّ، والمضايقات، والعنف الجسديّ والنفسيّ للموظّف. لكنّ الألم يكون أكبر عندما يأتي الاعتداء من زملاء يرتدون الزيّ الرسميّ، ممّن يجب أن يجعلوا من النظام وروح العدالة نبراساً لهم، ومن دون أيّة إضافاتٍ أُخرى، أطلب باحترامٍ -إلى قيادة الحرس الوطنيّ- أن أُبرّأ من الشكوك والاستجوابات الوحشيّة، وبقدْر الإمكان أن يعتذر المتسبّبون بهذا الاعتداء إلى شخصي وإلى السيّد أبي، الذي قام بمداواة جروحي بنفسه؛ لأنّه أرمل. لا أطلب لهم عقاباً؛ لأنّني لست شخصاً محبّاً للانتقام، لكنّني أنتهز الفرصة لأرسل نسخةً من هذه الرسالة إلى القيادة العامّة لهيئة الإطفاء؛ لكي يعترفوا بقدراتي، لعلّه يُنظَرُ في الواقع المحزن لمعاشي بعد ستّ سنوات من الخدمة (أرفق إيصال شهر كانون الثاني/ يناير؛ لأنّ معاشات شباط/ فبراير، ومارس، وأبريل، وأيار/ مايو لم تُصرف بعد)، وأطالب بأن تُدفع مستحقّاتي، وأن يُدرس تعديل المعاش على أن يكون في صالحي.

من دون أيّة إضافات، تحيّاتي واحترامي، بلوتاركو راميريث.

{وقفة}

الرائد إيبريس: حسناً. سندرس أمرك، وسنبلغك إن كانت هناك مُستجدّات.

راميريث: شكراً يا سيّدي الرائد.

الرائد إيبريس: العفو يا رجُل، العفو؛ نحن هنا في خدمتك.

{نهاية التسجيل}

انتهى المُقدّم فلوريس من قراءة المستند المحفوظ في الملفّ الورديّ، وخبط على الورقة الأخيرة بالطريقة التي تُستخدم لقتل ذبابةٍ. وضع الملفّ بجوار ملفّاتٍ أُخرى كثيرة، وضغط على عظام أنفه بطرفي إصبعيه متسبّباً في ألمٍ للأعصاب، وقال من دون أن يتوجّه إلى أيّ شخص:

- لقد خسرنا هذه الحرب يا سيّدي الجنرال!

- 12 -

على الرغم من انتصاف النهار، ومن أنّ ضوء الشمس كان يسقط من السماء من دون أيّ عائق، دخلت العربات العسكريّةُ الحيَّ بأنوارها المضاءة، واحتفظت بالتشكيل في صفٍّ، حتّى تحرَّكت السيّارة الأولى، وصعدت فوق الرصيف لتتحرّك سيّارة المُقدّم فلوريس الكبيرة متقدّمةً التشكيل. أهل الحيّ، الملتزمون في بيوتهم في اضطّرابٍ، انتهى بهم الأمر بتغطية النوافذ بستائر منقوشة، وإغلاق الأبواب بالمزلاج. أوقف المُقدّم فلوريس سيّارته أمام بيت أغوستين، وأدار المقود ليترك السيّارة متقاطعةً مع الطريق الحجريّ. أطلّ برأسه من النافذة، راغباً باستكشاف الضوضاء الصادرة عن البيوت. من دون الخروج من السيّارة، رفع مفاتيحها إلى أعلى في أمرٍ لسيّارات الجيب بإطفاء محرّكاتها. عندما حلَّ الهدوء بعد بضعة انفجاراتٍ من أنابيب العادم، كان يمكن للمُقدّم فلوريس أن يقسم أنّه كان أمام أحد أكثر أنواع الصمت التي عرفها غرابةً، وحاول التعَّرف إلى حدوده وأخطاره المُحتملة.

عندما خرج من السيّارة، قفز جنوده أيضاً شاهرين أسلحتهم، ومتجهّزين لمناورةٍ بدا أنّهم أتقنوها في تدريباتٍ شاقّة. مسح المُقدّم

فلوريس العرق عن راحة يده بالمنديل الرماديّ، ثمّ طواه بعنايةٍ مبالغٍ فيها، ووضعه في جيب السترة العسكريّة، وسوّى النتوء الذي تسبّب فيه المنديل في صدره، كمن ينفض ذرّة زغبٍ عنيدةً من الزيّ العسكريّ، ورفع ذقنه المتّقد، وصاح آمراً:

- أغوستين مينور!

على الرغم من أنّه لم يرفع عينيه عن البيت، لم يتلقّ إجابةً سوى ازدياد وطأة الصمت الكثيف. الشجرة الموجودة إلى يساره، في سكونها وأوراقها الكثيفة، بدت له كأنّها من رسْم طفلٍ.

فضَّ ثنْيات المنديل مرّةً أُخرى، ونظَّف به يديه كأنّما يستعمل منشفةً.

- أغوستين مينور.

نادى بصوتٍ لم يرفع نبْرته تقريباً.

فُتح باب البيت من الداخل، لكنْ لم يظهر أيّ شخصٍ عند عتبته. توافق الجنود كلّهم في تصويب بنادقهم في ذلك الاتّجاه. بعد ثوانٍ ظهر السيّد أنطونيو مُرتدياً القميص الزاهي الذي أتى له به أغوستين، وداعب الياقة كأنّما يخشى أن تظهر عليها تجعيدات قبل الأوان. خرجت دجاجتان، ووقفتا بجوار قدميه المنتعلتين صندلاً من الخيش، وظلّتا جامدتين على الرصيف بعدما أفزعهما الضوء. لحظ المُقدّم فلوريس أنّ يديه بدأتا في التعرّق مرّةً أُخرى. بدا له أنّ كتفيّ أنطونيو الساقطتين تُعبّران عن التواضع، لكنّه تعرَّف إلى كبرياء الثوّار في ذقنه الصلب.

- «من أنت؟». قال له.

- أنطونيو، أنطونيو مينور.

- قُل: أنطونيو مينور، يا سيّدي.

مكتبة
t.me/t_pdf

- أنطونيو مينور، يا سيّدي.

أحنى المُقدّم رأسه برِضاً، وبدت هناك حركة غير محدّدة في البيت المجاور لبيت أغوستين، لكنّه أدرك أنّ جنوده يقومون بالمراقبة من دون حاجةٍ إلى الالتفات، وشعر بمواسير الجاراند في كلّ عصبٍ في ظهره، بالبصيرة التي لا يُحصَل عليها إلّا بعقدين في المعسكرات.

- لقد أتيت لاصطحاب ابنك.

وأشار إلى قوّاته في تلك اللّحظة -لكنْ من دون أن ينظر إليهم- بحركةٍ غير رسميّةٍ كما يفعل المراهقون عندما يُقدّمون صداقاتهم.

- إنّه غير موجودٍ هنا يا سيّدي.

- أين إذن؟

- لا أعرف يا سيّدي. إن كان في مكانٍ ما، فلا بدّ من أنّه في المعسكر.

تقدّم المُقدّم إلى السور، بجوار السيّد أنطونيو. أخرج المسدّس من حزامه، واستعمل كعبه للدَّق على القرميد الهشّ في الحائط مفتّتاً إيّاه إلى قطعٍ كثيرة.

- «قشّ، مجرّد قشّ». قال.

أعاد السلاح إلى حافظته، وأنزل الأبَ عن درجة السلالم، بينما يقدّم إليه يده بتهذيب ميكانيكيّ، وما إنْ أصبح على الرصيف حتّى أمسك بكوعه ليبدآ مسيرةً بطيئةً حتّى الناصية اليمنى. ضغط قليلاً على ساعده.

- «ابنك لم يحضر إلى المعسكر يوم الاثنين». وأضاف بصوتٍ خفيضٍ، وشبه حزين: «يُقال في الحيّ: إنّه فرَّ من الخدمة».

- لا يمكن يا سيّدي!

من مواقعهم، كان العسكر يتابعون المشية جامدين في أماكنهم، مُتسمرِّين تحت الشمس. من حينٍ إلى آخر، بينما كانت البنادق التي يحملونها تثقل عليهم، كانوا يمرّرون أكمام ستراتهم العسكريّة على جباههم لتجفيف عرقهم. وضع فلوريس شفتيه بالقرب من أذن الأب، وقال بينما يرسم ابتسامةً خفيفةً على وجهه:

- يا عاهر! يُقال في الحي: إنّك من أتباع ساندينو.

- هذا ليس حقيقيّاً يا سيّدي.

- هل تعني أنّني أكذب يا رجُل؟

استرق السيّد أنطونيو النظر إلى الشارع حتّى تاه في الشفافيّة الاستوائيّة للأفق، هذه المرّة توجّب عليه توخّي الحذر فيما سيقوله كما يفعل متسلّق جبالٍ عندما يتحسّس الصخور قبل الصعود عليها.

- ليس حضرتك يا سيّدي المُقدّم، إنّما الناس.

أبعد فلوريس يده عن ساعد الرجُل. رمش طويلاً على بُعد سنتيمترات من جبهة الأب، كأنّما يحفّزه حاجبا الأب المقطّبان، فازدادت سرعة حركاته تحت الضغط، وقاد السيّد أنطونيو بحدّةٍ حتّى عتبة المسْكن، حتّى بدا أنّه يطير به.

- أُدخل وقل للفتى أن يأتي.

لم يتوقّف لتفحّص حيرة الأب. ذهب حتّى السيّارة كأنّه منجذبٌ بمغناطيس، وأدخل ذراعه عبر النافذة المجاورة للمقود، وأطفأ المصابيح، وبعد ذلك ذهب حتّى أقرب عربة جيب، وجلس على مصدّ الصدمات مستنداً بظهره إلى المحرّك. من هناك أشار للرجُل مُشجّعاً إيّاه لكي يدخل من دون تأخير. أومأ الأخير برأسه موافقاً، وعبَّر عن حيرته بينما يختفي

داخل الغرفة. رفع المُقدّم عينيه إلى الشمس، فأخرج المنديل، وقبض عليه كأنّما يصنع منه كرةً، وأدخله مجعّداً في الجيب الذي يعلو صدره.

- «الجوّ حارٌّ إلى درجةٍ تتطلّب زجاجة بيرة، اللعنة!». قال، ثمّ بلّل شفته العليا بلسانه.

وغرس نظرته في الباب.

ظلّ السيّد أنطونيو في الصالة طوال ذلك الوقت؛ حيث كانت العتمة المفاجئة هي الانعكاس الدقيق لحَيرته. مهما تأمّل في الأثاث المألوف، والصور الكالحة، والبقع على الجدران، لم يصله الإلهام. شعرَ بالانجذاب المرضيّ نحو جموده، كما يرتبط المُدمن بمخدّره.

«لا أعرف بمَ أفكّر، ولا أعرف ماذا أفعل، حتّى إنّني لا أعرف إن كنت سأستطيع، وإن كنت قادراً على التحرّك عندما أرغب بهذا». اللعاب الذي تساقط على شفته السفلى نَما في عقله، وشعر أنّه موجودٌ تحت كشّافات إضاءة. «لا أعرف كيف أبدأ بالتفكير. لا أعرف لماذا أجد نفسي هنا. لماذا أنا هنا؟ أعرف فقط أنّني موجودٌ هنا. أنّني لا أتحرّك. يتوجّب عليّ فعل شيءٍ لا أعرفه، لكنّني أظلّ في مكاني». ووسط حيرته رأى سدوداً منيعةً في كلٍّ من الباب المفضي إلى المطبخ، والممرّ المفضي إلى الفناء، والأسوار الخفيضة التي تحيط ببيته.

- ماذا يعطّلك هناك يا رجُل؟

كأنّ الصرخة القادمة من الشارع قد أعادت إليه حركاته وقدرته على التنسيق، فاتّجه حتّى الدولاب، وأزاح فوط المائدة المُطرّزة الموجودة في الدرج الأوّل، وغرس أصابعه حتّى تعثّرت بقاعدة الدرج الخشبيّة، وكعبِ سلاح العائلة المعدنيّ. وضعه بين يديه، وتفحّصه مليّاً بتردّد من ينظر إلى

طائرٍ جريحٍ. عاد لوضعه في الدرج، وألقى الفوط القديمة فوقه، واتّجه مرَّةً أُخرى حتّى وسط الصالة، وظلّ هناك خلال دقيقةٍ أُخرى، بينما ينظر إلى صور عائلته الحبيبة بحنانٍ مثيرٍ مبالغٍ فيه. قام بجهدٍ أخير للتفكير بينما ينظر إلى تلك الوجوه المُصوّرة في حفلات. أصابته نوبة حماقةٍ مفاجئةٌ، فذهب إلى الباب، ووقف تحت إطاره على نحوٍ عدوانيٍّ، وقال أمام جبهة المُقدّم المقطّبة: «لم أجده يا سيّدي».

– «يا رجُل؟». سأله المُقدّم بينما يميل بعنقه ويضغط بأصابعه على أذنه لتصبح على هيئة قوقعة.

تنحنح السيّد أنطونيو ليجلي حَنجرته. على نحوٍ ما، خرجت الكلمات هناك، بالتكرار الرتيب الذي يتسبّب فيه شرخ عندما يُمنع تقدُّم الإبرة على الأسطوانة.

– لم أجده يا سيّدي.

خلع الرجُل العسكريّ قبّعته، ومرَّر سبّابته ببطءٍ على إطارها الداخليّ، وخلال بضع ثوانٍ جعل من واقي القبّعة مروحةً لجبهته، حتّى وضعها على رأسه مرّةً أُخرى بطريقةٍ رسميّةٍ، مُمسكاً طرفيها بأطراف أصابعه. دار على عقبيه بدقّةٍ نظاميّةٍ، واتّجه مباشرةً نحو السيّد أنطونيو، وفي طريقه أغلق بلكمةٍ باب سيّارته الذي كان يسدّ طريقه. وبحركةٍ خفيفةٍ بالكاد يمكن إدراكها من إصبع الخنصر أشار لوالد أغوستين لكي يهبط درجة السلّم، ويقف أمامه في عرض الطريق. أمسك بكوعه مرّةً أُخرى، واستأنف المشي معه، كأنّه غارقٌ في تفكيرٍ عميقٍ. وكلّما وصلا إلى الناصية، استدارا وعادا إلى البيت. كان الرجُل يترك نفسه منقاداً بوجهه الخالي من التعبيرات كأنّه حقيبة.

كأنّ المُقدّم يفكّر بصوتٍ عالٍ فقط، ولا يحذّره، فعرض ما بدا أنّه مُلخّص تفكيره:

- أنا لا أحمل لك أيّة ضغينةٍ. وأحبّ ابنك، ولأنّني أحبّ ابنك فأنا أحبّك أيضاً. في نهاية الأمر يا لعين، أنت أبو ابنك.

وضع إصبعاً على جبهته على نحوٍ مسرحيٍّ، كمن يصوّب فوهة مسدّسٍ على رأسه، وجذب الأب فجأةً من كوعه، مجبراً إيّاه على التوقّف فجأةً! وتأمّل تعبيراته الحركيّة، وقال القائد: «ابنك يمتلك من هذا. هذا أمرٌ طريف. وإن كان ابنك، فأنت أيضاً تمتلك من هذا». وضغط بإصبعه الصغرى على صدغ السيّد أنطونيو، في لعبةٍ سريعةٍ لحركات الأيادي. «وإن كنت تمتلك من هذا، أريد منك أن تبرهن لي على ذلك». دفعه مرّةً أُخرى لصعود السلّم، وقال له بتهذيبٍ، بينما يبتسم، ويغمز له بإحدى عينيه: «ائتِ لي به».

اتّجه المُقدّم نحو عربة الجيب، وضغط على زرّ مكبّر الصوت، وأصدر بياناً:

- انتباه! انتباه شديد! ستجري عمليّة تفتيشٍ على الفور. يجب على سكّان المربّع السكنيّ كلّهم أن يخرجوا من بيوتهم في الحال.

ما إنْ هبطت يده بمكبّر الصوت، حتّى بدأت الأبواب تُفتح بتزامنٍ يذكّر بمراوح اليَد، وسلاسة أكورديون صغير. بلا عَجَلةٍ، كأنّما تظهر العيون أوّلاً، وبعد ذلك تظهر الأجساد، فأخذ أطفالٌ، ونساءٌ، وبعض الشيوخ في الخروج بوقارٍ، وإزاء الشمس المسلّطة تردّدوا بين عقد أذرعهم أمام صدورهم وبين تشبيك أصابعهم على ارتفاع بطونهم. مرَّ المُقدّم أمام الحشد، وهو يدقّ بعدم رضا على فخذه.

- «يا فَجَرة!». قال بينما يسير: «تتركون لنا الشيوخ والأطفال، لكنْ أولاد العاهرة يتبخّرون».

ما إن انتهى من تلك الجملة، حتّى لفتت انتباهه امرأةٌ متينة البدن، بزيٍّ مزهّرٍ، وكانت متصلّبةً في وقفتها بينما تحمل ابنها بين ذراعيها. شعر فلوريس بدقّةٍ بالصدمة التي سبّبتها نظرته في جسد المرأة. كأنّها قد صعقتها بالكهرباء على حين غرّة، ثمّ قَلَبَت جلدها لتكشف عن رعبها الشفّاف. قبضت ذراعاها بقوّةٍ أكبر على ابنها. سار المُقدّم الخطوات التي تفصله عنها، وخلف خطوات المُقدّم امتدّت نظرات الجيران خلسةً. كان الصمت يُثقل على فلوريس؛ مثل كرةٍ في الحلق.

- «ما الخطب يا امرأة؟» قال: «أليس الفتى كبيراً على تدليله إلى هذا الحدّ؟».

انثنى جسد المرأة بغرابةٍ، لتترك تجويفاً إعجازيّاً في صدرها وبطنها، كأنّها تريد إعادة الفتى الكبير إلى أحشائها. أشار فلوريس إلى أرض الشارع آمراً: «اتركيه ليقف على قدميه بمفرده».

- إنّه في الثانية عشرة فقط يا سيّدي القائد.

كانت عيناها راكعتين، ومتضرّعتين، ومتوتّرين مثل قبضتين، وشفتها السفلى جافّة.

- «أربعة عشر، أو خمسة عشر». قال فلوريس نافدَ الصبر بينما يشير إلى الأرض بسبّابته: «اتركيه!».

أنزلته، بينما عيناها تبحثان عن تواطؤٍ بعيد الاحتمال، عن مساعدةٍ، أو تدخّلٍ من أهل المنطقة، الذين كانت رؤوسهم محنيّةً على صدورهم، وهُم يلتزمون الصمت. عندما تركته على أحجار الشارع، ضمّت رأس الطفل

إلى صدرها باندفاعٍ مفاجئٍ، وارتعشت ذراعاها عندما أمسك المُقدّم معصمه ليبعده عنها. ردَّ المُقدّم على التضرّع الصامت بنظرةٍ حاسمةٍ وقاطعةٍ، وأمسك بيد الطفل مثل أبٍ يرافق ابنه في أوّل أيّام المدرسة ليقوده إلى الجدار الأبيض. بعد ذلك أخذ يتراجع حتّى وسط الشارع، وهناك، بين عربات الجيب وجنوده، مسح كامل المشهد بنظرته، كاستراتيجيٍّ في ساحة المعركة، أو مصمّم رقصاتٍ يرفع الستار الذي سيتّقد بالرقص. تفرّقت نظرات أهل الحيّ بين الطفل الجامد أمام الجدار الأبيض تحت الشعارات الساندينيّة التي بدا أنّها تشير إليه بأصابع واشية، وبين غطرسة المُقدّم بأذنه المتنبّهة، بانتظار معجزةٍ تسقط من أسقف البيوت، أو تظهر في المدخل المتواضع الفارغ لبيت السيّد أنطونيو؛ بين هذه الحزمة من الإرادات، كان المُقدّم منتبهاً على نحوٍ خاصٍّ إلى أولئك الذين ينظرون إلى أسقف البيوت في انتظار هبوط ملائكةٍ من الثوّار الساندينيّين بسيوفٍ من النار كما في الرسوم الكنسيّة، بينما كان يداعب شاربه، فشعرَ بعدم وجود أيّ شخصٍ، أو شيء، أو حتّى قطّ فوق أسطح البيوت، وحينئذٍ فقط سار متروّياً حتّى باب بيت أغوستين، فدسّ أنفه في العتمة الحارّة، وقال بصوتٍ خفيض:

- اخرج لبرهةٍ من فضلك يا رجُل.

اتّجه الأب إلى المدخل، وبدا له أنّ عيون أهل الحيّ نيازك تخترق الشمس، وتنفذ حتّى عظامه. كأنّ غبار الشارع يرتفع مُحلِّقاً، وبدا أنّ الغدد اللمفاويّة في حلوقهم جميعاً حبيسة سائلٍ غير قابلٍ للذوبان، في صمتٍ خانقٍ يشبه الفضلات.

- «يبدو أنّك لم تعثر عليه». قال فلوريس بينما يرفع صوته لأوّل مرّةٍ، وهو يتحدَّث إلى الرجُل لكي يسمعه الجيران.

أحنى عنقه المتوتّر مثل كلبٍ صغيرٍ بائس العينين، وغمغم بصوتٍ خفيضٍ، بنبرة صوت شخصٍ مريض:

- خذني أنا يا سيّدي.

- «أنت؟!». صاح بينما يضرب قبضته على راحة يده الأُخرى، وسقط فريسة توتّرٍ قضى بثانيةٍ واحدةٍ على رباطة الجأش الجديرة برتبته: «وماذا يمكنك أن تفعل أنت؟ هل تجيد استعمال التلغراف؟ هل تجيد قيادة مدرّعة؟ هل تستطيع استبدال عجلات سيّارة؟ هل خرجت ذات مرّةٍ من هذه الفضلات حيث تريد أن تدفن ابنك حيّاً؟ أيّ نوعٍ من الآباء أنت؟ أيّ نوعٍ من الآباء أنت أيّها العاهر الكبير؟!».

ارتطمت رفّات عين المُقدّم الصاعقة بوداعة السيّد أنطونيو، وطافت نظرته بين أهل الحيّ، الساكنين مثل طيورٍ جريحةٍ، وسقطت رؤوسهم تحت وطأة ثقلها كـأنّها شموعٌ يُطفئها بأنفاسه.

- وأنتم أيّها السادة، لنْ نهدي نيكاراغوا لكم، قبل أن يصل الثوّار الساندينيّون إلى هنا؛ سأقوم بنفسي بقصف مدينة ليون حتّى لا تتبقّى ذبابة، أو نبتة عشب.

ظلّ ساكناً لبرهةٍ في انتظار ردٍّ، وبعد ذلك رفع نظرته إلى السحابة الوحيدة الجامدة في السماء. قطّب حاجبيه بغير رضا، وفكّر: «هذا الحرّ يُصيب بعطشٍ شديد».

- «أنا أُقدِّرك يا رجُل». صاح بالسيّد أنطونيو، من دون أن ينظر إليه، وأشهر سبّابته المتوتّرة مُشيراً إلى الطفل، وشعر بخوف الناس مثل ومضةٍ. بعدما لبسته الحالة الجديدة، اتّجه بسرعةٍ إلى الطفل، وأمسك بقفاه ليرفع رأسه، ثمّ أداره نحو الأب، ليعرضه كأنّه شيء. على الرغم من المسافة

الكبيرة التي تفصلهما، اجتهد في النطق ليحدّثه مُصدراً مقاطع منفصلة تقريباً:

- لكنْ لا يهمّني أمر هذا العاهر في أيّ شيء.

دفع الفتى نحو الجدار، وعاد بخطى واثقةٍ، ليقف وسط الشارع تماماً، مُحاطاً بالترسانة التي يحملها رجاله، ثمّ صاح:

- هل سمعت يا رجُل؟

في تلك اللّحظة ظهر أغوستين في حلق الباب، وكان صدره عارياً، والقبّعة العسكريّة تبدو غير نظيفةٍ، وساقطةً على حاجبيه، وكان يقبض على السترة بيده، ويجرجرها على الأرض. نظر إلى القائد بتعبيرٍ محايدٍ، وتجاهل التوتّر المخيّم على الجيران، وارتدى السترة، وأغلق الأزرار باستثناء زرّ العنق، بينما جعلت الشمس الغبار مرئيّاً ليبدو أكبر حجماً، والزيت المتسرّب من عربات الجيب على أحجار الشارع يبدو أكثر سواداً وبريقاً، وبعد ذلك اتّجه إلى رئيسه بينما يُمرجح جسده بطريقةٍ عجيبةٍ، كأنّما بدا أطول، وأثقل وزناً، فمدَّ فلوريس ذارعه على مسافة مترٍ، ولمعت مجموعة مفاتيح السيّارة المطليّة بالكروم بين الإبهام والسبّابة في وضعٍ عموديٍّ موازٍ لجسده. قام بهزّها قليلاً، وعندما سلبه أغوستين إيّاها، من دون تهذيبٍ، أو عنفٍ، أشار بفكّه نحو السيّارة، ونظر إلى ظهر الفتى المرن بينما ينحني ليشغل المقعد الأماميّ. عندما دار المحرّك، ابتسم المُقدّم ابتسامةً خفيفةً للأب، وبعد ذلك بسط مودّته لبقيّة أهل الحيّ. لمس حافّة القبّعة العسكريّة بأناقةٍ، وقال لهم:

- هكذا أحبّ أن تسير الأمور؛ أن نتفاهم بكلماتٍ طيّبة.

- 13 -

رمشت عينا ساعي البريد، وغاص رأسه في الوسادة الرطبة، وبعد ذلك احتفظ بعينيه مفتوحتين متوتّراً. ظلّ يسمع الصمت الذي تزداد وطأته بحظر التجوّل، غير قادرٍ على تمييز إن كان الصوتُ نهايةَ حلمٍ أم سبب يقظته بالفعل.

- «ساليناس!». أصرّت الصيحة الخافتة.

وصل إلى الباب بقفزةٍ واحدةٍ، ووضع أذنه على الخشب القديم.

- «من؟». قال بصوتٍ خفيضٍ للغاية.

- أنا يا رجُل.

- أنت؟

- افتح، اللعنة!

- ألا تعلم أنّ هناك حظر تجوّل؟

في مكانٍ قريبٍ، ربّما على بُعد مربّعٍ سكنيٍّ، بدأت قعقعة ثقيلة لعربة، الضجيج المعتاد لدبّابات شيرمان على الشوارع المرصوفة بالأحجار.

فتح الباب بسرعة، وكان ملتصقاً بصفحته كصورةٍ مرسومةٍ عليه. دخل

إغناثيو وتخلّص من لفافةٍ بإلقائها على الفراش. على ضوء الممرّ الشاحب، دعا ساليناس لإغلاق الباب من دون صخب.

لم يجعله ساعي البريد يكرّر الأمر، وبمبادرةٍ خاصّةٍ منه أغلق المزلاج بدورتين.

- أنت تعرف أنّهم يبحثون عنك، أليس كذلك؟

- نعم.

- تعرف ما يقولون عنك، أليس كذلك؟

- «لقد وصلت في الحال يا رجُل». كان إغناثيو يلهث، ويضع يده على صدره ليثبّت قلبه: «لست مُستعدّاً لمقدّمات».

- يقولون: إنّك من قام بتفجير عربة الجيب العسكريّة.

- هل يقولون هذا؟

- نعم.

- وهل تصدّق هذا؟

أراد استشفاف تعبير وجه الفتى في عتمة اللّيل الحُلميّة قبل الردّ عليه، كأنّه في حاجةٍ إلى قراءة الإجابة عن ذلك السؤال في وجه من نطقه. مرَّ بكُمّ المنامة على أنفه، وركّز انتباهه على دبّابة شيرمان التي تبتعد.

بعد ذلك لم يعرف ماذا يفعل بالصمت الذي ابتدأه بنفسه، وبإلهامٍ مفاجئٍ وضع زجاجة عرق قصب السكّر في يديّ الفتى. شرب إغناثيو رشفةً، واحتفل بتأثيرها المهدّئ بتنهيدةٍ. ذهب ساليناس حتّى المكتب، وأمسك قلماً مكسور الطرف، وأخذ يبريه بموس جيليت بتركيزٍ شديدٍ، بينما كان يُبدي هوساً بالغبار الدقيق للرصاص الذي يتساقط على ورقةٍ بيضاء.

- فيمَ يمكنني مساعدتك إذنْ؟

ضغط إغناثيو بكعب حذائه الأيمن على الأيسر ليخلعه، وبقدمه العارية، غاص بإصبعٍ في حذاء القدم الأُخرى وخلعه أيضاً. كان ساليناس منتبهاً إلى هذه الحركات كأنّه يجب أن يفكّ رموزها. قال غير مُصدّقٍ:

- هل تفكّر في البقاء هنا؟!

هزَّ الفتى كتفيه، وأشار بالإبهام إلى ظهره.

- الدبّابة شيرمان قريبة، أليس كذلك؟

- لا يمكنك البقاء هنا؛ لقد جاؤوا وسألوا عنك.

- وماذا قلت لهم؟

- «يقولون: إنّك فجَّرت الجيب العسكريّة». صمتَ لبرهةٍ، وتابع بالنبرة ذاتها: «مات ثلاثة».

من دون أن يتأثّر، أخذ الفتى يجذب الجورب في قدمه اليمنى ليخلعه.

أغلق ساليناس أزرار المنامة، كأنّه سيخرج إلى الشارع لاستقبال شخصٍ ما.

- يقولون: إنّ القسّ كان يخفيك.

- ليومٍ واحدٍ فقط.

- وإنّك ذهبت إلى تشينياديجا.

- أنا قادمٌ من هناك.

حرَّك إغناثيو أصابع قدميه العشرة، وخبط عقبيه، كأنّما ليخرجهما من حالة خدر.

ذهب ساليناس حتّى الباب، وهزَّه قليلاً ليتحقّق من إغلاقه جيّداً، ثمّ قال:

- مكتب المحامي ريباس في الباب المقابل.

- أتيت لأطلب إليه معروفاً.

- لا يمكنك البقاء هنا.

- حسناً، هذا كان المعروف الثاني، ورددتُ بالنفي.

- والأوّل أيضاً.

- إذنْ، شكراً لمساهمتك البطوليّة في الكفاح ضدّ الديكتاتوريّة.

- إنْ قتلوك، على الأقلّ سيطلقون اسمك على أحد الشوارع.

- من أين أتيت بهذا؟

- من الواضح أنّ الغرور قد تملّك منك.

- أبله!

- وإن أعدموني رمياً بالرصاص، فسيقول الناس كلّهم: «سالیناس المسكين، لم يفعل أيّ شيءٍ طوال حياته».

- إنّك تفعل شيئاً الآن.

- نعم، لكنْ من يعرف هذا؟

- إن كنت تريد أن يصبح هذا علنيّاً، فستعرف البلدة كلّها غداً.

- لا، شكراً.

استمتع إغناثيو بزمزمة سالیناس مديراً ظهره إلى القمر، وأمتعته رشفة أُخرى من عرق قصب السكّر، كأنّه مشروبٌ فاخر.

- «الرسالة تلك...». قال ساعي البريد من دون أن يستدير: «لقد قمت بتسليمها».

- لقد أخبروني بهذا.

- «من؟!». صاح باندفاع.

هزَّ إغناثيو كتفيه، وقال:

- عصفور.

أخفض ساليناس نظرته، وذهب إلى الفراش لكي يسوّي البطانيّة على نحوٍ عشوائيّ.

- وفيكي؟ ألم تقل أيّ شيء؟

- بلى، قالت لي شيئاً ما.

استمتع كثيراً بحالة الترقّب التي خلقها. تحسّس ساليناس جيوبه بحدّة.

- «عمَّ تبحث؟». سأله إغناثيو.

- «ماذا؟». قال له ساليناس بينما ما زال يعبث بيديه.

- أسألك عمّ تبحث، إن كنت تبحث عن السجائر يجب أن أخبرك أنّك لن تعثر عليها؛ لأنّك ترتدي منامة.

خبط ساليناس على جبهته، وذهب إلى المقعد، فأخرج العلبة، ووضع سيجارة في يد إغناثيو وأخرى في فمه. بعدما أشعل لفافتيّ التبغ كلتيهما، جذب المقعد قُرب الفتى.

- احكِ.

- ماذا؟

- ما قالت لك.

- «من؟». قال إغناثيو مستمتعاً.

- فيكي.

- متى؟

توقَّف سالیناس عن ملاحقة تراشق العبارات، وظلّ صامتاً خلال نصف دقيقة، وعندما انتهت بدا عليه الحزن، وقال:

- أنت لست صديقي.

ربّت إغناثيو على فخذه.

- «أُنظر إليّ». قال له.

طلقةٌ واحدةٌ اخترقت الليلة مثل شهابٍ. كان ردّ فعل سالیناس الوحيد هو رفع إحدى عينيه بينما يرتعش حاجبه بريبة.

- سأخبرك بما قالت فيكي.

- تكلَّم.

- قالت لي: عندما ترى سالیناس، قل له: شكراً من جانبي.

- شكراً؟

- شكراً.

- ماذا قالت بخلاف هذا؟

- قالت لي: «إن رأيت سالیناس، قل له: إنّه الآن، بعدما أصبح مع الفتيان، فأنا أجده أكثر جاذبيّةً ولُطفاً».

غطّى سالیناس وجهه بيديه من دون أن يسمح ببصيص نورٍ بالنفاذ.

- ماذا بك؟

- «لا شيء يا رجُل». قال ساعي البريد بينما يضحك خلف أصابعه المتوتّرة: «لقد تخضّب وجهي حمرةً».

- 14 -

في أوّل يومٍ، بيديه المعقودتين خلف قفاه، اعتقد أنّه يستمتع بالحبس، بعدما أفلت من الصرخات التي تسوط الجنود بالدم، واللحم، وأصحاب الأفكار الساندينيّة؛ كان يسمع دبيب خطوات الجنود الآخرين فوق رأسه، وعندما يتمدّد على اللوح الخشبيّ من البلّوط، الذي يستعمله كفراشٍ، كان يصل إلى قناعةٍ مفادها أنّ تقشّف الخبز والماء أفضل من التدريبات الشاقّة التي تنتهي بركلات الرقيب ثيفوينتس في الضلوع لدى أوّل بادرة وَهن.

في أول ليلة، وبعدما نام ساعةً واحدةً، أمسك إبريق الماء، ورفعه بلهفةٍ، وأمكنه أن يبلّل شفتيه بالنقطة الأخيرة. بعد عشر دقائق، لم يعد العطش شعوراً جسديّاً، بلْ يأساً. لم يستطع النوم بعد ذلك. جلس على اللوح الخشبيّ، ولامست ركبتاه الجدار تقريباً، حيث كان يبدو أنّ ذلك الفراش قد أُدخل في تلك المساحة الضئيلة ضغطاً، وظلّ منتظراً خلال ساعاتٍ أن يأتي إليه نداء الخامسة صباحاً بالسجّان مع استيقاظ الكتيبة، لكنْ كان يبدو أنّ الساعات لا تتقدّم، والعتمة الصامتة لا تُبدّل نبرتها على الإطلاق، فلحظ بعد وقتٍ أنّ قلبه يتقافز من دون نظام. وضع يداً ليغطّيه، وإزاء الانهيار العشوائيّ لجسده لم يعد قادراً على التنفّس تقريباً. رفع عنقه

إلى الشبّاك البعيد لاهثاً، وأراد الصراخ للتنبيه إلى أنّه يختنق، لكنْ مجرّد فكرة ظهور ثيفوينتس في سرواله الداخليّ، وسؤاله عن ابن العاهرة الذي أيقظه، جعلته يتراجع. كانت العيادة مُغلقةً في تلك الساعة، وسيقولون بالطبع: إنّ نبضات القلب المتسارعة أمرٌ يحصل للفتيات فقط. براحتَيْ يده على صدره، منتبهاً إلى النخزات كلّها، والانتفاضات الكهربائيّة، لم يكن قادراً على التفكير في أيّ شيء، أو رؤية فكرةٍ واحدةٍ فقط في صحراء عقله. انطلق النفير عندما كان موشكاً على النوم. بعد نصف ساعةٍ، مرّروا له عبر كوة الباب الحديديّ إبريقاً آخر، وخبزاً طازجاً، وكوب حليبٍ دافئ. السجّان الذي جاء له بالطعام لم يقل أيّ شيء. وأغوستين بدوره لم يوجّه إليه أيّ سؤال. شرب كثيراً، وتنفّس عميقاً مرّاتٍ عديدة حتّى شعر أنّ هواجس الليلة الفائتة كانت عابرةً. قبل أن يُميل الإبريق لتناول الرشفة الثانية، أوقف اندفاعته، وبالكاد تناول مقدار إصبعين مقرّراً الاحتفاظ بالبقيّة للّيل.

في أثناء اليوم، عندما أصبحت الرطوبة لزجةً وخانقةً، استدعى -بشيءٍ من الحنين، ثمّ بشيءٍ من الحسد- تدريبات زملائه التي ستنتهي بحمّامٍ باردٍ، وعشاءٍ وفير. أمكنه النوم في منتصف النهار. لم يشهد النوم تقلّبات. عندما استيقظ كان الوقت ليلاً، فسمع أصوات طلقات رصاص متباعدة في الأنحاء المجاورة للمدرسة. بعد عشر دقائق ازدادت وتيرتها حتّى أصبحت معركةً بمعاني الكلمة كلّها. وقف فوق الفراش، وأراد تخمين إن كان تبادل إطلاق النيران يعود إلى هجومٍ مفاجئٍ عارضٍ من الثوّار الساندينيّين على المعسكر أم الجوع والحبس تحت الفناء جعلاه يخطئ في تقدير الأبعاد والمسافات. وصل إلى قناعةٍ مفادها أنّ المعركة لا علاقة لها بالاستيلاء على مقرّ مدرسة المشاة، فبخلاف هذا كان المُقدّم فلوريس وثيفوينتس

قد أمرا بتشغيل مدافع بونتو 30 المثبّتة على كلّ دشمةٍ وساترٍ في المعسكر، وكانت ارتجاجاتها مألوفةً له منذ كانت المظاريف تلامس وجنتيه في أثناء التدريبات. بينما كان يداعب خشب الفراش، فكّر بما سيحدث له إن استولى الثوّار الساندينيّون على المعسكر، كما فعلوا في مدن أُخرى كثيرة في البلاد. ماذا سيقول لهم؟ بالفعل، يمكنه أن يحكي لهم الحقيقة، لكنّ الغضب من وحشيّة الحرس الوطنيّ لن يخفت أمام بضع كلماتٍ أكثر، أو أقلّ، وبلا شكّ، كان صبره في الزنزانة لصالحه. إن طلبوا إليه أسماءً للتحقق منها، يمكنه أن يعطي اسم إغناثيو. رآه للمرّة الأخيرة مختبئاً خلف ستارة المذبح، وعلى الرغم من عدم تبادلهما لأيّ حوارٍ، فقد نجح في كتم السرّ، لكن قبل ساعة، في الشارع، ألم يبتعد عن طريقه بحزمٍ وبغضبٍ عندما رآه يصل إلى البلدة بالزيّ الرسميّ؟

هل يطلب شهادة أهل الحيّ كلّهم؟ كلّهم رأوا كيف اختطفه المُقدّم فلوريس، لكنّ أفواه الناس أكبر من أفواه الأسماك، وذاكراتهم أضعف من ذاكرة الأسماك؛ بالطبع لن يتذكّروا سوى أنّه خرج من الحيّ بينما يقود سيّارة المُقدّم بنفسه.

في الفجر، جعله الجوع يلصق أذنه على الباب الصغير، كما لو أنّ نفادَ صبرِه طُعمٌ سيجذب الحارس. بعد نصف ساعةٍ فقط سمع الخطوات في الصدى المعدنيّ للممرّ. عندما أدرك أنّ معصمه يرتعش فوق المزلاج، حاول تثبيته بوضع يده اليسرى فوقه، لكنْ من دون أن يفلح في هذا. عندما أُدخل المفتاح، تراجع إلى الفراش بقفزةٍ واحدةٍ، وارتطم ظهره بالجدار.

عندما رأى المفاتيح متدلّيةً من يد ثيفوينتس بدلاً من السجّان، تملّكت منه بصيرةٌ مفاجئةٌ، كحيوانٍ مُحاصرٍ. عطر ما بعد الحلاقة القادم من الرقيب ابتلع الروائح الأُخرى على الفور.

- ارتدِ ملابسك.

تراجع إلى حلق الباب ليترك للفتى مكاناً ليرتدي بنطاله، وبينما كان يرفع سحّاب البنطال، صوَّب الرقيب المفتاح على عنقه، وضغط على حنجرته جاعلاً رأس أغوستين يرتطم بالجدار. لم يستطع ابتلاع لعابه، وشقَّ عليه التنفس. قال ثيفوينتس بصوتٍ محايدٍ، من دون أن يخفّف من ضغط اليد التي تطبق عليه، مُضفياً أهميّةً على الحنق أكثر من محتوى الكلمات:

- لديّ رغبةٌ كبيرةٌ بضربك يا فتى.

رفع الفتى يديه إلى عنقه، وأمسك بمعصم الرقيب في محاولةٍ لإبعاده، لكنّ ساعد ثيفوينتس، الذي يؤدّي خمسين حركة ضغطٍ مع الجنود كلّ صباحٍ، كان جذعَ شجرةٍ صلباً للغاية، ولم يخفّف ضغطه إلّا عندما لحظ أنّ الفتى يختنق. ظلّ ساكناً لبرهةٍ حتّى انتظم تنفّس أغوستين، وحينئذٍ فقط مدَّ إليه سترة الزيّ الرسميّ، وقال له بصوتٍ هامسٍ تقريباً:

- لديّ رغبةٌ كبيرةٌ بضربك يا فتى.

أخذ أغوستين يرتدي السترة ببطءٍ، وكان منتبهاً إلى قبضتي ثيفوينتس المضمومتين اللتين قد تنفلت منهما ضربةٌ في أيّة لحظة.

انتهى من غلق الأزرار، وانتظر الأمر الجديد، ورأسه محنيّ.

بسط ثيفوينتس أصابعه، ثمّ ضمّها كأنّ شدّاً عضليّاً مفاجئاً يمنع سريان الدم في قبضتيه.

- يومٌ واحدٌ بعد في الزنزانة، وتخرج. هل تعرف كم من الوقت أمضى هنا آخر شخص فعل ما فعلته؟

- لا يا سيّدي.

- لم يخرج من هنا، هل تفهم ماذا أعني؟

- نعم يا سيّدي.

- لم يكن الطفل الذي ينفّذ طلبات المُقدّم.

في لحظةٍ واحدةٍ، تخيَّل أغوستين ما حدث؛ أمر فلوريس بإخراجه من الزنزانة، لا يمكن للأمر أن يكون بصورةٍ أُخرى. شعر أنّ الغضب يعود إلى صدغيه جنباً إلى جنب مع التفكير العقلانيّ. فجأةً! استمتع بعالم الهِبات الذي ينفتح أمامه في تلك اللحظة، إن كان قد أصاب في تشخيصه. حمَّل الطرف الأيسر من شفته العليا بالسخرية، ونظر بثباتٍ إلى عينيْ ثيفوينتس بينما يقول:

- «يجب أن تفهم إذنْ أنّ المهامّ الخاصّة التي يكلّفني بها المُقدّم تُعدّ جزءاً من الخدمة». وضع يداً على عنقه، وحكَّ الجلد: «لقد آلمني كثيراً ما فعلته بالمفتاح».

مدَّ ثيفوينتس فكَّه، ووضع إبهامه عدّة مرّاتٍ بخشونةٍ على أنفه، كأنّه يستحضر الكلمات التي لم تعد تسعفه في تلك اللّحظة.

- «لديّ رغبةٌ كبيرةٌ بضربك يا فتى». قال في النهاية: «تذكَّر هذا».

خرج أغوستين من الزنزانة من دون انتظار أمر الرقيب، وأخذ يسير في الممرّ ببطء.

- 15 -

تلقّت كبرى النساء المُعمّرات في البلدة معلومةً سريّةً من القسّ بأنّهم سيأتون لاصطحابها بالسيّارة في السادسة صباحاً. أجابت بأنّها قادرةٌ على تولّي أمر نفسها، حمداً للربّ، وأنّها تستطيع الذهاب على قدميها. طلب إليها القسّ أن تصلّي، وألّا تواصل الكلام في الهاتف في تلك الساعات المتأخّرة من الليل احتراماً للربّ. قالت كبرى النساء المُعمّرات في البلدة: «على أيّة حال، لا يمكنني النوم؛ هناك تبادلٌ كثيرٌ للرصاص على الناصية». قال القس: «إلى اللقاء في السادسة يا سيّدة روسا». ثمّ وضع السمّاعة، وفرك يده عليها كأنّه يريد مسح بصماته.

قبل خمس دقائق من الموعد كانت فيكي قد طلت طرف لسانها بقلم طلاء الشفاه، وأخذت ترسم خطّاً أحمر تحت أجفان آماليا. وبعد ستّ دقائق، بعد ثلاثين ثانية من المرور السريع لدرّاجة الخبّاز ثلاثيّة العجلات، رأى أنطونيو أبواب البيوت في المنطقة تُفتح بالتزامن مع خطى زوجته وابنته، وكيف بدأت العجائز في اتّباعهنّ على بُعد مسافةٍ بدت له قصيرةً، لكنْ حذرة. قال لنفسه: «اجتماعٌ أم مسيرةٌ دينيّة؟».

عندما دارتا في الناصية، رأت فيكي وأمها كبرى النساء المُعمرات

في البلدة منحنية على عصاها ذي المقبض المصنوع من الصدف، ألقت عليهما تحيّةً ماكرةً أكثر منها حذرةً.

- «القسّ سيحملني في سيّارة». همست بابتسامةٍ طفوليّة.

لم تحتج المرأتان إلى الالتفات كي تعرفا أنّ العربة المقصودة تعود إلى الرجُل الذي يجوب البلدة ليعلن من دون تمييزٍ عن الوفَيات، والجنازات، والتعميد، والزفاف، وبرنامج السينما، التي وُضعت تحت تصرّف القسّ، ليقوم بنفسه بقيادتها في تلك اللّحظة، لتتقافز العربة خلف ظهره، بينما يعاني بسبب آليّاتها العنيدة.

بعد أن تقدّمتا قليلاً، لكزت آماليا ابنتها فيكتوريا بكوعها. كانت امرأةٌ تسير بمفردها وتتقدّمهما بأمتارٍ، ترتدي تنّورةً زرقاء، وقبّعةً من الريش الأزرق تغرقها في ظلٍّ. خمنتا أنّها ماريا مولينا.

أسرعتا الخطى، وعندما أصبحتا بجانبها قالت لها أمّ أغوستين من دون التوقّف عن السير:

- أنتِ أيضاً يا سيّدة؟

- نعم.

- لكنْ لا أبناء لكِ؟

- كأنّ لديّ أبناء.

فصل بينهنّ إيقاع الخطى، ووضعت فيكي ذراعها على كتفيْ أمّها عندما رأتا الحافلة القويّة تصل في موعدها، بينما تدور في الناصية الأخيرة. صعدت النساء من دون كلامٍ، وتبادلن التحيّات من دون مبالغةٍ، وبدت عليهنّ الجديّة. لم يجرِ التعليق على تبادل إطلاق النار المتفرّق، سواء بحُكم العادة أم الرزانة، أو التجاهل. سبقت سيّارة الأب بدرو الحافلة

بالمهابة الجديرة بعربةٍ احتفاليّةٍ، وكانت هذه هي الإشارة التي جعلت الحافلة تتحرّك. أخرجت كبرى النساء المُعمّرات في البلدة يدها وأنفها لتأتي بحركاتٍ استفزازيّة.

كان الرقيب ثيفوينتس يقضم شطيرةً من شرائح الخنزير الغارقة في الزبد عندما جاء أكثر الحراس شباباً لإبلاغه باقتراب مجموعةٍ من النساء من المعسكر. قبل أن يطلب المزيد من التفاصيل، صاح الرقيب آمراً حرّاس أبراج المراقبة باتّخاذ مواقعهم خلف مدافع بونتو 30 ومتابعة المجموعة. وبسرعةٍ غير متناسبةٍ مع ضخامة جسده، صعد حتّى ممرّ الدور الثاني، ودخل مكتب المُقدّم فلوريس من دون الطرْق على الباب. خرج الرجُلان العسكريّان إلى الممرّ. اتّكأ المُقدّم على الحاجز بكوعيه، ووجّه المنظار المقرّب إلى المنحدر الذي تتقدّم عليه النساء، بينما يقتربن من بعضهنّ ليصنعْنَ كتلةً مدمجةً، كأنّ الاقتراب من المعسكر يجبر كلّ واحدةٍ منهنّ على الانصهار في الحشْد.

ابتلع ثيفوينتس القضمة الأخيرة من الشطيرة، وبعدما نظّف فمه المحلوق بعنايةٍ بكُمّ سترته، قال:

- «اليد السوداء» قام بعمليّات سطوٍ مرتدياً ملابس نسائيّة.

كانت بؤرة العدسة تنتقل على وجوه السيّدات واحدةً تلو الأُخرى. فجأةً! أصبح الشارع خاوياً، وأشعّة الشمس في الساعات الأولى تنعكس مباشرةً على العدسة. غيَّر الاتّجاه، وتفحصَّ مواقع أبراج المراقبة. غمغم القائد:

- لم يسقط المطر منذ ثلاثة أيّام.

وعاد بالعدسة إلى الأمّهات، بعدما ضغط على جفنه الأيمن، فارتسم

تعبيرٌ ساخرٌ على وجهه عندما أمكنه تمييز القسّ متوسّطاً النساء كنواةٍ يتحلّقن حولها. سأل الرقيبُ:

- بِمَ تفكّر يا سيّدي المُقدّم؟

- «لهذه الحرب جبهات كثيرة». قال بينما يحاول استشفاف موقف القسّ من ملامحه: «أُفضّلُ حرباً أكثر مباشرةً ووضوحاً، حرباً حيث يمكن للمرء أن يعرف بدقّةٍ الردَّ الذي يجب أن يقوم به على كلّ هجوم».

ارتسم الاحتقار على وجه الرقيب الذي قال:

- هل تصف جلسة النميمة التي تجمع هؤلاء النساء بالهجوم؟

قال فلوريس لنفسه: «سيكون هذا فعلا مازوشيّاً، لكنّني أريد رؤية وجه هذا الأبله عندما يفكّر».

ترك المنظار المُقرّب يسقط على بطنه، وبوجهٍ حازمٍ نظر إلى جبهة مرؤوسه ورأسه الحليق الخشن.

- ما رأيك أنت؟

- أنا يا سيّدي المُقدّم؟

لكنّ النساء كنّ قد بلغْن البوّابات الحديديّة، ومثل الطلّاب في مظاهرةٍ في الشارع أخذن ترديد الشعارات بصوتٍ خفيضٍ وبطيءٍ في البداية، وبعد ذلك بصوتٍ عالٍ وسريع:

«نريد أبناءنا،

أحياءً وليس أمواتاً».

شرد فلوريس ببصره خلال ثانيةٍ نحو عنابر الجنود، وأمكنه رؤية تفاصيل ملامحهم بجباههم الغائصة في النوافذ.

- ثيفوينتس؟

- سيّدي المُقدّم؟

أُطلب «الموقع رقم 2»، وقل لهم: ألّا يلمسوا النساء حتّى ولو كان ببتلة وردة. في نهاية الأمر هنّ أمّهات هؤلاء الملاعين.

- نعم يا سيّدي.

- ومُرْهُم أيضاً بما يلي: إنْ عبرَ أيّ رجُلٍ الشارع، فلْيسقطوه من دون طلب التأكيد على ذلك.

نظر إلى السماء، وبدا له عدد الطيور غير معهودٍ. قال لنفسه: «الكثير من الطيور».

فتح الحرّاسُ البابَ قليلاً، وشعرت الأمّهات أنّهنّ يخضعن للفحص، ويعبُرن واحدةً تلو الأُخرى أمام عدسة القائد، الذي كان يبدو أنّه يُعيد نصال الشمس مضاعفةً إليهنّ من موقعه المرتفع، وحاولن إعادة التجمّع على بُعد بضعة أمتارٍ. تشابكت أذرعهنّ بينما يُحِطْن بأمّ أغوستين، بتنانيرهم المتلاصقة، من دون أن يبادر القسّ لإخراجهنّ من حالة التوتّر. بدا أنّه أيضاً يلوذ بهنّ، والخوف ككرةٍ تتقافز مرتطمةً بهم من دون أن يجرؤ أحدهم على إيقافها. في النهاية، كيلا يطيل برهة التوقّف التي أوشكت أن تكون مثيرةً للسخرية، أحاط كتفيْ أكبر النساء المُعمّرات في البلدة، وتقدَّم بخطىً وقور. ابتسم فلوريس وفكّر: «الشهيد». بينما كانوا يتقدَّمون، استأنفت آماليا الهتاف بقوّةٍ وتوتّر:

«نريد أبناءنا،

أحياءً وليس أمواتاً».

فكّر المُقدّم بينما يحاول الاستعانة بملامح جنوده في ذاكرته للتكهّن بأمّ كلٍّ منهم: «إن كنتنّ تحبّونهم إلى هذا الحدّ، كان يجب أن تعملن على

ألّا يكونوا أيتاماً». أخذ الهتاف في الخفوت حتّى لم يعد هناك سوى صوت كعوب أحذية النساء في احتكاكها ببلاط الفناء. خلع المُقدّم المنظارَ المُكبّر بهدوءٍ، وقطع المسافة حتّى السلّم، ونزل بلا عَجَلةٍ، متوقّفاً على كلّ درجة تقريباً. عندما أصبح على الأرض، وقف ثيفوينتس خلفه منتفخ الأوداج.

- حسناً، أنا المُقدّم فلوريس، في خدمتكم.

لم تنظر إليه النساء. بدأت كبرى النساء المُعمّرات في البلدة بتحريك قطع سبْحتها بأظافرها. بحث المُقدّم عن نظرة القسّ، لكنْ بالكاد نظر إليه هذا مباشرةً، ورأسه منحنٍ قليلاً، كطفلٍ نادمٍ على ارتكابه شقاوةً، ثمّ أخفضها بوجهه المُخضّب بالحُمرة.

- ثمّ ماذا؟ هل تكلّفتنّ مشقّة المجيء إلى هنا لتبقَيْنَ صامتاتٍ هكذا؟

بدأ في السير جيئةً وذهاباً أمام المجموعة، كاشفاً عن صبره غير النهائيّ، وتوقّف أمام أمّ أغوستين، وتفحّصها لبرهةٍ، من دون الشكّ في نجاح استنتاجاته.

- إذنْ؟

ثبّتت الأم نظرتها على حذائها، لكنّها ركّزت طاقتها كلّها في القبض على معصم فيكي، وبدا لها أنّ قلب ابنتها ينبض بين أصابعها. كانت ماريا مولينا هي من تكلّمت:

- نريد أبناءنا.

فاتّجه إليها، ويداه معقودتان خلف ظهره، وفحص عينيها من دون أن يسمح لنفسه بوضع أيّ تعبيرٍ على وجهه؛ الهدوء بحدٍّ أقصى.

- إنْ كان الأمر يتعلّق بهذا، أنا أيضاً أحبّ أبنائي. أخبروني بماذا أستطيع مساعدتكنّ؟

انطلقت كبرى النساء المُعمّرات متّكئةً على عصاها، واتّجهت إليه مندفعةً مثل القاطرة. قبل التحدّث إليه، بحثت عن دعم المجموعة، لكنْ بدا أنّ أجفان الأمّهات لا ترمش. قالت في النهاية بحزمٍ:

- فقط أُترك أولادنا يخرجون.

أتى فلوريس بتعبيرٍ عن الدهشة، ولم يردَّ على العجوز فقط، إنّما على المجموعة كلّها، منتقلاً من وجهٍ إلى وجه.

- «سيّداتي». حاول أن تكون ابتسامته لطيفةً: «هذا معسكرٌ، وليس مدرسةً داخليّةً للفتيات؛ حيث يمكن الخروج والدخول وقتما يريد المرء».

- «سيّدي المُقدّم». قال القسّ: «إنّهنّ لم يرينَ أبناءهنّ منذ ثلاثة شهور. لا يعرفْن إنْ كانوا هنا». وأخفض صوته: «بل إن كانوا على قيد الحياة».

بدا أنّ المجموعة كلّها تتحدّث في الوقت ذاته فجأةً! وتابع ثيفوينتس وفلوريس الصيحات كأنّهما يلاحقان الكُرة في مباراة تنس.

- «حسناً». قال بشيءٍ من السخرية: «ما حدث في المرّة الأخيرة؛ عندما خرج الأولاد، أنّ بعضهم تصرّفوا بشيءٍ من عدم المسؤوليّة. قال الكثيرون: إنّهم يعانون أوجاعاً في البطن، وقال آخرون: إنّهم سيبقون في البيت. قالوا: إنّهم سيلزمون الفراش، أليس كذلك؟».

قبل أن تتحدّث فيكتوريا، استبقتها الأمّ عندما رأت أنّها تسعل قبل أن تتكلّم:

- أولادنا لم يُخلقوا لهذا يا سيّدي.

- إلامَ تشيرين يا سيّدتي؟

- لم يُخلقوا لكي يموتوا هكذا.

تمهَّل المُقدّم قبل أن يقول كلماته التالية:

- لا توجد أيّة أمٍّ ترغب برؤية أبنائها موتى، لكنْ هناك أمّ، وهي أمّ للأمّهات كلّهنّ، وهذه هي نيكاراغوا؛ أولادكنّ موجودون هنا للدفاع عنها.

- «ممّن يا سيدي؟». صرخت ماريا مولينا، بينما ترفع رأسها بكبرياء تحت القبّعة العريضة.

- «من الأعداء». تجرّأ ثيفوينتس على الكلام: «من الشيوعيّين».

تجاهلت أمّ أغوستين إجابة الرقيب، وحاصرت المُقدّم بسؤالها:

- ممّن يا سيّدي؟

خلع فلوريس قبّعته، ووضعها أمام وجهه، وأخذ يهوّي بها بحركاتٍ حادّةٍ من المعصم. هذه المرّة منحَ للصمت وظيفة إنهاء الحوار، لكنْ حينئذٍ صاحت كبرى النساء المُعمّرات في البلدة بالهتاف بصوتٍ ضعيفٍ ومحشرج:

«نريد أبناءنا،

أحياء وليس أمواتاً».

وبينما ينظر بتركيزٍ إلى طرف حذائه الذي قام جنديّ المراسلة بتلميعه، انتظر المُقدّم خفوت الهتافات، وتراجُع الغمغمة بعد ذلك. حينئذٍ قال:

- سيّداتي العزيزات، لا أهدف إلى تصويبكنّ، لكنْ يبدو لي أنّكنّ في الحقيقة تردن الهتاف بما يلي: «نريد ساندينو، حيّاً وليس ميّتاً».

وضع القبّعة على رأسه بأداءٍ مسرحيٍّ. دار على عقبيه، وأخذ يصعد السلالم من دون النظر إلى الخلف. أرادت كبرى النساء المُعمّرات في البلدة الاقتراب منه، لكنّ ثيفوينتس منعها. حينئذٍ انفصلت فيكي عن بقيّة المجموعة، كان شريانها الوداجي منتفخاً، وقبل أن يتصرف الرقيب صاحت من الدرجة الأولى للسلّم:

- أيّها المُقدّم!

برزت نضارة ذلك الصوت النقيّ وسط أصوات المجموعة. تغلّب الفضول على الضجر، وألقى فلوريس نظرته على الفتاة من درجة السلّم الأخيرة. وسهى جنود برج الحراسة أيضاً خلال ثانية. فكّر المُقدّم بينما يداعب شاربه: «أيّ حربٍ أُخرى، أيّ حرب، لكنْ ليس هذه». أوحت الفتاة بأنّها ستواصل الصعود، لكنّ فلوريس أشار لها بالتوقّف عند الدرجة الثانية.

- وأمٌّ من تكونين؟

- أتيت من أجل أخي.

- من الأفضل أن يكون حيّاً هنا في الداخل عوضاً عن أن يكون ميّتاً في الخارج.

- حيٌّ أيها المُقدّم؟ لكنْ إلى متى؟

- «أيّتها السيّدات». وسّع فلوريس دائرة المتلقّين لكلماته، ونزل درجةً: «لنتكلّم جديّاً: أبناؤكنّ جنودٌ، وليسوا أطفالاً رُضّع. إن كانوا هنا في الداخل، فلأنّهم رغبوا بهذا».

لم تدرك فيكي أنّها تجاهلت الأمر عندما كانت تتقدّم إلى أعلى بينما تردُّ. وذهب ثيفوينتس حتّى قاعدة السلّم.

- لقد أتيتم بهم إلى هنا مخدوعين؛ قلتم لهم: إنّهم سيدرسون، والآن تخرجونهم لكي يُقتلوا في الشوارع.

- إنّها ظروفٌ طارئة، لكنْ في الظروف العاديّة لم تأتِ أيٌّ منكنّ للشكوى هنا. عندما لم نكن في هذه الحرب اللعينة، كنتنّ فرحات؛ لأنّنا

نطعم أولادكنّ حتّى الانتفاخ. كم شخصاً في نيكاراغوا يتمتّع بهذه الميزة؟ هل أنتم قادرون على إطعامهم حتّى التخمة؟

تقدّمت أم أغوستين إلى مكان فيكي، وسارت النساء معها.

- لأنّ أزواجنا عاطلون من العمل.

- لأنّهم لا يعملون؛ لأنّهم طُردوا من العمل.

- «أيّتها السيّدات، أنا رجُلٌ عسكريٌّ، ولست الرئيس!». صاح فلوريس: «يمكنني إطعام أولادكنّ، ويمكنني تعليم أولادكنّ، ويمكنني أن أجعل من أولادكنّ رجالاً، لكنّني لا أمتلك السُّلطة لحلّ مشكلات الناس كلّهم. اِفهمْنني! ولا تخلطن بين اللّطف والضعف، انتهى الكلام. ها هو الباب؛ اذهبن من فضلكنّ».

أطلق ثيفوينتس الصافرة، وجاء الجنود ركضاً من البوّابة حتّى المجموعة. ضغط القسّ على كوع الأمّ، وهمس لها:

- لنذهب.

من موقعه في ممرّ الدور العُلويّ، أشار المُقدّم بحسمٍ بإصبعه لتنفيذ الإخلاء.

- «أيّها المُقدّم!». صاحت فيكي.

عندما رأت أنّه يتجاهلها، قفزت درجات السلّم، والتهمت الممرّ، حتّى أمسكت بذراعيه. جعلته يستدير، فأصابته بالغضب الشديد بهذه اللّمسة البسيطة. تقاطعت النظرات، حانقةً، ومتنافرةً، ولاذعة، ومن دون كلمات. جعلت الفتاة من جسدها رئةً، وملأته بالأعصاب والمعادن عندما جاء ثيفوينتس ليمسك بكفّها. كانت مختنقةً تقريباً، لكنّها حاولت تثبيت نظرتها على فلوريس بينما تقول له:

- أُفضّل أن يموت أخي كهاربٍ من الخدمة على موته كابن عاهرة.

على نحوٍ ما كان صوت فيكي هو أكثر الأصوات حدّةً في ذلك الصباح اللعين، وطفر توتّر أعصاب فلوريس على جلده.

- أنتِ وقحةٌ وبلهاء! تأتين للكلام في السياسة في المعسكرات.

بعد بضع دقائق فقط، بينما يتناول الكأس الثاني، سيشعر بالأسف؛ لأنّه ضرب على ظهر ثيفوينتس بقبضته، وهو يصرخ به: «أدخلها الزنزانة!».

حاولت النساء الاقتراب من السلّم، وإنقاذها من الرقيب، لكنّ الحرّاس كانوا قد شكّلوا تشكيلاً تكتيكيّاً، وبالأسلحة مضمومة كأنّها سور، قاموا بدفعهنّ حتّى بوّابة المعسكر بدقّة آلة. تعثّر بعضهنّ، ولتشابك سيقانهنّ تأخّرن في النهوض. دفعهنّ الجنود بأطراف البنادق، بحذرٍ أكثر من الطاعة. لكنْ عندما حاول القسّ حماية السيّدة آماليا، ومنعها من السقوط، دفعوه للتراجع عن هذا بضرباتٍ مُعتبرة من كعوب البنادق. قال له أحدهم: «أنت رجُلٌ يا مثلي». لم تعد الأمّ ترى ابنتها وسط غبار الصراع. ذات مرّةٍ اعتقدت أنّها ستغرق عندما أسقطتها موجةٌ في بونيلويا على الشاطئ، لكنْ عندما وجدت نفسها حيّةً على الرمال الساخنة، صَلَّت كلّ مقطعٍ من «أبانا الذي» بورعٍ شديدٍ، من دون أن تعرف أيّة قوّةٍ دفعتها حتّى هناك، فغرست جبهتها بين قضبان البوّابة، وصَلَّت: فيكي، فيكي، فيكي، فيكي، حتّى أغمي عليها بين ذراعيّ الأب بدرو.

- 16 -

حدَثَ شيءٌ رائعٌ، ولا يُصدّق، وخارقٌ، وإعجازيٌّ، واستثنائيٌّ، وباهرٌ، وهائلٌ، وعظيمٌ، وراقٍ، ومعجزٌ، ومهمٌّ، وخطِرٌ، وكبير؛ سأعود إلى البيت!

سيرسلونني إلى ليون، وسأكون معك بعد أسبوعٍ كحدٍّ أقصى، وسأعجبك يا فيكتوريا مينور، وعندما تريني بلحيتي التي تبلغ كيلومترات طولاً، الكثيفة، والغابيّة، والمتاهيّة، والكثّة، والمتراكمة، والهائلة، والاستوائيّة، والأبويّة، والمتشعّبة، والطافية، والوحشيّة، والبريّة، والمتوتّرة. سترجينني أن أُقبّلكِ، وفي وسط هذا البحر من الشعر، سيخرج لسانٌ كالنمر باحثاً عن شفتيكِ، وبلعابي الصاخب سأبلّل لثتك الصباحيّة، وأسنانك الصغيرة الرائعة. أحبّكِ كلّ يومٍ أكثر. كلّ يومٍ يزداد شوقي تجاهك، وحبّي وعشقي لكِ، وكلّ يومٍ أكبرُ لكي أصبح على مستوى الظروف. ولكي أحمل حبّي لك، أصبحت هائلَ الحجم مثل الفيل، لكنْ خفيفاً أيضاً مثل عصفور.

اِفرحي يا بطّة، فغداً سأذبحكِ.

اللّعنة يا فيكي، سأعود إلى البيت!

سيرحل سوموثا. ماذا تفعل هذه الكلمة في رسالتي؟ سيرحل، ولا

يعرف أيّ شخصٍ ماذا سيحدث بعد ذلك. ربّما يضعون شخصاً ما من العائلة لبعض الوقت. مهما حدث، لن نتوقّف عن القتال، وقريباً ستسقط ماناجوا. كلّنا متّفقون على عدم التفاوض مع سوموثا وحاشيته، ولا مع الأمريكان. شروطنا تتلخّص في كلمتين: كلّ شيء، أو لا شيء.

مات الكثير من الرفاق. بعضهم أصغر منّي عمراً. فتيانٌ في الخامسة عشرة. عندما كنّا نهجم، كانوا يأتون وسط إطلاق الرصاص ليخبرونا إنّهم يرغبون بالانضمام إلى الجبهة. كنّا نصدّهم قائلين: إنّنا لا نمتلك سلاحاً لإعطائهم. قال أحدهم: «لا يهمّ، سآخذ سلاح أوّل جنديٍّ يسقط». هكذا سار الأمر في جرانادا وماسايا: كلّ فردٍ خلفه شخصٌ آخر، مثل رجُلٍ وظلّه. جيشنا يتزايد بطريقةٍ سحريّةٍ، ويتضاعف ويتضاعف كلّ يومٍ، وكلّ ساعة، وخلال بضعة أيّامٍ ستصبح نيكاراغوا كلّها مع الثورة الساندينيّة باستثناء الحرس الوطنيّ.

ما أخبار ليون؟

أسألك لكي تعرفي ما أريد معرفته كلّه عندما نلتقي. هاكِ قائمة الأسئلة:

1) إنْ رأيتني في الشارع فجأةً، هل ستتعرّفين إليّ؟
2) ما لون لحيتي بعدما نمت؟
3) هل ستتضاجع في يوم لقائنا؟
4) أين؟
5) إن لم يوافق أبوك، هل ستطيعينه أم ستعصين؟

الآن أتكلّم جادّاً: كيف حال أبيك؟ هل ظلّ عاطلاً من العمل طوال الوقت؟ وأخوكِ، هل ما زال مصاباً بأوهام العظمة؟ لقد أخبروني أنّه التحق بمدرسة المشاة، لكنْ لا يمكنني تصديق هذا، خاصّةً أنّني أعرف

السيّد أنطونيو. على أيّة حال، يجب أن تقولي له أنْ يفرّ من الخدمة، وأن يذهب للاختباء في مكانٍ ما. هل تعرفين؟ بعد النصر لن يكون هناك من يدافع عنه، خاصّةً القسّيسين. يقول القادة: إنّنا عندما ننتصر -ونحن نحقّق الانتصارات الآن- لن يُعدَم أيُّ شخصٍ، وأنّ نيكاراغوا يجب أن تكون نظيفةً وشفّافةً مثل الماء، ويقولون: إنّ الكثيرين قد قُتلوا بالفعل؛ إنّها الأشياء التي يقولونها، لكنّني لا أعرف كيف ستكون الأمور بعد ذلك، فالكثير منّا رأوا أشياء جسيمةً. نتذكّر الكثير من زبانية التعذيب والمجرمين بأسمائهم وألقابهم، بل إنّنا نعرف العلامات المميزة، وشامات الحُسن في وجوههم. يقول القادة: إنّ هؤلاء سيكونون أوّل من يرحل. يقولون: إنّهم سيذهبون إلى هندوراس، أو غواتيمالا، أو ميامي. ومن سيبقون هنا هُم من كانوا يمسحون الأرض. من سيقولون بعد ذلك: نحن كنّا ننفّذ الأوامر فقط. يقولون: إنّ هذه الحكاية معروفة، وهو الأمر ذاته الذي حدث في ألمانيا. أحاول الاسترخاء أيضاً، عندما يكون كلّ شيءٍ هادئاً. منذ عامٍ أنام على أصوات إطلاق النار، والقنابل، والطائرات الاستطلاعيّة. وقبل ثلاثة شهور نمت على فراشٍ لآخر مرّة، ومن أربعة.... نقطة وسطر جديد.

يا إلهي! نعم، سأذهب إلى ليون!

لا تفزعي عندما تريني.

لا يجب أن تحبّيني إن لم تشعري بهذا. لا تعتقدي أنّني سأضغط عليكِ، أو أنّني سأتباهى بين فتيان البلدة؛ لأنّني فعلت ما فعلت، ومررت بهذا كلّه.

أقول هذا بمنتهى المسؤوليّة، والنضج، والصداقة: إنْ أحببتني، فهذا رائعٌ، وممتازٌ، وبديع. وإن لم تحبّيني، سأقتل نفسي!

في الحقيقة، لم أعد قادراً على الكتابة أكثر من هذا.

حسناً يا فيكي، سأصل قريباً.

مهما حدث، سواء كنت عطشاً أم جائعاً، فإنّ أهمّ شيءٍ هو أنّني أحبّك.

أُقبّلكِ بكلّ قوّة.

ليونيل

- 17 -

بدأ المطر في ساعة القيلولة، من دون ضجيجٍ مُسبق. لم تكن هناك رصاصةٌ واحدةٌ في الجبل، والجنود يتجوّلون في الشارع، وشعورهم منتصبة. وبدا أنّ عربات الجيب تتحسّس بعجلاتها كلّ سنتيمتر في الشوارع. كان المطر يسقط غزيراً من حينٍ إلى آخر، وخفيفاً في بعض الأوقات. في الأحوال كلّها كان الحرّ قاسياً. الأسمر الذي يعمل في محطّة البنزين وضع المروحة فوق وجنتيه كأنّها ماكينة حلاقةٍ كهربائيّة. كان ناعساً تقريباً في كشكه عندما رأى عربة الإطفاء لدى وصولها، كجوهرةٍ تحت المطر، ثمّ وقفت بجوار خزّان البنزين. تعرَّف إلى شارب بلوتاركو المدبّب أمام المقود، لكنّ ساليناس هو من نزل عن عربة الإطفاء، واتّجه إليه بينما يهزّ الحقيبة الجلديّة كأنّه مصابٌ بالحصبة. عندما دخل الكشك، وقف عامل محطّة البنزين، وانتهز تغيير الوضع إلى وضع المروحة الصغيرة داخل قميصه القطنيّ لتهوية صدره.

- «أيّ تطوّر يا سوبليميه؟». صاح: «بدَّلت الدرّاجة ثلاثيّة العجلات بعربة الإطفاء».

- أوّلاً: لا تنادِني سوبليميه؛ اسمي ساليناس، ببساطة ساليناس.

- حسناً يا رجُل، حسناً.

- وثانياً: توقّف عن المزاح؛ لأنّ الأمر جاد.

نظر عامل محطّة البنزين إلى الحقيبة بطرف عينه.

- هل هي رسالة متعلّقة بموت شخصٍ ما؟

- لم آتِ بصفتي ساعي بريد.

فحص ساليناس الفتى، كملاكمٍ يدرس نقاط ضعف خصمه في أثناء الجولة الأولى. شعر الآخر بالفحص الذي يخضع له، وتوقّف عن التنفّس. حينئذٍ كان ممكناً سماع سقوط المطر بوضوح، بينما كان ساليناس يحكّ الوخز في عظام كتفه. كرّر في النهاية:

- لم آتِ بصفتي ساعي بريد.

غرس الفتى نظرته في عربة الإطفاء، ثمّ حوّلها بسرعةٍ إلى عيني ساليناس.

- ما الخطب؟

أراد ساليناس أن يبدو طبيعيّاً، لكنْ عندما فتح شفتيه شعر بالحاجة إلى السعال. قال بعد تنظيف حنجرته الذي استغرق وقتاً طويلاً:

- أتيت بصفتي «رفيقاً».

حمل الشابّ إبهامه الأيمن إلى أسنانه، وبدأ يعضّ على الظفر. بعد ذلك أمسك بحدّةٍ قطعة نسيجٍ من فوق طاولة المحاسب، وأخذ يمسح الطاولة بحميّة.

- لا علاقة لي بالسياسة.

-لا يجب أن تتورّط في أيّ أمر. يجب أن تساعد فقط.

-لا أريد المساعدة.

- سأخبرك بم يتعلّق الأمر.

- لن أسمع.

- هذا أسوأ؛ لأنّك إن لم ترغب بالاستماع الآن، ستندم بعد ذلك.

- علامَ سأندم؟

- على أنّك لم تساعد.

-لا أريد المساعدة.

- يجب أن تساعد؛ لأنّه لا يوجد حلّ آخر.

- لا.

- لا ماذا؟

- لا.

بسط ساليناس القميص الرماديّ الممتلئ بالعرق، وبحركةٍ واحدةٍ قبض على معصم الفتى ليمنعه من مواصلة مسح الزجاج.

- لا يمكن أن ترفض شيئاً لا تعرفه.

حاول عامل محطّة البنزين التخلّص من الضغط، لكنّه وجد قوّةً غير معهودةٍ في أصابع ساعي البريد. وتأكّد من هذا في نظرته، وصرامة ذقنه.

أخذ ساليناس يخفّف من قبضته شيئاً فشيئاً، وبعدما سحب يده رأى علاماتٍ داكنةً في معصم الآخر. وباليد ذاتها ربّت بطريقةٍ أخويّةٍ على المكان المَأذيّ.

- نريد أن تذهب الآن حتّى عربة الإطفاء، فتملأها بالبنزين.

خفّف الفتى من ألم الكدمة بعدما بلّل أصابعه باللعاب.

- وما «المساعدة»؟

- أن تملأ البنزين في خزّان المياه.

- ماذا ستفعلون؟

- ليس لأنّنا لا نرغب بإخبارك بما سنفعل، لكنْ من الأفضل لك ألّا تعرفه.

- لماذا؟

- إنّه أمرٌ خطِر.

- إن لم تخبرني، لن أفعل هذا.

- إن لم تفعل، سأضطرّ إلى اختطافك.

- ماذا؟

- سآخذك من هنا، وأحتفظ بك في مكانٍ ما حتّى ينتهي كلّ شيء.

- حتّى ينتهي ماذا؟

- لقد قلت لك: من الأفضل لك ألّا تعرف.

- كيف ستخطفني؟

- بإقناعك بكلمات حسنة.

- وإن خطفتموني، إلى أين ستحملونني؟

- إلى مركز الإطفاء.

قرَّب الفتى عينيه من الزجاج، وحاول التأكّد من وجود الشخص الذي يظنّه في العربة.

- هل هو بلوتاركو؟

- نعم، لكنْ لا تخبر أيّ شخص.

- ماذا ستفعلون؟

- سنحرق مقرّ القيادة.

- كيف؟

- سنطلق عليه البنزين بالخرطوم...

- ... بدلاً من الماء.

- بالضبط.

- وكيف سترشّون مقرّ القيادة؟ هل ستقولون: إنّكم تسقونه؟

أسند الفتى جبهته إلى الزجاج، وترك العرق يختلط برطوبة النافذة. وهكذا ظلّ مستغرقاً في النظر إلى هيكل عربة الإطفاء الباهرة. المطر المستمرّ كان نغمةً محتضنةً لشروده، حتّى أعادته يد ساليناس على كتفه.

- بمَ تفكّر؟

- توجد أربع محطّات بنزين في الحيّ، ويخطر على بالك أن تأتي إلى حيث يعمل الأسمر.

- إن كان الفتيان قد اختاروك، فلأنّ لهذا ما يسوّغه، أليس كذلك؟

أمال الفتى عنقه، وفحص ساليناس من أسفل ببطءٍ، كالزئبق عندما يصعد في الترمومتر، وأخذ يملأ عينيه السوداوين بالبريق حتّى بدتا كحبّتي عنبٍ ناضجتين مغروستين في قلب المطر.

- هل هذا حقيقيٌّ يا ساليناس؟

- حقيقيّ.

ذهب حتّى المشجب؛ حيث كان معطفه الواقي من المطر، والممتلئ بالشحوم، فوضعه، ثمّ أغلق بضعة أزرارٍ، وتوَّج شعره الأشعث بقبّعة شركة تيكساكو. سأل:

- متى؟

- عندما يقرّر الفتيان؛ ربّما غداً، وربّما بعد غد.

خرج الفتى إلى الأسفلت الذي يفصله عن عربة الإطفاء، وأشار برأسه إلى بلوتاركو. راقب الأخير المنطقة الفارغة تماماً، بسبب المطر، أو القيلولة، أو بسبب الاستعدادات للهجوم النهائيّ. وبقفزةٍ واحدةٍ أدار مقبض خزّان الماء. عندما أصبح عامل محطّة البنزين بجواره، وركّب خرطوم الوقود بدقّة جرّاحٍ، ضغط على كتفه بمودّة. كانت اللترات تتزايد في العدّاد بسرعة الكوردوباس ذاتها، حتّى تجاوزت المئة.

وضع بلوتاركو يده في جيب البنطال، وأخرج رزمةً من الأوراق الماليّة الصغيرة، التي بدت ثروةً في يديه الصغيرتين الرقيقتين.

- بكم أدين لك؟

نظر عامل محطّة البنزين إلى العدّاد من دون اكتراث، وهزّ كتفيه.

- لا شيء..

- «أنت مجنون!». قال له بلوتاركو، بينما يمدّ له الرزمة كمن يغرس إبرة: «إنّه عملك».

تأمّل الشابُّ المبلغ الماليّ في يد رجُل الإطفاء، فأبعد واقي المطر عن عينيه بيديه، وقال بصوت مراهقٍ طرب ورفيع:

- لا شيء يا رجُل. بما أنّنا سنبلّل أقدامنا، فلنبلّل مؤخّراتنا أيضاً.

مكتبة
t.me/t_pdf

- 18 -

انفجرت العاصفة، وسقط المطر كالأحجار في فناء المعسكر. أطلّ الرقيب ثيفوينتس بقفاه منتظراً أن يخفّف الماء من أثر الحرّ المثير للسُّهاد. شرب ثُلث زجاجة الويسكي برشفةٍ واحدةٍ، بينما كان يمسح شعره الغزير القصير بالفوطة النظاميّة الخشنة. قرب منتصف الليل، كان عنبر الجنود قد غرق في الصمت تحت أثر تلك الجوِّالات الممتلئة بالرمال. بينما كانوا يجرون في عز الشمس، كان يستمتع بقيلولةٍ قصيرةٍ، لكنها كانت رطبة. كانت الخطة قد اختمرت وسط هذه المُلاء وتسببت في حمّى لدى التوغل في تفاصيلها. درس وجوه جنوده التي حرّقتها الشمس في ساعة الطعام، وكان راضياً عن نهمهم لتناول البيرة المثلّجة التي طلبها بنفسه. ذاك مثالٌ كبيرٌ للفتيان. لحظاتٌ من المتعة بعد العقاب. سياسة العصا والجزرة، تعلَّمها في بنما: تعامل مع جنودك بالحلوى في يد، والملح في يد. اطحنهم ركلاً، لكنْ ادعُهم لتناول مشروبٍ في اللّيل. هؤلاء الهنود كلّهم من السكّان الأصليّين يريدون أباً؛ فامنحهم ما يريدون. وضع أغوستين الكوب على شفتيه. أراد ثيفوينتس المقارنة بين ملامحه وملامح أخته، لكنْ عندما تقاطعت النظرات أخفض عينيه إلى اللّحم المشويّ والأرزّ. أخذ ينقر

الحبّات، حتّى قرّر أنّه لا يريد تناول الطعام. على الأقلّ هذا. عاد إلى استراق النظر إلى أغوستين بطرف عينه؛ الفتى بعينيه الغائصتين، وأنفه المرح، الذي لا يتوقّف عن الحركة، وتلك الابتسامة المرتسمة على أسنانه، يمكنه أن يظلّ لخدمة المُقدّم فلوريس حصراً؛ أن يكون فتاه الذي يقوم بالمشاوير، وكاتبه، وماسح جوخه، وماسح حذائه، وسائقه، أو المنديل الذي يمسح به دموعه، لكنّ الأخت، بهذا الشعر الغزير، وهذين النهدين اللّذين كانا ينتفضان، وهي تعوي في الفناء، ستكون مِلك شخصٍ آخر؛ هذا الفم خُلق لكي يلعَق، ويُقبِّل، ويمصّ، وليس كي يهتف بالترّهات الثوريّة الساندينيّة. من فمها حتّى مؤخّرتها ستكون لهذا الخادم. لهذا الصدر النيكاراغوي المعروف بكلّ فخرٍ باسْم ماريو ثيفوينتس. أبٌ جيّدٌ، لكنّه أيضاً ذكرٌ في خدمتك. وأنتِ أيضاً ستكونين في خدمتي. يقولون: إنّ المرء لا يجب أن ينظر إلى أسنان الحصان الذي يحصل عليه كهديّة. وإنّ الفرصة تأتي عاريةً دائماً. والأفضل إن كانت مُهرةً، مُهرةً شابّةً عاريةً. من دون الجلد الصلب للحيوانات، لكنْ بذلك البريق في العانة... اللعنة! والوميض في العينين الثائرتين الوقحتين. يا حبيبتي، الرقيب ثيفوينتس سيطفئ هاتين العينين المتمرّدتين مثل الشموع في عيد ميلاد. كعكة كبيرة، متعة كبيرة. سأقول لها بينما أعضّ ثدييها: «لا تنظري». عرض كبير هذه اللّيلة يا بلهاء! صوت محيطٍ، وصورةٌ سينمائيّةٌ ثلاثيّةٌ، وأنا الممثّل والمشاهد في هذا الفيلم؛ حيث ستستمتعين، وأنا سأطأُكِ بتلك النيران التي تخرج من مسامي، وتنبثق من جسمي هنا، وتنمو، وتجعل عضوي صلباً كالخشب بين فخذيّ. الحياة العسكريّة شاقّةٌ، لكنّها تنضوي على المكافآت. وأنتِ يا حبّي، لن تكوني بلهاء لتلمسي نفسك بمفردك في الزنزانة بينما يوجد تحت إمرتكِ رجُلٌ عسكريٌّ ذو رتبةٍ؛ شريطين وثلاث ميداليّات، بل ويمكن أن يرسلك إلى

بيتكِ بينما تحملين مالاً. وربّما تعودين مرّةً أُخرى يا فتاة بقدميك الشهيّتين سعياً وراء المزيد من خادمك. المزيد من المال، والمزيد من الوطْء.

ذهب إلى الغرفة من دون أن يحمي نفسه من المطر. أمسك بزجاجة الويسكي، وأفرغها من ثلث آخر تحت كريّات الجليد المتساقطة والبرق. بينما كان يتجرّعها، ترك نفسه يبتلّ بتلك النقاط اللزجة الرخيصة، ومسح وجهه بها. بخطى مرحة، وعلى الرغم من أنها أخذت تفقد الزخم مع اقترابه من القبو، وصل إلى زنزانة العقاب.

بدا له أنّ تنفّسه قد أصيب بعدوى العاصفة. وعندما توقّف، لاحقه صدى خطواته على الممرّ الجرانيتيّ. تكوّنت بركةٌ صغيرةٌ تحت قدميه، فأدخل يداً بين الحزام وجلده، وظلّ يعبث حتى أصبح عضوه في وضعٍ مريحٍ داخل السروال الداخليّ. بعد ذلك فحص حزمة المفاتيح بالأصابع ذاتها، ثمّ أدخل المفتاح المناسب في القفل. انفتح المزلاج مع الدورة الثانية، ودخل ثيفوينتس مُداهماً كما يفعلون لدى اقتحام البيوت. كان جسد فيكي مجرّد كتلةٍ مكوّمةٍ على رأس الفراش في العتمة. عندما ضغط على مفتاح النور، أضيء مصباح التحقيقات على الرغم من الغبار، وجثث يرقات العثّ التي تغطّيه. وضعت الفتاة ذراعها على بُعد سنتيمترات من جبهتها لتحمي نفسها من الوميض المفاجئ، وتعرَّفت إلى الرجُل الذي جاء بها جرّاً إلى الزنزانة.

أحسّ ثيفوينتس كما لو أنّ مشهد حلمه، مشهد فيلمه، قد سُلب منه. لم يُنبئه خياله بخشونة الفراش، فلم يرغب في تصوير تلك المرأة اللائذة بالجدار كيتيمة. بدا أنّها تريد أن تنصهر في الحائط، أن تصبح جزءاً منه. اللعنة! لا علاقة لهذه المرأة بالأنثى ذات الردفين المثيرين للدوار التي

أثارتني عندما امتلأت أصابعي برائحتها بينما كنت أجرجرها. وبنظرةٍ شرّيرةٍ، بحث في عنقها عن ذلك الوريد الذي كهربه قبل ذلك. الشريان الذي كان يرفع النهدين تحت الملابس القطنيّة. قال لها:

- انتصف اللّيل، وأنتِ لم تشعلي النور.

بعدما اعتادت الضوء، أخفضت الذراع الذي تقيها، ووضعتها ببطءٍ على كتفها الأيمن.

- كيف تريد أن أعرف إن كان الوقت نهاراً أم ليلاً؟

ابتسم الرقيب، بينما يتحقّق من طبيعة الزنزانة المُصمتة، من دون شبّاكٍ، أو كوة؛ خزانة أموالٍ ممتازة. جزيرة نائية للغاية يا فتاتي؛ حيث نوجد أنا وأنتِ بمفردنا. سفينة متمايلة في الكاريبي، بقبطانٍ ساخنٍ، وأنتِ البحّار الوحيد. أدار ثيفوينتس المفتاح في القفل، وبعدما وقف تحت الأنبوب الوحيد الضئيل الذي يلقي بخيط الهواء الضروريّ للبقاء على قيد الحياة، خلع المفتاح من الباب، ووضعه بين جسده والحزام كأنّه مسدّس. قال مبتسماً:

- لقد أتيت لزيارتك.

وضع الزجاجة المفتوحة على الفراش، ودعا فيكي بإشارةٍ لكي تشرب. تجاهلت الدعوة، وركّزت نظرتها على جفنيّ الرجُل العسكريّ المنتفخين كأكياس النقود؛ إذْ كان يبدو أنّ تعبيرات جسده كلّها موجودة هناك. حاولت التراجع أكثر إلى الجدار، وأدركت أنّه لم يعد هناك مكان. جلس الرجُل وسط الفراش من دون أن يمكنها منع تلامس طرفي قدميها بنسيج بنطاله. شرب جرعةً أُخرى صغيرةً، وبعد ذلك ظلّ ساكناً تماماً حتّى شعر أنّ الويسكي يتسلّق عموده الفقريّ، مُطلقاً شرراً. تلقّى نعمة

هذه الرعشة بانتفاضةٍ من جسده، في تقليدٍ للكلاب المبتلّة على الشاطئ، وصدر عنه عواءٌ خشن. فتح أزرار القميص بينما ينهض. عندما أصبح صدره عارياً، هزّ القميص المبتلّ، كأنّه يهوّيه. وضع إحدى قدميه بحذرٍ على الفراش، مُجرّباً قدرته على التحمُّل، وحينئذٍ فقط صعد تماماً كي يلفّ القميص العسكريّ المبتلّ حول اللمبة، وربطه بالكُمّين إلى السلك. وعلَّق قائلاً:

- هكذا أكثر حميميّة.

وضع قدميه على الأرض الإسمنتيّة مرّةً أُخرى بقفزةٍ واحدةٍ، وتراجع إلى الجدار ليُقيِّم المشهد الرائع! غمز لها بعينه كأنّه يقول: «المرء يفعل ما باستطاعته». وحينئذٍ، وضع بطنه على بُعد سنتيمترات من وجه الفتاة. قبض على صدغيها، ودفع رأسها إلى الأمام في محاولةٍ لكي يلمس فمها ما بين قدميه.

- «لقد أتيت لأرافقك». كرّر بصوتٍ متوتّرٍ على نحوٍ مفاجئٍ، وتعثّر في صدره قبل شفتيه.

- «اتركني!». صرخت به فيكي بالنبرة ذاتها التي استخدمتها في أوقات الغروب في سوبيتابا عندما نجحت في التصدّي لمحاولات إنزالها على ركبتيها أمام أكثر أعضاء رجال حرب العصابات وقاحةً، عندما كانت الثورة تتخبّط في قرى نيكاراغوا، ولم تكن هناك انتصاراتٌ عسكريّةٌ بعد، أو هجومٌ على السجون، أو استيلاءٌ على البرلمان، إنّما منشورات تافهة، ومذابحُ أمام الجدران الإسمنتيّة، والإلقاء بفلّاحين من طائرات هيلوكوبتر إلى البحر، ورفاق ينزفون على ناصية المخزن بهذه الذخيرة الصغيرة للغاية التي كانت تتسبّب في تلك الثقوب التي ينفذ منها الموت. كانت

الجملة التي لا تتبدّل في حفلات التكريم السريّة في المدرسة الثانويّة هي: «لم يمت». لكنّها رأت الموتى على ناصية المخزن. ضغطت راحة يد ثيفوينتس الحديديّة رأسَها على البنطال، وترك آهةً تصدر عنه. حاولت الفتاة التخلّص منه، لكنّ ثيفوينتس لم يتأخّر في ضرب رأسها بالحائط. أخفض البنطال والسروال الداخلي معاً على بُعد خطوةٍ، وترك عضوه على بُعد بضعة سنتيمترات من شفتيها، كان صلباً مُبتلّاً في طرفه. رفعت الفتاة قبضتها اليسرى وغرستها بين أسنانها. اكتشفت المفتاح بجوار الملابس الملقاة على الأرض؛ حيث كان الوصول إليه ممكناً. بالكاد لمس ثيفوينتس اليدَ التي تحمي فمها، وقال:

- من الأفضل ألّا تقاومي.

أنزلت فيكي الذراع التي تحميها بلا عَجَلةٍ، وانتهزت هَوس الرجُل بتقريب عضوه من شفتيها، وارتمت على الأرض لتخطف المفتاح. تعثّرت قدما الرقيب بملابسه التي أنزلها من قبل، ولم يستطع الإمساك بها إلّا عندما كان المفتاح داخل القفل. صهر نهديها من فوق البلوزة، بينما يلهث فوق حلمتها اليسرى.

- أنتِ عنيدةٌ متوحّشةٌ إذنْ!

صعدت يداه من النهدين حتّى حنجرتها بالضغط الذي بدا خفيفاً لثيفوينتس وبدا للفتاة خانقاً. ثبّتها هكذا خلال برهةٍ، حتّى ارتخت أصابع فيكي تحت تأثير غياب الوعي، وبالكاد كانت أظافرها غير الحادّة قد خدشت جلده. أطلقها ثيفوينتس وألقى بها على الفراش، متداعيةً ومهترئةً مثل الملاءة. فاهتزّ سلك المصباح في أثناء الصراع القصير، وظلّ يتماوج فوق جسديهما. عاد ثيفوينتس إلى عرض نفسه على الفتاة. أمالت فيكي

وجهها إلى الحائط، وضمّت ركبتيها عندما بدأت يد الرقيب في تحسّس فخذيها. غرس أصابعه بين مفاصل فيكي، وهزم مقاومتها مثل سبَّاحٍ سريعٍ. عندما مدَّت الفتاة أظافرها في محاولةٍ لجرح وجنته، ضربها على صدغها الأيمن ضربةً كالرفسة. ارتطم رأس فيكي بالحائط، وعندما رغبت بالبكاء وجدت أنّ حلقها ممتلئٌ بالدموع. في المحاولة الثانية اعتقدت أنّ هذا هو ما يسبق الموت: حشرجة اختناق توديع الأشياء الجميلة فيْ العالم، وانبثاق الدم، وسريان النزيف، والطبقة الرقيقة من الملح على شفتها المشقوقة. كانت في كافيتريا الجامعة تراجع محاضرةً في الفيزياء، وكان هناك طالبان يعزفان معاً: «أنت المجد» على جيتارين معدنيّين ينطلق منهما الشرر بمجرّد الضغط على أوتارهما، وكانت تبتسم أمام روعة الحظّ الذي أهدى لها أغنيتها المُفضّلة لخوسيه أنطونيو مينديث في لحظةٍ من المتعة البعيدة، وكان أبوها يدندن بها على نحوٍ سيّئٍ، وهو يستحمّ، ومدينة ليون متّقدة في ظلال الأشجار. كانت عائدةً من الجامعة، وهناك أفنية، وصرخات، والشرطة تحمل العصي والأسلحة، والمثقاب في مقعد التدريبات، والذهب الدقيق على الصينيّة مع مرايا مُعلّمها العجوز (عندما أموت سترثين هذا كلّه)، هذا غريب! وفي نهاية الأمر ستموت قبله، والخطاب الافتتاحي لعميد الكليّة بينما يصرخ: «سندافع بأرواحنا عن استقلال الجامعة»، والعبارات التهديديّة اللزجة للسياسيّين الذين كانوا يرسلون فرق الحرس الوطنيّ لمهاجمة الاجتماعات، ويتحدّثون عن معابد العلم؛ حيث تُصقَلُ أجيال المُستقبل. كانت يد ثيفوينتس الثقيلة تفتح مهبلها، وعاد إلى وعيها خيطٌ رفيعٌ. ظلّت تدير في رأسها صورةً واحدة: مجموعة من الشباب، معهم كتب، وأكواب قهوة، وسجائر يتصاعد منها الدخان، وسفن في موانئ، وقطارات فوق جسور، ويضعون أياديهم على

أفواههم كالأبواق ويصرخون بشيءٍ ما، وتلك الصرخة كانت في الوقت ذاته طريقاً، كانت لغزاً، وفجأةً! كانت الكلمة التي لا يمكنها سماعها، التي ستقيمها من الموت، واحتماليّة البقاء على قيد الحياة بعد الإهانة الحقيرة التي يقوم بها الرقيب، الذي أصبح عارياً، وجسده النحاسيّ أمام الإسمنت الرماديّ في الزنزانة، وقبضته ممسكةٌ بعضوه الذكريّ بهوسٍ أمام الشفة الجريحة، جائعاً للسانها. أدركت فيكي خلال جزيءٍ ضئيلٍ للغاية من الثانية أنّها لن تبكي. إن لم تكن قادرةً على البكاء، ربّما يمكنها التفكير، وبعد ثانيةٍ أوقفت التشنّجات والتقلّصات. أمكنها التحكّم في عضلاتها وأعصابها كرياضيٍّ. قالت لنفسها: إنّها لا يجب أن تموت. لا يجب أن يموت المرء بهذه الطريقة، بهذه الحقارة! في البداية، وضعت يدها صارمةً أمام فمها، وفتحت عينيها لكي تنظر إليه وسط هياجه، وتفحّصت عينيه بين الأجفان الغارقة بالعرق، وقالت له:

- سأستسلم، لكنْ أَبعد هذا عنّي.

لهث الرقيب خلال ثانيةٍ من التفكير، وأخذ في التراجع حتّى وقف على قدميه بجوار الفراش. نزعت الفتاةُ البلوزة، وحمَّالة الصدر، ثمّ فتحت سحّاب بنطال الجينز، وجذبت الإطار المطاطيّ لسروالها الداخليّ، لتترك كلّ شيءٍ مرتّباً، كلّ قطعةٍ فوق الأُخرى، بجوار الوسادة الرديئة من القشّ، وشوال الطحين. بلّلت شفتي مهبلها باللعاب، وثنت ركبتيها، وباعدت فخذيها. حمل ثيفوينتس قضيبه بيده حتّى المهبل، وبعدما أدخله تهاوى كما يسقط تلٌّ فوق طريقٍ ريفيٍّ، أو جدول صغير.

- «كنت أعرف أنّكِ ستحبّين هذا يا بلهاء!». همس في أذنها، بينما يدفع ردفيه إلى أسفل خشية أن يخذله الهيجان، وينتهي داخلها على الفور،

بهذه النقاط المتناثرة، اللزجة، الصغيرة، وألّا تستمرّ وليمة عرق فيكي على لسانه سوى الوقت الذي تستغرقه تنهيدة، وأن يضطرّ إلى إخفاء نفسه بعد لحظةٍ داخل سرواله من النايلون، وبنطاله المبتلّ على الأرض الإسمنتيّة، ونظرته كأبٍ وزوجٍ لعوب، والقميص الذي يجب أن يفكّه من سلك المصباح الذي ينير الزنزانة كالطعنة، ونصْل مدية؛ وبعد دقيقةٍ، بعد ثوانٍ لعينةٍ قليلةٍ، يجب أن يمشّط شعره كجنديٍّ نموذجيٍّ، وأن يحكّ وجنته كرقيبٍ قديرٍ، وأن يبحث عن مزحةٍ لن تخطر على باله لتلطيف الموقف؛ مؤخّرة أُخرى في حياته، فتاة صغيرة، متعة عابرة، وكان خروج المني كلباً ينبح عليه، ويُزيد من حجم عضوه القصير العريض، الذي يعرضه في الحمّام أمام طُلّاب المدرسة عندما يكتشفهم، وهُم يختلسون النظر إليه، فيصرخ بهم: «هل تريدونه؟»، وتهشّمت الطبقة الرقيقة من المخاوف المُسبقة تحت العواء الذي كان يستولي على عموده الفقريّ، ويثير جنون نخاعه، والذي تُرجم إلى الكلمات الوحيدة التي كانت في متناول يده:

- «إنّ هذا يعجبكِ يا عاهرة! يعجبك». قال لها.

مسحت فيكتوريا طرف أنفها بظهر أصابعها، وردَّت عليه برباطة جأش:

- لا يعجبني يا عاهر! أتركك تفعل هذا بي؛ لأنّني أريد أن أعيش لأقتلك.

شعر الرقيب أنّ الدفقة تندفع داخل عضوه، وبلّل أذنها بلسانه الغارق في اللعاب، ثمّ زأر:

- لا يهمّ، لقد استمتعت.

- 19 -

بعد الكمين
يحلّ الظلام سريعاً، ويبدأ سقوط المطر
وتُمحى آثار خطوات المحاربين، رجال حرب العصابات.
حلَّ بنا التعب؛
السهل الذي يجب أن نعبره كبير،
الوحل والماء يصلان إلى الخصر
والآن، كلّ شيء مُعتمٌ ولا توجد نجمةٌ واحدةٌ في السماء؛
تسير الكتائب في صمت.
محاربٌ واحدٌ فقط يُفكّر في كتابة قصيدة.
مازال المطر يتساقط، تخرج الحشرات الطائرة من بين أشجار النخيل،
الجوع والرغبة في النوم بالغان. أستلقي على الأرض
وتنغرس أشواكٌ تخدّر جسدي.
لا يُسمع إطلاق نار،

أصبحنا قريبين من المعسكر؛
صدر الأمر بالراحة. رفيقٌ
بينما يدخّن سيجارة، يسألني:
هل ما يُقال عن أنّك شاعرٌ حقيقيّ؟

- 20 -

عندما أنفد الأسقفُ صبرَ سكرتيره بجعله يطلب رقم معسكر مدرسة المشاة من دون ردٍّ، أو أمل، أرسل الأب بدرو للتكلّم شخصيّاً مع السيّدة مينور. كتب الرسالة الآتية بقلمٍ قديمٍ ذي طرفٍ حاد: «عزيزتي السيّدة مينور: هاتف المعسكر مرفوعٌ، أو خُرِّب، أو ربّما هو قيد الاستعمال دائماً؛ أطلب إليكِ أن تقبلي اعتذاري لعدم قدرتي على الذهاب إلى هناك لأسبابٍ لا يمكنني الإفصاح عنها هنا، لكنْ على نحو ما يمكنك أن تتفهّميني. سأعاود محاولة الاتّصال غداً، وبعد غد، وكلّ يومٍ في كلّ ساعة. في أثناء ذلك، أنصحك بمحاولة إنقاذ ابنتك عن طريق محامٍ. المحامي ريباس يبدو لي أكثر من يصلح لهذا. أصلّي للربّ من أجلك، ومن أجل ابنتك. أطيب تحيّاتي، أسقفك».

طوت أمّ فيكي الرسالة في ثنياتها الأصليّة، وأعادتها إلى القسّ من دون تعليق. اتّجه أنطونيو إلى القسّ، وعاد إلى فضّها، وقرأها بجديّة. كَوَّر الورقة وألقاها بأداءٍ مسرحيٍّ في السلّة الموجودة بجوار الأعداد القديمة من مجلّة «نوبيداديس» وأوعية الأغذية المحفوظة المخصّصة للعشاء.

- «المحامي ريباس من المناصرين لسيموثا». قال: «تكليفه بقضيّة ابنتي سيشبه ربط كلبٍ بحبلٍ من النقانق».

- «إنّه محامٍ جيّد». تدخّل القسّ.

أبعدت الأمُّ أنطونيو، ووضعت إصبعاً على شفتيه بحزمٍ. أخذت حقيبتها من فوق المقعد المصنوع من القشّ، وعلقّتها في ذراعها.

- «الأسقف مُحقّ». علّقت: «ريباس هو الرجُل المناسب لإنقاذ فيكي».

- «هل جُننتِ؟». قال أنطونيو.

- «محامونا كلّهم في السجون، أو موتى». قالت أماليا عندما كانت أمام باب المطبخ: «الأحياء منهم مُهدّدون، أو مختبئون».

- من أين ستدفعين له؟

- نحن النساء زججنا بها في هذا الأمر، ونحن النساء سنخرجها.

- هل تريدين أن أرافقكِ؟

- لا. شكراً.

ذهبت الأمّ إلى غرفة نوم فيكي، ودهمها غيابها وسط الفوضى المعتادة ككلبٍ يُلقى به نحو الجدار، وبينما كانت بمفردها، فتحت الأدراج لتبحث عن المستندات التي ستحملها للمحامي، ومسحت جفونها المنحوتة بالتجاعيد الرفيعة بطرف أوّل قطعة ملابس رأتها: قميص من القطن، كان يحدّد منبت نهديّ ابنتها مثل تلٍّ رمليٍّ ناعمٍ ومُحمّص.

كانت هناك علبة الصفيح الخفيفة التي احتوت قطع شوكولا أهدتها إليها كبرى النساء المُعمّرات في البلدة في عيد ميلادها، وحمل غطاؤها

نقشاً لمنظر صيدٍ إنجليزيٍّ يضمّ فرساناً مُجهدين يرتدون سترات حمراء، وجياداً وادعةً تأكل مكعّبات سكّر من أيدي فتياتٍ لدنات الأجساد بقدْر ما هنّ شاحبات. عثرت داخلها على المستندات الضروريّة: بطاقة الهويّة، وشهادة الميلاد، وصورة لجواز سفر مُعلّقة في ورقةٍ مكتوبةٍ بخطّ يدها غير المنتظم، المتأثّر بتنفّسها، وحمّى اندفاعاتها، وانحناءات أمورها الخفيّة. جلست على الفرش، الذي كان غير مُرتّبٍ بعد، فنزعت الأمّ الدبّوس عن الصورة بأظافرها المتآكلة، وأخذت تقرأ النصّ كأنّها نسيت الغرض من اقتحامها للغرفة. الكتابة الزرقاء بخطوطٍ دقيقةٍ كانت غزيرةً داخل علامات استفهامٍ بارزةٍ على هيئة لمبة.

شاعر!

رسالتك هي أكثر ما أحبّ من بين الأشياء كلّها التي أحتفظ بها منذ طفولتي، بما فيها دمى الدببة، وصور التناول الأوّل، وحذاء راقصة الباليه عندما كنت أحلم أيضاً بأن أكون فنّانة، لكنّ الأحلام شيءٌ، والحياة شيءٌ آخر. أوشكتُ تقريباً على أن أصبح طبيبة أسنانٍ عوضاً عن فنّانة، وبما أنّك تحبّ الكلمات، فلا بدّ من أنّك قد لحظت أنّ كلمتَيْ: فنّانة، وطبيبة، تنتهيان بالحرف ذاته. (أنا لا أسخر منك، أيّها الشاعر الكبير، أستطيع التمييز تماماً بين **الشعر** والقافية)، لكنّني حتّى لن أصبح طبيبة أسنان؛ لأنّهم فصلوني من الجامعة، ...إلخ، وقالوا: «الناب الناب، الضرس الضرس، وسنفصل فيكي». تخيّل أنّ عاماً واحداً تبقّى لي على التَّخرُّج! يقولون الآن: إنّني يمكن أن أواصل الدراسة في كوستاريكا، في الجزيرة (كوبا). في بلدٍ آخر، لكنّ أحوالنا تسير من سيّءٍ إلى أسوأ؛ فقد أصبح أبي عاطلاً، ومنذ

ذهبت أصبحنا نعيش على شيءٍ من المال يرسله إلينا أخي، وبقيّة الوقت نعيش بمعجزةٍ، أو بالحظّ. وأنت تعرف من خلال دراستنا المشتركة لمادّة اللغة اللاتينيّة الأساسيّة أنّ هذه الظاهرة تُعرف باسم «متلازمة نيكاراغوا». الأحوال السيّئة للكثيرين تصبح عزاءً للبلهاء؟

لا يا سيّدي!

كلّ شخصٍ يتولّى أمر نفسه. أنت نمرٌ مرنٌ ونطّاط، تنتقل من مكانٍ إلى آخر، وأنا قطّةٌ منزليّةٌ ومخادعةٌ، تنشب مخالبها في كلّ بيتٍ من بيوت هذه المدينة، التي لا تستعدّ لاستقبالك بالاحتفالات، لكنّها مترعةٌ بالحياة والهواء النقيّ.

رسالتك ملأت البيت وحياتي بالهواء.

بينما كنت أقرأها شعرت أنّك قد تدخل طائراً فجأةً!

لقد تبلّلت. اضطّررت إلى تبديل ملابسي. حدّثني هكذا عندما تكون معي، بالطريقة ذاتها التي تكتب إليّ بها يا ليونيل.

ليونيل، أنت حبّي.

أغفر لك ذهابك من دون إبلاغي بهذا.

لكنْ على الرغم من وجود كلٍّ منّا في مكانٍ مختلفٍ، سنوضح أمراً ما الآن: أنا حُبّك، لكنّني لست مِلكك. وأنت حبّي، لكنّك لست ملكي. فكّرت كثيراً طوال هذا الوقت كلّه في معنى أن يكون المرء امرأةً، وأنا صارمةٌ للغاية في الكثير من الأمور التي لن أقبلها بعد الآن على الإطلاق، أوّلاً: ألْحظ أنّك تتحدّث كثيراً في رسالتك عن نفسك، وعن السيّاح الآخرين، كأنّ مجموعتك لا تضمّ نساء، وأنا أعرف -عن ثقةٍ- أنّ الكثير من السيّدات يسافرن في هذه الرحلات

السياحيّة، لكنّك لا تتكلّم عليهنّ، أليس كذلك؟ كأنّه لا وجود لهنّ!

يوم الأحد، بعد القدّاس، عُقدتْ فعاليّةٌ ثقافيّةٌ في الكنيسة، وقرأت فتاةٌ قصيدةً لِـ«جيوكوندا بيلي»، التي يقال: إنّها تختبئ في مكانٍ ما. لقد نسختها لكي تعرف كيف تكتب «الفتياتُ» الشعرَ:

أريد إضراباً يشترك فيه الجميع.
إضراباً للأذرع والسيقان والشعر،
إضراباً يُولد في كلّ جسدٍ.

أريد إضراباً
للعمّال — للحَمام
للسائقين — للزهور
للميكانيكيّين — للأطفال
للأطبّاء — للنساء

أريد إضراباً كبيراً،
بقدر ما يصل الحُبّ.
إضراباً حتّى يتوقّف كلّ شيء،
الساعة — المصانع
العمّال — المدارس
الحافلة — المستشفيات
الطرق — الموانئ.

إضراباً للعيون والأيادي والقُبَل
إضراباً حيث يكون التنفّس محظوراً
حيث يُولد الصمت
لكي يُمكن سماع خطوات
الطاغية الذي يرحل.

أيّها الشاعر، أليس حقيقيّاً أنّ وجود بنادق في الجبهة بقدْر ما يوجد شعراء كان سيعني احتفالنا الآن في الشوارع؟

الآن، سأخبرك بما سأفعل بك عندما تصل: ما إن أراك، سأضع زهرةً فوق أذنك، وسأقلّب شعرك بيدي كأنّها شفرات طاحونةٍ، أو طفلتان مرتعدتان تائهتان في الغابة. بعد ذلك سنذهب إلى الحمّام. سأُدخلك إلى حوض الاستحمام، وسأفرك جسدك بالصابون حتّى أتركك كالملاك. بعد ذلك سألقي عليك لتراتٍ من الماء الدافئ حتّى يصبح جلدك لامعاً، ويمكن أن يعكسني كالمرآة، وسأبدأ في الحال في تقبيلك من عنقك آخذةً في النزول ميليمتراً، فميليمتراً حتّى أصل إلى المكان الذي تعرفه؛ لألتهمك طويلاً ببطء. بعد ذلك، ومن دون أن أجفّفك، سأمدّدك على فراشي؛ هذه الفتاة المتواضعة ستكون فوطتك. القصيدة ستصبح حقيقةً. وستتبقّى لدينا دمعةٌ ما، هذه المرّة من أجل البهجة.

حُبّك،

فيكي المنتصرة.

- 21 -

- «جئنا من دون سلاح أيّها الأب بدرو». هكذا قال الفتيان، لكنّني كنت أفتّشهم بحثاً عن الأسلحة. ظلّت النوافذ الزجاجيّة سليمةً في الجانب الأيمن فقط، بجوار البيوت؛ أمّا في جانب الميدان، فقد انكسرت من جرّاء إلقاء الحجارة، أو الرصاص. كان القسّ يكنس الحطام بنفسه بعد كلّ مواجهةٍ. وفي اللّيل يحاول إعادة تركيب أجزاء تماثيله المُفضّلة. «لقد جئنا من دون سلاح يا أبتِ». هكذا قال الفتيان، لكنّني كنت أفتّشهم بحثاً عن الأسلحة. المُقدّم فلوريس كان طيّباً معي للغاية، هكذا فكّر بينما يدسّ يده بين نسيج اللافتات وبين الأحزمة، وتحت قمصانهم المُبتلّة. بل وكانت علاقتي جيّدةً بعائلته. علاقة وطيدة بعائلة المُقدّم فلوريس. وقلت له في وجهه: إنّ العمل في مدرسة المشاة، في الحرس الوطنيّ، شيءٌ غير شريف. وقلت له في وجهه مباشرةً: إنّني لا أستطيع مساندة سوموثا حتّى في الأحلام. وهذا ما يقوله لك قسّ؛ هذا ما قلت. مهما قالوا لي: إنّهم لا يحملون ولا حتّى مدية، كنت أفتّشهم واحداً تلو الآخر. المُقدّم فلوريس مشهورٌ بأنّه حازمٌ. سمعته معروفةٌ كرجُلٍ مُحترمٍ، ذهبت عائلته إلى ميامي، وهو هنا. اِعترفَ لي. قال لي: «لن تصدّق يا أبتِ، أنا بقيت بسبب قناعاتي.

وقلت له عبر نافذة غرفة الاعتراف: إنّ هذا شيءٌ قبيح! فردَّ عليّ: أغفر لك أن تحدّثني هكذا؛ لأنّك قسّ، ولأنّني مسيحيٌّ، ولأنّني أعدّك صديقي، لكنْ لا أسمح لأيّ شخصٍ آخر أن يقول لي هذا يا سيّد بدرو».

كيف تعتقد أنّنا سنخدعك يا أبتِ؟ أقسم لك إنّنا أتينا من دون أسلحة. اذهبوا إلى بيوتكم يا فتيان؛ لقد مضى زمن اللافتات، والاعتصامات، والهتافات في الشوارع. الانتصار في هذه المعركة سيكون بالرصاص. سنعلّق اللافتة على برج الجرس فقط. سنظلّ بجوار ميدان كالباريو حتّى منتصف اللّيل. في هدوءٍ تامّ، ومن دون هتافات. أُنظر إلى أياديا، خاوية أكثر من يدي سان فرانسيسكو. واحداً تلو الآخر يا شباب، سأقوم بتفتيشكم بحثاً عن الأسلحة. أصبح فلوريس مسؤولاً عن مدينة ليون. فلوريس شخصيّاً. ليس الجنود، أو الفيلة، أيّها الحمقى. إنّه الملك شخصيّاً. لتذهبوا إلى بيوتكم يا شباب. بسط الشباب اللافتة. حروف حمراء على خلفيّة بيضاء: «لا للمزيد من الموت في ليون، ليرحل الديكتاتور». كلمات أسقفك ذاتها يا أبتِ قالها الفتيان. يجب احترام التراتبيّة الكهنوتيّة. تذكّروا ما حدث في مدينة بويبلا، وما حدث للقسّيسين اليساريّين. ما حدث مع هيلدير كيمارا(*). أفتّشُ الملاعين واحداً تلو الآخر. تماثيل القدّيسين من الجبس تتحطّم تحت وابل رصاص المدفع، والأسقف مُهدّدٌ بالموت، ولا يوجد بيزو واحد في الضرائب الرسميّة للأسقفيّة، وأكياس الصدقات في القدّاس كانت آباراً بلا قاع. سأفتّشكم حتّى تحت السراويل الداخليّة يا ملاعين. الشخص غير المُسلّح اليوم في ليون إمّا أنْ يكون أبله، وإمّا أنّه لا يخرج من البيت. من مجرّد لافتةٍ بسيطةٍ في الروح. في روح الفاتيكان،

(*) أسقف برازيلي من مناصري لاهوت التحرير. (م).

سيقولون لي الآن ترّهات. لقد أصبح فلوريس هو المسؤول عن ليون. فلوريس المسؤول عن ليون والمناطق المحيطة بها. جنودٌ على اليمين واليسار. قادمون من مدرسة المشاة، تصويبٌ جيّدٌ، وتدريبٌ ممتاز. ليس الحرس السكارى المخدّرين الذي يجْرون عندما يسمعون هتاف «الوطن، أو الموت».

الهيلوكوبتر عينٌ تَرمش على الميدان الرئيس. الحشد الذي وفَد لمساندة الفتيان. اتركهم يا أبتِ، هكذا كانوا يصيحون. أشار القسّ بإصبعه إلى الهيلوكوبتر، وبعد ذلك هزَّ كتفيه. سيهجمون علينا بالهيلوكوبترات، بالطائرات، وبما يوجد في متناول أيديهم. ألم تسمعوا المذياع؟ ألا تقرؤون الصحف؟ ألا تعرفون أنّ سوموثا قد أقسم على البقاء حتّى نهاية القرن العشرين؟

تضرّع الفتيان: «أبتِ!».

ظلّ القسّ منجذباً إلى الهيلوكوبتر. كان ضجيج المدافع الرشّاشة يقتحم صخب مرواح الهيلوكوبتر: جراند، فال، بونتو 30، بازوكا، بونتو 50. حتّى عام مضى كنت أُوزّع تماثيل صغيرةً للقدّيسين في القرى، والآن أمتلك ترسانةً في فمي، أكبرَ من تابوت العهد. كانت الوفَيات أكثر من المواليد لأوّل مرّةٍ هذا العام. الهيلوكوبتر نقطةٌ غائمةٌ في السماء، تاجٌ مثيرٌ للدوار. تَرقُّبْ.

تسلَّق الطلبة برج الجرس. لم يمكن للأب أن يسمع أصوات الأطفال الذين كانوا يجذبون كُمَّه. أرتدي هذا القميص الأبيض الفضفاض منذ عام، وتركتُ الزيّ الكهنوتيّ الوقور للجنازات، وللاعترافات. كان غارقاً في تأمّلاته، ميّتاً في قبره.

كان يجب أن أفتّشهم بحثاً عن الأسلحة بكاشفٍ عن المعادن، بمغناطيس بحجم مقدّمة سفينة. من يعيش من دون سلاحٍ اليوم في مدينة ليون؟ أنا نفسي أشكُّ أحياناً أنّ طلقات الرصاص قد تُطلَق من بين أصابعي، فأصابعي كبيرةٌ بما يكفي للانفجار في مطاراتٍ، ومحطّاتٍ، أو معسكراتٍ للحرس الوطنيّ.

رفع المحتشدون أذرعهم نحو الهيلوكوبتر، كأنّما ليدفعوها بعيداً. جعلوا من أفواههم أبواقاً. قال القسّ: «الفأل يكبر داخل معدتي». الهيلوكوبتر بعوائها المعدنيّ تبتعد إلى الحصن، بعيداً عن الحشد البشريّ، كأنّ تلك الأيادي اليائسة تمتلك القدرة على دفعها خارج المدينة. اعتقد القسّ أنّه يبكي، وأنّ الدم يجري مع الدموع. «يا إلهي!». قال. وكان الصغار يجذبونه من كُمّ السترة الفضفاضة. لماذا تبكي يا أبتِ؟ اللعنة! أنا لا أبكي.

بدأ مذياع الهيلوكوبتر في إذاعة الأوامر. كان أغوستين قد شغّل مُحرّك عربة الجيب، والسمّاعات تُطبق على أذنيه، والمُقدّم فلوريس يُدخّن باسترخاءٍ، وعيناه ثابتتان على الهيلوكوبتر التي تتّجه إلى الحصن. أعطى أغوستين السمّاعات إلى فلوريس الذي دهس السيجارة على أرضيّة السيّارة عندما تعرّف إلى صوت تشجوين ذاته، كأنّ ابن سوموثا حاضرٌ جسديّاً بأنفاسه اللافحة.

- فلوريس؟

- نعم يا سيّدي القائد.

- حسناً. لقد انتهى هذا الأمر؛ تذهب إلى ميدان كالباريو، وتهجم عليهم بفرقةٍ عاهرة، هل سمعت؟

- نعم يا سيّدي القائد.

مكتبة
t.me/t_pdf

– اِنس المعاملة الرقيقة يا لعين! وإلّا سينتهي بنا الأمر بجمع زهور مارجاريتا في باراجواي. اِقضِ عليهم، هل فهمت؟

– نعم يا سيّدي القائد.

– يا ابن العاهرة! العصيان في البلاد كلّها؛ إنْ خسرنا، يمكنك أن تودّع بيتك وخصيتيك.

– ماذا أفعل؟

– تذهب إلى ميدان كالباريو. يوجد هناك حشدٌ كبيرٌ من الناس. أُدخل بينما تُطلق الرصاص، وهؤلاء الذين علّقوا اللافتة، ألْقِ بهم من فوق البرج.

– أجل يا سيّدي القائد.

– خُذ حذرك يا «براذر»؛ أنا أُقدِّرك كأخ.

– شكراً يا سيّدي القائد.

أشعل سيجارةً جديدةً فور فصل جهاز الاتّصال. شعر أنّ الصوت الزاعق قد وصل إلى أقرب الجنود إليه، الذين تظاهروا بالوقوف وقفةً نظاميّةً عندما فاجأتهم نظرة القائد. رأى الهيلوكوبتر تهبط نحو الحصن، وظلّ يفكّر ويفكّر حتّى انطفأ صوت مروحتها. بعد ذلك راجع تشكيل رجاله: مدافع بونتو 50 الموجودة تحت إمرة ثيفوينتس في الشاحنات بدت له درْعاً رائعاً يتيح له الدخول كفارسٍ من العصور الوسطى إلى الحلبة، مغطّى بالذهب، يشعُّ رصاصات، بريقها فقط يجعلها كرماحٍ تُخضع الشعب من دون حاجةٍ إلى أدوات ردعٍ مُعقدَّة؛ كانت هذه هي العمليّة التي يطلبها تشجوين بنفسه من فلوريس، وهو كان المُقدّم فلوريس. أسلوب المُقدّم فلوريس، الذي يجب أن يضفي هيئةً، وملامحَ، ونصلاً، ودقّة على الهجوم. صراخ الجموع كان أجشَّ وبعيداً. أخذ فلوريس نفساً آخر من السيجارة، وفكّر في

وجه تشجوين إنْ رآه غارقاً تماماً في هذا التأمّل، بينما يأخذ أنفاساً عميقةً من الدخان بهدوء. علَّموه في بنما أن يفرض هذه الثواني المفصليّة على نفسه قبل أيّة عمليّةٍ مهمّة. «ما تستغرقه سيجارة». قال لنفسه: «ما يستغرقه كلّ جزيء من هذا التبغ الرائع!». أغوستين يداعب المقود. سمع الجنود صوت تشجوين سوموثا، لكنْ ربّما لم يسمعوا كلماته. ربّما يجهلون الأمر الذي سيصدر عندما يقوم هو، فلوريس، بإشهار مسدّسه، والتصويب على الطلّاب في ميدان كالباريو، ثمّ يصرخ بصوتٍ يسبق ويحفّز طلقات الرصاص: «اقتلوهم!». صوت شبيه بصوت تشجوين، من دون نبراتٍ متعدّدةٍ، أو تردّدٍ. من دون تقدّم، واحتراز، أو تأخّر. يجب عليه أن يقول: «اقتلوهم». أبعدَ القذى من عينه وتذكَّر أنّه شاهد ليلة أمس محاورة صحفيّ أمريكيّ مع الرئيس: «إنْ جاء الحرس الوطنيّ وقال لك: سيّدي الجنرال، يجب أن ترحل. هل سترحل؟». ابتسم الرجُل، وردَّ بإيجاز: «لا». «ألا يمكنهم إجبارك على الرحيل؟». قال الرئيس: «ألا يمكنني إذنْ استخدام القوّة ضدّهم؟». قال المحاور: «إنّهم يمتلكون أسلحةً». قال سوموثا: «نعم، لكنّ الشعب معي».

يجب أن يمتلك المرء كِلى من المطّاط ليحتمل أرصفة شوارع ليون. إنْ دفعوا عملة كوردوبا واحدة لكلّ مواطنٍ مقابل كلّ حفرةٍ، ستكون هذه المدينة ممتلئةً بالمليونيرات. ويجب أن تكون مؤخّرته من الحديد في عربات الجيب، ويجب أن يكون جلده جافّاً كيلا يتعرّق نقطة فنقطة، ثانيةً بعد ثانية؛ رطوبة لعينة!

قال للجنود: «هيّا». سيجارة أُخرى مدهوسة في رمال معسكر التدريب. آثارها الرماديّة. الأشياء التي ينظر إليها المرء مليّاً. كما تريد حضرتك يا تشجوين. القمع إشاعة: تبدأ في النفخ فيها، ولا تتوقّف حتّى

تنفجر. عملٌ أكثر باضطّراد، وكلّ يومٍ هواءٌ أقلّ. الجدران المريبة، وبيوت العاهرات بثقوبٍ للتلصّص تحت المرايا. «هيا». قال للجنود. عربات الجيب والكاسحات بالدويّ المميز ذاته. والدبّابة في الخلف. انفضّ المتمرّدون في مرّات كثيرة لدى رؤية ذلك الوحش فقط. الحديد الذي يتحمَّل، الحديد الذي يقتل يا أبتِ. يوجد قتيلٌ داخل كلّ رصاصةٍ يا أبتِ. الجيش هو أكثر الأوطان عدداً. الربّ، والوطن، والجيش: أريدهم بهذا الترتيب. حسبةٌ بسيطةٌ وفعَّالة: عدد الرصاصات في ترسانتنا أكثر من عدد الثوّار الساندينيّين. على الرغم من أنّنا، كما قال تشجوين، وأؤكّد على هذا؛ لم نبدأ في إطلاق النار بعد. أمرٌ ما هو التفتيش والعقاب النموذجيّ، وأمرٌ آخر هو وابل الرصاص. مربّعٌ سكنيٌّ كاملٌ متطايرٌ في الهواء. نقطةٌ نهائيّةٌ يا أبتِ: الجيش موجودٌ هنا ليفرض نفسه، لينتصر. نفعل هذا من أجلكم. لا يوجد من يحبّ القتل. سيكون التراجعُ ونفض اليدين من الأمر أسهلَ. كان يمكنني أن أقول لأغوستين: «اذهب بي إلى المطار عوضاً عن كنيسة ميدان كالباريو». كتبت إليّ مارتا: «حذارِ يا فتى!».

الناس في الميدان يرونهم قادمين، لكنّهم لا ينطلقون في الركض كما سبق. يظلّون في أماكنهم بينما يتشمّمون الموت بأنوفهم المرفوعة تحدّياً. يجب أن يسقط واحدٌ منهم على الأقلّ لكي يصرخوا ويفزعوا. وحينئذٍ تبدأ العجائز بصلواتهنّ، وتصل صرخاتهنّ إلى السماء. رائحة البارود تحت الشمس. أخمّنها.

ترك القسُّ ماريا مولينا تعانقه، وقرأ اللافتة فوق برج الجرس. كان الفتيان يحيّون الناس؛ طُلّابٌ في يوم الإجازة. لم يعد هنا من يهاب الموت في هذا البلد. أصبح الموت عادةً. كانت ماريا مولينا قد وضعت ذراعها على كتفه. هل اقتربت منه امرأةٌ إلى هذا الحدّ من قبل؟ لماذا تبكي أيّها

الأب بدرو؟ هو أيضاً لم يرَ من قبل قسّاً يبكي. الحدْس أكثر اكتساحاً من الهواء. يملأ عروقك ويهزّك. إنّه جسدٌ أكبر من حجم المرء، شيءٌ خانق. «أمران غريبان!». يفكّر السيّد أنطونيو على درجات سلّم كنيسة كالباريو، بينما ينظر إلى ماريا مولينا والقسّ: «امرأةٌ تُعانق قسّاً، وقسٌّ يبكي». لم يرَ على الإطلاق قسّاً يبكي من قبل، حتّى في الأفلام. يضغط السيّد تشيبي على ذراع السيّد أنطونيو، ويقول له: «هل تسمع؟». هل تسمع؟ هذا هو السؤال. هل تسمع؟ الصمت الذي يبدأ في الهيمنة على الميدان عندما تُسمع قعقعة دبّابات شيرمان التي تفوق هتافات الطلبة. هل تسمع؟ يصمتون لبرهة. الفتيان فوق برج الجرس يخفون قبضاتهم المفعمة بالحياة. القسّ يفصح عن النبوءة التي تقبض عليه. «تفرَّقوا!». يصرخ بالناس. «إنّها الدبّابة». يفكّر الفتيان. يسوق الحلّاقُ السيّدَ أنطونيو من ذراعه: «هيّا بنا يا لعين!». السيّد أنطونيو بطيءٌ دائماً، وُلد ليصبح حلزوناً. القسّ مُصيب: لقد خُلقت لوقتٍ مثل هذا. لا للتهويمات الميتافيزقيّة، ولا لحُبّ من يقتلنا، ولا لإعطاء الخدّ اللعين! بسرعةٍ، كالنمر، يسدّ البوّابة بجسده.

– «بالفعل، الدبّابة». يُفكّر القائد.

بالفعل، «آبر اكادابر ا»، ينفتح السحْر. تشعر الأقدام في كلّ بيتٍ من هذه البيوت في هذه اللّحظة بالاهتزاز الذي يسبّبه الوحش الذي أقوده حتّى يصيبهم الفزع؛ الدبّابة السحريّة. القاطرة اللعينة التي تُطلق عليهم النار وتخيفهم، لكنّهم يتلاصقون في الشوارع، ويشجّعون بعضهم، ويظلّون في حالة ذهولٍ كثيفةٍ بينما يستشعرون الموت. يُفكّرون. اللعنة! إنّها فرقة قوّات المشاة الخاصّة. يشمّون، يتشمّمون. هنا يأتي الجنود الحقيقيّون، وليس مدخّنو الماريجوانا، أو السكارى.

الأب. الأب بذراعيه المفتوحتين على السلالم. صديقي القسّ المقدّس الذي يباركه الربّ، يلعب أدوار بطرس السمّاك، وروكيه القرصان، ويوسُف النجّار.

نظر إلى أغوستين الذي تغطّيه السمّاعات. يستعملها كغطاءٍ للرأس. مكبّر الصوت في فمه كقناع. هوائي عربة الجيب يلقي عليه ظلّاً كعينٍ تراه. غارقٌ في المقعد، مؤخّرته مُتصلّبةٌ كأنّه يريد أن يذوب في الغبار الذي تثيره الدبّابة.

- «ما بك؟». سأله.

لم يتلقّ أغوستين إلّا حركة شفتي فلوريس. خلع السمّاعة عن إحدى أذنيه بيده اليسرى، وقال:

- سيّدي المُقدّم؟

- «لا شيء». قال.

نزل من عربة الجيب. تشمّم الهواء، وقرأ اللافتة المُعلّقة على برج الجرس بصوتٍ عالٍ. قال لنفسه: إنّ الثوّار الساندينيّين جيشٌ غريبٌ، يجمعون بين الكلمات والرصاص!

- أغوستين، أيّها اللعين! اتّصل بالهيلوكوبتر، واسأل تشجوين إنْ كان يجب أن أتبع الأوامر أم إنّ هناك تعديلاً.

القسُّ بذراعيه المفتوحتين أمام الكنيسة. يراهن الجميع اليوم على أنْ يصبحوا شهداء. يريدون الإقناع بإشاراتٍ أوبراليّة. عندما تكون البلاد في حالة غليانٍ بسبب الشيوعيّين سيخرج القساوسة مرّةً أُخرى للتصرّف كالبهلوانات في الشوارع.

أراد أنطونيو العودة إلى الميدان.

قالت ماريا مولينا: «القسّ كان يبكي».

قال دون تشيبي: «يوجد شيءٌ ما في الهواء».

فكّر فلوريس: «هذه الحرب اللعينة!».

- هل توجد إجابة؟

- «نعم يا سيّدي المُقدّم». قال أغوستين.

- سأستقبلها بنفسي.

أعطاه أغوستين السمّاعات، ومسح فلوريس الإطارَ المعدنيّ بين الأذنين بكُمِّ زيّه الرسميّ. شعر الفتى بنفسه عارياً. ربّما ميريام. قد يكون إغناثيو. وإن كان أبوه؟ وإن كانت فيكي أيضاً؟ رأى السيّد تشيبي في الطريق. ذات مرّة اصطحب المُقدّم إليه لكي يحلق له، لكنّ فلوريس انتهى مُبتسماً، بشعره بالطول ذاته.

قال تشيجوين بإيجاز:

- فلوريس، قلت لك أن تقتحم مُطلقاً الرصاص!

- إنّ القس على الباب، ويقوم بترّهات.

- أطلق النار عليه أيضاً! إنّها الحرب يا فلوريس يا لعين! وليست الأكاديميّة.

- «حَوِّل». قال المُقدّم، وأعطى الجهاز لأغوستين. اتّجه إلى الدبّابة. وقف على بُعد أمتارٍ منها، وبسبّابته مرتفعاً وجَّه المدفع حتّى أصبح مُصوّباً على باب الكنيسة الممتلئ بالنقوش.

- «أبتِ!». صاح.

رفع القسّ يديه إلى صدره، وعقدهما على نحوٍ طقوسيٍّ. بدأ الفتيان في الهتاف فوق برج الجرس: «اتّحد أيّها الشعب». سمع أغوستين الهتافات

التي يخفّف منها أزيز خطّ الاتّصال المباشر بموقع سوموثا. وضع السيّد تشيبي الغلّاية المائيّة الكهربائيّة في مقبس دكّان الحلاقة، وأعطى مجلّة قديمةً للسيّد أنطونيو.

وضع فلوريس جيشه أمام المعبد، وأشار إلى برج الجرس.

- أمطروهم!

تمهّل الجنود خلال ثانية، بحثوا عن المُقدّم بالحركة ذاتها، كأنّهم يتبعون جهاز توقيتٍ، للتأكّد إن كان ما قاله أمراً أم تهديداً.

- «أطلقوا النار يا ملاعين!». صرخ.

لاحقت الرصاصات نفسها في الوابل كأنّ كلّاً منها يُصدر صدى، وارتدّت عن الأجراس. قطع فلوريس الوابل فجأةً بصيحة: «كفى!». وحينئذٍ انطلقت صرخةٌ أُخرى في الهواء من فوق برج كنيسة كالباريو، وهطلت على الحشد في الميدان، ووصلت إلى الحيّ الغارق في ألمٍ ثقيل.

- «أيّها المُقدّم». صاح القسّ، الملتصق بأخشاب المعبد: «إنّهم عُزَّل!».

صدر الصوت الأجشّ لرئيس المجموعة فوق عواء الفتى القائم على التنظيم في البرج، وبعد ذلك الصدر العاري، والقميص الأبيض المربوط إلى عصا مكنسة:

- «نستسلم!». صاح.

شعر فلوريس في معدته بمذاق الحسم. ترك نفسه يترع ويمتلئ باللذعة التي تصعد إلى رأسه. جرى حتّى القسّ، فوضع أنبوب المسدّس الميري على صدغه، وأمسك قفاه بيده الحديديّة، وجعله يهبط السلالم حتّى أصبح بجوار الدبّابة. حينئذٍ فقط أشار إلى بوّابة الكنيسة.

- «أنا آسف يا أبتِ». قال له في أذنه: «أنا وأنت كاثوليكيّان، وأحدنا مخطئ، لكنّ الربّ هو من سيحدّد هويّته، وليس أنت».

أحالت القذيفة البوّابة إلى شظايا، واخترقت بهْو المعبد، وأخذت تُسقط الطبقات الخارجيّة لنقوش الجدار، وطلاء السقف. أخذ الزجاج في الانفجار في أثناء تطايره، وظلّ الاهتزاز في الهواء طوال بضع ثوانٍ. بدأ القسّ في التعبير عن التضرّع. اعتقدَ أنّه يفهم لأوّل مرّةٍ معنى الركوع من أجل التوسُّل، وهي حركةٌ لا تصدر عن وعيه، أو عن إيمانه، إنّما عن أحشاء لم يكن قد عرف بوجودها حتّى تلك اللّحظة، وانثنت ركبتاه متوسّلتين مُلحّتين، وأرادت يداه إمساك فخذ القائد، لكنّه تفاداهما، وترأس القوّات في تحرّكها حتّى المعبد، لكي يصعد مع جنوده السلّم الحلزونيّ حتّى برج الجرس. فجأةً! صمت صياح المُكلَّف بالتنظيم. كان صوت فلوريس الفخْم يُتوِّج البرج. وصل الأمر حتّى دكّان حلاقة السيّد تشيبي.

- أياديكم خلف رؤوسكم يا ملاعين!

الوابل الجديد تبع الأمر مباشرةً، كأنّه صدى له. نظر القسّ إلى الميدان الخاوي، ورغب بامتلاك القدرة على الموت. بمفرده على الأرض الإسمنتيّة، فسمع ألم الناس خلف كلّ باب، من دون أن يصدر حتّى صوت تنفّس طفلٍ واحدٍ. عندما سقطت اللافتة من السقف إلى المدخل، رأى أنّ أغوستين موجودٌ داخل العربة. شعر أنّ قميصه الأبيض الفضفاض مغموسٌ في البارود. فاتّجه إليه باكياً. عندما رأى أنّ أغوستين ينهض داخل عربة الجيب، بينما يتأرجح جهاز الاتصال على صدره، توقَّف ونظر إلى الميدان مُتَّبعاً مسار نظرة الفتى.

كان الجنودُ يجرجرون الجثثَ على السلالم من دون الالتفات إلى من

يحملون. خليط من الرعب والجهد، والقمصان المحترقة بفعل الرصاص، والأيادي الغارقة في الدم، وإحساس الفزع الحديث في النظرة الأخيرة. كان فلوريس هو الأخير في الظهور. الحوذيّ. ماهرٌ ودقيق، وقف أمام اللافتة بحزم من تجاوز أحداً ما. أدرك أنّه إن أراد التفكير بتلك اللّحظة، فإنّ رأسه سيميل إلى العناد كالحجر. كان مخلوقاً للمعارك. المعارك الحقيقيّة. الرغبة المُتحقّقة يا تشجوين. وجوه الجنود الذين كانوا يتفادون النظر إلى الجثث جعلت نوبة غضبٍ أُخرى تنتابه:

- لُفّوهم في اللافتة!

قال لنفسه: «إنْ لم يروهم، لن يشعروا بالألم». استدار بسرعةٍ إلى عربة الجيب، وقال:

- أغوستين مينور، اتّصل بتشجوين، وقل له: إنّ العمليّة «أوكيه».

أحسّ الفتى أنّ أوصاله مفكّكة. شعر أنّ العصيان المفاجئ لأوامر المُقدّم سيكون أمراً عصيّاً على التحديد أكثر من كونه فعلاً واعياً، أو تمرّداً، أو حنقاً، أو خوفاً. رأى القسّ منتحباً بجوار عجلة الجيب، بعد أن أفنى حياته في الصلاة لربٍّ لا وجود له، وبالفعل، كما جرى التحقّق في تلك اللحظة، لا يُمكن أن يُوجد. الجنود الذين يلفّون الجثث في اللافتة لا يمكن أن يكونوا هُم الجنود ذاتهم الذين استحمّ معهم في ذلك الصباح بينما يركل الرقيب ثيفوينتس مؤخّراتهم. إفطار الحليب الساخن، والقهوة المنبّهة مثل الكونياك، قد يكون حلماً، على الرغم من حضوره المقزّز في حلقه. كان يجب أن يفرّ إلى الجبال يوم غطّسَ ثيفوينتس رأسه في الماء، حتّى أوشك على الاختناق، بينما يصرخ بهم: «يمكنكم التحمّل أكثر دائماً يا عهرة، تحمَّلوا بأفواهكم الممتلئة بالوحل، إن أمسككم رجال حرب

العصابات ذات يومٍ سيكون عليكم أن تأكلوا غائطكم». شعر أنّ جسده نقطةٌ، رعشةٌ في فضاءٍ غير محدّد، في عالمٍ من دون جهات أصليّة، ومن دون حاسّة شمٍّ، أو لمس. ولو لم يكن بسبب الرعشة التي تؤلم مثل جرحٍ عميقٍ، كان يمكن أن يشعر أنّه قطعةٌ من الحجر.

نظر إلى القسّ الذي يصلّي بجوار العجلة، ووجنتاه ممتلئتان بالغبار، والشحوم، والدموع، والبارود، وقد أصابت جبهته الشيخوخة فجأةً كمُحتضرٍ، وتخلَّص من جهاز الإرسال، وقفز خارج عربة الجيب. تأكّد من أنّ المُقدّم لا ينظر ناحيته، فانطلق في الركض عبر الميدان الصغير الذي بدا له لا نهائيّاً، وحينها شعر بسبطانات بنادق زملائه مُصوّبةً على ظهره.

فكَّر: «اقتلوني يا عهرة».

لكنْ عندما دوّت أولى الرصاصات العشوائيّة المتفرّقة، كان قد وصل إلى الناصية، وبينما كان يقطع كلّ مترٍ في الشارع، كان يستعيد الخفّة التي لم يشعر بها منذ طفولته عندما أطلقه السيّد أنطونيو لأوّل مرّةٍ بينما يقود درّاجته.

- 22 -

يدٌ تحملُ وتمرُّ، ثمّ تُمسك بيدٍ أخرى.

الذراع الأُخرى تقبض بقوّة كمّاشة.

الخرطوم يهتزّ، ويثقب، ويكسر القرميد، والطرف يفتّت الإسمنت بسرعة.

الخرطوم ينفذ بقوّةٍ، وفي أثناء ذلك يشقُّ غرفَ نومٍ، ويحطّم غرف طعام، والفتيان يغزون مدناً تستسلم لهم كعشّاقٍ شباب.

اليد تنضمّ إلى يدٍ أُخرى، اليد تتقدّم وتعبّر. الفتيان يسقطون من الجبل، ويعبرون بحيرات، ولا يوجد من يختبئ، والنصر في متناول اليد. من سيموتون يميزّون أيضاً الأيّام السابقة على الموت.

سوبليميه ساليناس يراقب على الناصية. الرصاصات غزيرةٌ مثل الزهور في الربيع، ومثل البثور على وجوه هؤلاء الأطفال الذين يتقدّمون حاملين بنادق الفال والمسدّسات حتّى مشارف المعسكر منتظرين الأمر بانتباه؛ ينتظرون النار الغزيرة، التي ما زالت مكتومةً في الخرطوم. دمٌ في الشرايين، وطريقٌ مباشرٌ يخترق الألواح. تمثالٌ في مقدّمة سفينةٍ، يا رفيق.

بلوتاركو مُبتهجٌ. ماريا مولينا تكسر دولابها الزجاجيّ لتختصر الطريق. الحرس الوطنيّ يطلب قوّات دعمٍ من القيادة العليا، والمُقدّم فلوريس بشاربه الخشن يصيح في الأحياء: «أغوستين مينور!»، وعلى كلّ صرخةٍ تردُّ رصاصةٌ، والجنود يقصفون في دوائر -يعميهم البارود- مدينة ليون اللعينة! هكذا لم تكن «وطن، وموت» مجرّد كلمات. كلمة أخرى مُنتظرة. أنفاس بلوتاركو تمتلك هذه الإشارة. في أثناء ذلك فإنّ جواز السفر هو الخرطوم الذي يخترق جدراناً، ويمحو خصوصيّة السكّان بتركه فجوات مثيرة للضحك، فتى يمسك بمقبض الخرطوم، يحمله عرقانَ، ويمرّر لسانه على ذراعه المالحة اللذيذة، ويسأل ضاحكاً: «ما اسمك؟ أجبني وإلّا جعلت الثقب أكبر». كلّ مرحلةٍ من غواية الحريق. البصمة. الشارع ينفتح، بسرعةٍ لكن بأناقة. إنّها الحرب يا حبيبتي، لكنْ قبل أيّ شيءٍ فنحن في نيكاراغوا. «اِمسك يا جاري». يقول السيّد تشيبي. عُقد أصابعه تعبُر جدراناً عوضاً عن عمل قصّات شعرٍ شبابيّة. اللعنة! كلمة جار تبدو اليوم مختلفةً تماماً؛ غزيرةً ومتطايرة. اسمع يا زميل، أنا إعصارٌ. ويمكنني أن أفتح هنا أكثر من زلزال. المقبض ثابتٌ، والطرف عار. يبحث عن العدو. سيفتح عنقه المشتعل بضربةٍ واحدةٍ من الفأس. رحيق مُتطاير. الخطر يجعل المرء يتبوّل على نفسه، لكنّه حفلٌ أيضاً.

اليد التي تظلّ في الخلف تذهب مع اليد التي تتقدّم. تنتظر وتحصد ما زُرعَ. الأذن على الحائط. كم متراً تبقّى؟ كم متراً مضى؟ هل حسابات بلوتاركو جيّدة؟ يشكُّ السيّد تشيبي. الأمر مختلف بين الخرائط اللعينة حيث لا تبدو أفريقيا أطول من سنجابٍ ملوّن، والواقع القذر حيث يمتدّ كلّ شيء، ويتعقّد. هنا يستحيل على المرء تقريباً أن يصل إلى حيث يريد.

لقد استحقّ الأمر عناء التأقلم مع الترمُّل؛ هكذا بدأت كبرى النساء المُعمّرات في البلدة مونولوجها.

«هناك شيءٌ ما في الجوّ». يقول المحامي ريباس متفحّصاً ملفّ فيكي على بُعد كيلومترين من الخرطوم الذي يمتدّ، وينعقد، ويعبُر، ويمسك بكلّ شيء. «أمام الربّ الذي يعقد ويحلّ كلّ شيءٍ واثقاً في وعده بالتقدّم في طريقه». هكذا تهمس ميريام لأنطونيو، وكان الأخير مُستمتعاً بثخن النسيج المرن بين راحتيه؛ حيث يسير حتّى الجدار الآخر كأنّه يحمل سفينةً عابرةً للمحيطات، وأوّل عضّةٍ من الوحش الذي أخذ يلهب خيال عامل السينما الذي يحفّزه الهذيان الغنائيّ لرجُل الإطفاء. فيكي التي قالت له أن يحمل خطّته إلى هوليوود: «لقد فسد عقلك بسبب كثرة مشاهدة السينما». مؤامرةٌ في كشك عامل العرض في السينما، ومؤامرةٌ في قاعة البلياردو. في المخبز، وفي بيت العاهرات، وفي أستوديو المصوّر إيبينور؛ سلطة من المؤامرات، طبقٌ أوّل: مؤامرة. هل أقدّم إليك الحلوى يا جاري؟

انتظر السيّد أنطونيو تقدُّم المثقاب. الضوضاء تسبق الخرطوم. جاؤوا ليقولوا له: إنّ فلوريس يقود عربة الجيب عبر البلدة، ويصيح في كلّ ناصية «أغوستين مينور!»، بينما يقتحم البيوت، ومدافعه الرشّاشة تفتح بطون الخنازير، وتقصف أعناق الطيور والدجاج، وما تجده في طريقها كلّه. ويصيح: «أغوستين مينور، أيّها الهارب، يا ابن العاهرة!». ويقولون للسيّد أنطونيو ما يقولون له، ويكذبون عليه. يا جاري، لن يعرف أيّ شيءٍ، أو يصل إلى أيّ شيء. الفتى هناك في مكان، وماذا يمكن أن يفعل له المرء إن كانت هذه هي إرادة الربّ؟ الآن، لا يريد سوى التخلّص من الخرطوم اللزج في البيت المجاور، وأن يقطع الأمتار المتبقية حتّى المعسكر. أن

يصيح ويصرخ. لا يشعر بالإساءة، ولا يغضب. لا يحتدّ، أو يغتاظ. الخبر يسري بين أهل البلدة أسرع من انتقال الخرطوم؛ أنّ أغوستين مينور قد فرَّ من الخدمة العسكريّة. يقولون: إنّ مارثيلو قد فرَّ من الخدمة العسكريّة. لم يره أيّ شخص، لكنّهم رأوا أغوستين هارباً من ميدان كالباريو، بينما تنطلق ساقاه كالعنفات. يقول أحدهم: إنّه رأى فلوريس يصيبه برصاصةٍ في ظهره. ورآه المحامي ريباس بينما يجري ويخلع ملابسه في الشارع؛ اللعين! كان ينزع الزيّ العسكريّ. «شخصٌ آخر أقل». قال لنفسه بحزن.

عَبَرَ الخرطومُ البيوت، هذا طبيعيٌّ. نهرٌ في واديه، لكنْ بالنسبة إلى بلوتاركو لم يكن يسري بسرعةٍ كافية. بصوتٍ أجشّ، وصبرٍ نافدٍ، يأمر بالسؤال عبر سلسلة الأصوات إن كان يجب أن يفتح البنزين؛ يريد أن يقوم الحصان الشابّ بركل أسوار الحظيرة، وأن يحطّم الجلد الذي يحتويه بركلاته. المرآب يُبهظه. رائحة البنزين تبدو له محسوسةً داخل الخرطوم. لكنْ لا إجابة تأتيه من الأمام. من يعرف أين يضع طائري منقاره الآن. وكلّ برهةٍ يطل ساليناس ويسأل: متى؟ وتقتصر إجابة بلوتاركو على أنّ ما يعرفه كلّه أنّ أمتار الخرطوم تنفكّ، وأنّ كلّ شيءٍ سيصل إلى نهايته في لحظةٍ ما، مثل الحياة نفسها، من دون الذهاب بعيداً، التي خُلقت لكي تنتهي، والقطارات لكي تصدأ، والسفن لكي تغرق. «ستأتي لحظةٌ». يقول، بينما يضع إصبعاً في أنفه، حيث سيصل الأمر مرّةً أُخرى، واليد تضغط على اليد مرّةً أُخرى، واللسان سيقول: حظّاً سعيداً. «لسانٌ من اللهب». هكذا وصف الصحفيّ المحليّ الأفق في ذلك اليوم، عندما احترقت محطّة قطع الأخشاب. حظٌّ سعيدٌ يا ساليناس، أيّها الحَمام الزاجل. يضحك بأسنانه المُتباعدة لكيلا يتبوّل على نفسه. الآن سيقولون: «الآن». وحينئذٍ، سأدير

المقبض بنعومةٍ شديدةٍ، كأنّني أقود أحدث موديل من شيفروليه، وبعد ذلك، بالرغبات المتجسّدة كلّها من المادّة المساميّة لأحلامي، سأفجّر الضغط لكي يتدفّق السائل بمهابةٍ، فيشعر الجيران أنّهم يحملون جمرةً بين أصابعهم، صولجان الملك بين قطعةٍ وأُخرى، دفقة صيفيّة حارقة، ومطريّة، وشلّاليّة؛ مطراً ذهبيّاً. البنزين المثير للحيرة سيبلّل كلّ مليمتر في مقرّ القيادة. ستأتي لحظةٌ يا سيّد أنطونيو، حيث ستصبح السماء شُعلةً. سيتحوّل مقرّ القيادة من نمرٍ إلى مهرّجٍ مسكين. لن يكون لديك وقتٌ يا سيّد تشيبي لكي تقول: إنّه يبدو حُلماً. حينئذٍ سينفُذ الفتيان من الأسوار، وسيخرجون من تحت الأرض من ثقوبٍ مستحيلةٍ، بأيديهم المترعة بالمسدّسات، والمدافع الرشّاشة، والبازوكا، وبونتو 30.

لكنّ الهدوء العفن الذي يصيب المرء بالتوتّر لم يعد موجوداً.

إن كان هذا يحدث لآخرين، فإنّ ساليناس أيضاً سيجري. هل انطلقت في الركض يا بلوتاركو؟ دودة؟ سلحفاة باردة تتقدّم خطوةً، وترجع خطوتين. هل تريد الخروج متباهياً كسلطعونٍ مقلوب؟ يضيف أمام باب المرآب: اللعنة! ماذا يحدث، إلى درجة ألّا شيء يحدث؟ هيّا، أطلقوا الشعلة. وبلوتاركو قُدَّ من التوتّر الصافي، ويجب عليه أن يقول الكلمة التي لا يحبّ خروجها من فمه، المقطعين اللذين يصيبانه بالاكتئاب: هد-وء.

وساليناس يسمع عربة الجيب الخاصّة بفلوريس، ودبّابة فلوريس في كلّ محرّكٍ يدور. من الصعب ألّا تصل إليه الأخبار، وألّا يعرف بما يحدث. عادةً ما تكون مؤامرةٌ بين أكثر من شخصين في هذه البلدة أكثر انتشاراً من المقطع الاستهلاليّ في أغنيةٍ من الأغاني الرائجة. تلك الدرّاجة الناريّة القادمة، اللعنة! إنّها دبّابة فلوريس، ذلك الطائر الذي يغرّد في عربته

الجيب، العين الهائلة للهيلوكوبتر التي ترمش في السماء كلّها، ولا تحصد سوى ذلك المرآب اللعين! سيقتلوننا قبل الأوان. الخرطوم اللزج الذي يتعقّد ويتمدّد على خصور المتآمرين. إنّهم يتحسّسونه يا رجُل! فلوريس سيمزّقنا بقنبلة. لن يكون مقرّ القيادة هو ما سيشتعل، إنّما جلودنا نحن -أبناء العاهرة- الذين تورّطنا في هذا الأمر؛ لأنّنا بلهاء. الوطن أو الموت، أجل، لكنْ بسرعةٍ أكبر من فضلكم يا رفاق، لأنّ مكبّرات صوت فلوريس تصيح في الأماكن القريبة: «أغوستين مينور، يا ابن العاهرة! يا شيوعي». أرشف البيرة بين الرصاصات، وأبصق لعاباً أجشّ، وأثقب أحجار البيوت بدفقاتٍ غزيرة. «فجِّر الأسطح، دمّر القرميد!». يصيح فلوريس: «أُخرج يا ابن العاهرة!». وانعقد الخرطوم المرتخي الذي يجب أن يكون دوّامةً كاسحةً، وهو يتمهّل في كلّ بيت. يعتقد الملاعين أنّه زينةٌ لعيد ميلاد، وبلوتاركو، الذي يبدو ما تحت أظافره دامياً، يعتقد أنّه يسمع الأمر: «هيّا بنا». لكنّه في الحقيقة لا يسمعه. ما الذي يعطّلهم؟ الثعبان التائه على مسافة مئتي مترٍ في المقدّمة. لا بدّ من أنّهم قد أخرجوه ليتنزّه في الحديقة. ليتصوروا معه. حظٌّ سيّئٌ عاهرٌ يا بلوتاركو! لا بدّ من أنّه قد حلم كثيراً بهذا المهرجان الناريّ الذي يقضي على الحصن المنيع لسوموثا في مدينة ليون، لكي يراهن عليه بين مدمنين للحركات الأكروباتيّة لأوراق الكوتشينة. طيور جريون غير مدرّبة، جيّدة في الزقزقة، لكنّها لا تمتلك أنياب الذئب والنظام البافاريّ الألمانيّ. أيّ بافاريا يا أخي؟ إنّنا غارقون في الحرّ حتّى آذاننا. وإن سقط الجليد ذات يومٍ في نيكاراغوا يا ساليناس؟ هذا يمكن أن يحدث في القصص فقط يا لعين! من يدري يا سالي؟ إن سقط سوموثا ستحدث أمورٌ غريبةٌ لا يعرفها أيّ شخص. أخي بلوتاركو، إن وضعت ترومتر في مؤخّرتك، أعتقد أنّه سينفجر.

حُطام، مواسير المياه في بيت أنطونيو مينور أصبحت حطاماً. إنّه فأس أكثر منه خرطوماً. ضربة بلا بوصلة، قرية بلا ملّاحين. مجرّد نزهةٍ في قوارب صغيرةٍ في البحيرة لإيقاع الفتيات الصغيرات في الحُبّ. أمُّ أغوستين تأتي بدلو، وأنطونيو يأتي بممسحة. يجب إزاحة الوعاء الموجود في الحمّام يا رجُل؛ لأنّ هذا المكان سيغرق. وفي الوقت ذاته يصل صوت المُقدّم على رصيفه، هذه العظاءة تتسلّق الجدران، مكبّر الصوت يؤزّ ويضاعف دويّ الرصاصات، إنّه فلوريس يا امرأة، فلوريس. «أغوستين مينور، يا عاهر، يا هارب، يا ابن العاهرة، يا من تتبع ساندينو!». تقول: «إنّه قادمٌ إلى هنا». وتكرّر: «إنّه قادمٌ إلى هنا». يقول الأب: «إنّه قادم. إنّه يبحث عنه». والآن، الصمت. في هذه المرّة أتى برصاصٍ أكثر من الكلمات. يقول بلوتاركو على بُعد مئتين وعشرين متراً: «إنّه فلوريس. بهذا الإيقاع، قبل أن يصل الثعبان إلى مقرّ القيادة سنجد ثقوباً في رؤوسنا. الإعدام رمياً بالرصاص أمام جدارٍ يا سالیناس. سيضعون في مُقل عيوننا ديداناً أكبر من الخرطوم اللعين!». قالت كبرى النساء المُعمّرات في البلدة: «أسرعوا يا ملاعين!». احملوا التنّين الذي يلفظ ناراً، وامتطوا حصان طروادة. سمع السيّد أنطونيو قعقعة عربة الجيب على أرض الشارع غير المستوية، ومكبّر الصوت صدرٌ مختنق: «أُخرج يا ابن العاهرة!». تقول آماليا: إنّهم سيدخلون. يبتسم أنطونيو في النهاية، ويقول: اللعنة على بلوتاركو وخطّته! مجنون. الثعبان الذي أغوى آدم هو الذي بات حلمه على هيئة خرطوم. نغمات جنائزيّة عوضاً عن موسيقا احتفاليّة. يسأل السيّد راميريث: ماذا سنفعل؟ من على بُعد مئتين وعشرين متراً، وفقاً لحساباته. يسمعه أنطونيو مينور، ويضع القبّعة المصنوعة من الخيش على رأسه كما يضع المحارب خوذته، لا

يُقبّل زوجته، ويترك الماء ينساب من الحمّام حتّى غرفة النوم، ولا ينظر إلى صور فيكي وأغوستين بوجهيهما الملائكيّين في التناول الأوّل، ويخرج إلى الشمس الحزينة في مدخل البيت.

كان المُقدّم فلوريس هناك. برأسه المتعالي، والسيجار الكوبيّ بطيء الاحتراق الذي ينقله بسخريةٍ من جانبٍ إلى آخر في فمه، والحدقة اللاذعة التي تخترق النظّارة الداكنة، أكثر فصاحةً من المدافع الرشاشة المصوّبة عليه من عربة الجيب. وعندما يحكّ صدره، يغرق الصليب الذهبيّ في العرق:

- انتقل ابنك إلى صفوف الثوّار الساندينيّين أيّها اللعين!

يحني أنطونيو رأسه موافقةً. بطءٌ مفاجئٌ، وغيبوبةٌ بطيئةٌ للغاية، وبدايةُ حلمٍ تصيب عقله بالفوضى. يُفكّر بأنّ هذا هو ما يسبق الرصاصة، لكنّه يرفع وجهه مدهوشاً، عندما يهجم عليه المُقدّم، ويقبض على قفاه، ويدفعه نحو العربة.

- ستأتي كرهينة، أيّها العاهر! حتّى يظهر ابنك.

- 23 -

خوليو(*).

الشهر يحمل اسم زميل.

السيّارة تشقّ اللّيل. الطريق صامت. درب التبّانة.

ضجيج طائرةٍ في الأعلى. يوجد ضباب. نحمل الأسلحة بنزق.

يتوضّع هذا القطاع بين البحيرة والمحيط الهادئ. بالنظر إلى نيكاراغوا في الخريطة، تبدو كأنّها أمريكا اللاتينيّة. وهذا الخطّ في الطريق إلى مدينة ليون يُذكّرني بتشيلي. أمريكا اللاتينيّة. مدينة ثيلايا هي البرازيل. العاصمة ماناجوا هي بوليفيا. مدنية تشناندیجا هي بيرو، ونويبا سيجوبيا هي كولومبيا، وخينوتيجا هي فنزويلا. وإكوادور؟

إنّني عائدٌ إلى البيت.

هذا الصمت الهائل غريب!

السيّارة تتأرجح، لكنْ كلّ شيءٍ في مكانه. كما في أفنية الطفولة؛ أتذكّر بيت الكلب، وأعشاش الطيور. النمل الذي يصعد ويهبط إلى الشجرة بينما تنظر كلّ نملةٍ إلى الأُخرى. واحدة فواحدة. الكثير.

(*) يعني الشهر السابع الميلادي (تموز/ يوليو). (م).

ليون.

هذا الهدوء الذي يسع السماء. لا توجد نجمةٌ واحدة. السماء والطريق تائهان في سحابةٍ واحدةٍ تبدو لي لا نهائيّة. لم يسقط سوموثا بعد، وعلى الرغم من هذا فإنّنا ندخّن في هدوء. الموت لا يعلن عن نفسه. لا يطلب المرء موعداً من الموت كما يطلب من الطبيب. الأشياء لا تتكلّم؛ سرّ العالم كلّه في الصمت. لا أحد يتكلّم. نحن فقط نسير متعثّرين مع الكلمات.

أنا شاعر.

أنا في ليون.

نيكاراغوا كلّها حرّةٌ، ولكنّ الديكتاتور لا يسقط. ماذا يحدث؟ كيف تُقرَّر الأمور في التاريخ؟ نُخلّف البراكين وراءنا، ثمّ تغرّد الطبيعة في صمتٍ. البشر يتحدّثون فقط. نخطب، نصرخ بقوّة، أو ببطء. ما عدا ذلك كلّه صامت.

لماذا نشعر بحدّة هذا التوتّر بين دخان السجار الذي يخرج من نوافذ السيّارة، ويمرّ عبر الأعمدة على الطريق؟

أشعر أنّني لا أعيش في الحاضر، إنّما في نبوءة. أطلب إلى البدين أوسوريو أن يُدير المذياع.

يسألني بلكنته الجنوبيّة:

- لماذا تريد سماع المذياع يا غبيّ؟

أقول: «إنّها النبوءة؛ لديّ حدسٌ بأنّ سوموثا قد رحل».

يقول لي:

- أنت أبله، لم يسقط.

- «كيف تعرف؟». أسأله.

- لو كان قد سقط لعرفنا.

- كيف؟

- لا أعرف أيّها الأبله!

قد تطير السيّارة، وتشتعل السماء، ستأخذ الطيور في الغناء. أيّ شيءٍ غريب!

أقول له:

- أدِر المذياع.

يستجيب أوسوريو. بندقيّته الجاراند مستريحة على بطنه الكبيرة. الرياح تجفّف العرق على جبهته. يضغط على زرّ المذياع ماركة «هاي فيديلتي» في العربة بونتياك، وأوّل ما يصدر هو صوت مُغنٍّ أمريكيّ. دين مارتن؟ سيناترا؟ من الذي غنّى:

Money burns a hole in my pocket?

يقول البدين: إنّه دين مارتن. ويرفع الصوت، ويصفر نغمة الأغنية مع دين، ويتبع المقاطع كأنّه تدرّب طيلة حياته من أجل هذه اللّحظة الرائعة؛ حيث الطريقُ سحابةٌ. سمعت أبي يغنّي هذه الأغنية، وأمّي أيضاً. سمعتهما كليهما، قبل أن يرحلا عن هذا البلد العفن، ويتركاني بمفردي لأتجرّع القانون الرومانيّ.

رحلةً سعيدةً يا أبواي. سأصبح شاعراً.

الطيور كلّها صامتة. مهرجانٌ من الطيور الصامتة. البونتياك المريحة تمتصّ اللّيل. لا توجد نجمةٌ واحدة. غارقان في هذه العزلة كأنّ الطريق من أجلنا فقط. الأسفلت سجّادة نصرٍ للشاعر ليونيل، والبدين أوسوريو.

حتّى الأمس كانت خصورنا في المستنقعات. نفتح الطريق بالمناجل.

ننام على أسطح البيوت بينما ينظر إلينا قطّ، وبعد ذلك يلعق ذيله ببطءٍ، ومصابيح الحرس الوطنيّ تبحث عنّا. اليوم نتحرّك بسيّاراتٍ، والعلم الساندينيّ يتموّج على الهوائيّ، ودين مارتن يغنّي في مذياع ماركة «هاي فيديلتي».

بالإمساك بها مُصغَّرةً هكذا، يمكن أن تبدو الثورة غريبة!

غريبٌ أيضاً توقّف الإذاعة بعد كلّ أغنيةٍ، كأنّ المذيعين يعدّون حقائبهم في الأستوديو، ولم يسعفهم الوقت للعودة إلى تشغيل الأغنية التالية.

أوسوريو ينظر إلي. كيف يمكن لشخصٍ بدينٍ إلى هذا الحدّ أن يمتلك هذه النظرة العميقة؟ الرياح تبعثر شعره. لا يوجد بيننا من يعتقد بوجود كمين. أعضاء الحرس الوطنيّ هربوا إلى هندوراس، وركبوا طائرات أمريكيّة، أو لجأوا إلى ملاجئ محصّنة، أو مقرّات قيادة. ماذا ينتظرون؟ جنود البحريّة الأمريكيّة؟ شروط الاستسلام؟ دعماً موعوداً؟ قال سوموثا: إنّه سيحكم حتّى عام 81، ونحن في هذا الطريق غير الصالح للسفر، الجدير بنا وبأقدامنا. نظر إليّ أوسوريو مليّاً، وابتسم لي. رددت له الابتسامة.

قال: إنّني كنتُ مُحقّاً. أشار بغمزةٍ من عينه إلى المذياع «هاي فيديلتي». لقد صمت المذياع اللعين!

نسمع الصمت. هل دخل الفتيانُ محطّة الإذاعة، واستولوا على مكبّرات الصوت، والأستوديوهات، والهوائيّات؟ نقطع كيلومترين، ثلاثة كيلومترات، ويصبح الطريق ناعماً فجأةً! قبلة وداع، ويدخل تيتو رودريجيث بينما يغنّي «من يُمكن أن يقول(*)».

من يمكن أن يقول: إنّ تلك الطفلة قد أصبحت اليوم امرأةً، وإنّني

(*) Quién diría

أحبّها بهذه الطريقة في الحبّ؟ أُنظروا أيّ أمور تحصل، من كان يمكن أن يتوقّع هذا؟

لم يكن هناك مذيعون.

لم يكن هناك سوى التقنيّ الذي يغرس الإبرة اللازمة في شقّ الأسطوانة، من دون أيّة كلمة. لا يوجد من يعوي كما يفعلون في نشرات الأخبار التي تذاع في دور السينما، لتقول: إنّ الحكومة ستسحق عصيان الخونة. لا يوجد سوى التقنيّ في الغرفة المبطّنة الذي يُقلِّب في أسطواناته المُفضَّلة. ربّما أغنية لمانثانيرو بعد أغنية تيتو. وبعد مانثانيرو، ربّما يكون دور كارلوس ميخيا جودوي، وفريق بالاكاجوينيا. أنت مُحقّ يا بدين. لو كان المذياع يذيع أغنية «زهور الصنوبر(*)» الآن من ماناجوا، لطافت هذه العربة وارتطمت بالنيازك والشهب، وكنّا سنصعد عموديّاً مثل صاروخ. كنّا سنعرف وسط هذا الطريق المدكوك بقذائف البازوكا والمشقوق بفعل الزلازل أنّ ماناجوا قد سقطت. قد سقطت إلى أعلى!

أسأل البدين:

- ماذا ستفعل؟

ينظر إليّ بعنقه ملتوياً، وساقطاً على بطنه. أُوضحُ له:

- بعد النصر.

تكشف الابتسامة عن صفّ أسنانه؛ حيث يبرز ناباه المبتهجان. يبدو أنّ فمه ممتلئ بالألعاب الناريّة. قال:

- إنّنا ننتصر.

- ماذا ستفعل؟ هل ستعود إلى تشيلي؟

(*) Flor de Pino

- يا رجُل!

- بعض الرياضة؟ شارب نحيل؟ رتوش بسيطة في جواز السفر؟

يحتفظ البدين بابتسامته متّقدةً. مصابيح السيّارة تتبع الأثر. يضغط السائق فجأةً على زرّ المذياع ويطفئه. بعيداً، لكنْ على نحوٍ لا لبس فيه، كان هناك تبادلٌ لإطلاق النار.

يقول:

-ليون.

تحقّقنا من وجود الأسلحة على ركبنا.

أفكّرُ: ليون.

- 24 -

كان الرصاص يدفع جنود الحرس الوطنيّ إلى التراجع إلى مقرّ القيادة، كما تقود الكلابُ النعاجَ. أعطى إغناثيو الأمر في الفجر، وخرجت المسدّسات والبنادق مترصّدةً من كلّ بابٍ، وسقفٍ، وشرفةٍ، ونافذةٍ، وفناءٍ، ومرآبٍ، في فوضى، أو نظام. قال إغناثيو: «نعم». عندما وصل أوسوريو من الجنوب، وعندما وضع العمّ إيميليو الخرطومَ بثقبه الكبير في الجدار، وعندما تركت ميريام صندوق الإسعافات الأوليّة، وأمسكت بندقيّة الفال من كابينة عامل السينما قائلةً: إنّها لا تصلح لترّهات الصليب الأحمر، وعندما اتّصل بلوتاركو عبر الهاتف بفرقة الإطفاء، وطالب مساعده بتشغيل السارينة، وعندما أوصل القسّ مكبّرات الصوت في الكاتدرائيّة بالأورغن، وأطلق العنان لأصابعه المهووسة لتنسج نغماتٍ بسيطة، وعندما لم يعد ممكناً أن تسقط قوّات الدعم للحرس الوطنيّ من السماء؛ لأنّ طيور النورس الفزعة كانت متّجهةً إلى هندوراس وميامي، وعندما كانت طائرات الهيلوكوبتر تدور حول حيّ «باث سنترو»، بعدما أثخنتها البازوكا بالجراح، وعندما كان الرقيب ثيفوينتس يسوّي كريم «بالم بيتش» براحتيه ليبدو شعره كمدنيّ، وينفض الغبار عن كتفي القميص،

ويحدّد خطّ البنطال بأظافره، ويخلع ساق الدولاب؛ حيث كان يخفي المال، ويمزّق الشارات العسكريّة من الزيّ الرسميّ، ويخبّئها في السروال الداخليّ، وعندما أعلن راديو «بينثيريومس» في ليون أنّ أنستاسيو سوموثا قد ركب الطائرة إلى ميامي حاملاً تابوت أبيه وسط المتاع، وعندما لم يتبقّ لفلوريس وجنوده عالمٌ سوى مقرّ القيادة المصنوع من الإسمنت والأخشاب، وعندما كانت بقيّة البلاد تصيح باسْم ساندينو، وعندما خرج علمٌ باللونين: الأحمر، والأسود، من كلّ نافذةٍ على ورقةٍ، أو لافتةٍ، أو لوحةٍ كرتونيّة، وعندما كان إرنستو كاردينال يطير مُتّجهاً إلى نيكاراغوا وبزغ ضوءٌ كبيرٌ على يمينه، لكنّه لم يكن صاروخاً مُصوّباً على الطائرة، إنّما الهلال الرائق الذي كانت الشمس تنيره.

لكنْ عندما وصل أمر إغناثيو إلى المرآب، تردّدت يد بلوتاركو لدى فتح المقبض. وصلت الإشاعة أسرع من الأمر: فلوريس لديه رهائن. وصلت أمُّ أغوستين إلى المرآب مارّةً عبر البيوت من الداخل، بينما تجري في أفنيةٍ، وتتفادى الرصاص، وقالت لساليناس ولبلوتاركو: «لقد أمسكوا بزوجي أيضاً».

لديهم رهائن. أخذ الهمس يصل عبر شقوق الجدران، وعبر المواسير المثقوبة. كان فلوريس يلتقطهم عشوائيّاً من الشوارع. اكتشف سحر الطريقة خلال ثانيةٍ واحدة: كان يُمسك بأحد السكّان بين ذراعيه، ويتوقّف إطلاق النار من أسطح البيوت على مضض.

تبادل ساليناس وبلوتاركو النظرات. كان رجُل الإطفاء قد تقيّأ مرّتين، وما زال يتناول تلك القهوة التي تأتيه من فجوة البيت المجاور، كانت قهوةً ثقيلةً كالوحل، ومترعةً بالسكّر. والآن يصدح صوت أرغن القسّ، وكان يجب أن تكون كلّ نغمةٍ شعلةً في واجهة مقرّ القيادة. كان بلوتاركو قد

أمر بتشغيل السارينة كيلا يهتمّ زملاؤه بالهجوم على حصن التلّ، ويركّزوا قواهم في المدينة. لأوّل مرّةٍ يسير كلّ شيءٍ على ما يرام كخطّه المنمّق، وفي اللحظة الحاسمة -في اللحظة الحاسمة التي مرَّت، أو أوشكت على أن تمرّ- لم يستطع فتح مقبض العربة الحمراء الذي سيزرع الحريق الحاسم في المدينة. سيشم رائحة النصر من دون أن يتذوقه. سيتقدّم الفتيان من أتباع ساندينو في الشوارع، ويهجمون على الحصن عندما يرون أنّ الحريق لا يقع، وسيمتلئ الشارع بدمائهم من دون طائل. سيواجهه إغناثيو في لحظةٍ ما، ويقول: إنّه خائن! وسيتبادل الاثنان النظرات في صمتٍ عقيم. فكَّر ساليناس، لكنّه لم ينطق الكلمات: «إنّها أمُّ فيكي».

تراجعت الأصوات في المسار العكسيّ للخرطوم: أخذوا ماريا مولينا. أخذوها رهينةً. أمسكوا بكاليتشو جارثيا. أخذوه رهينةً. لا مونشا رهينة.

يقولون: إنّ السيّد تشيبي أيضاً....

أخذ فلوريس يسوقهم. كان قد عثر على التعويذة مع السيّد أنطونيو. بعد ذلك أخذ يُطبّق الطريقة السحريّة ذاتها. كان قد دخل مقرّ القيادة بالسونكي مثبّتاً إلى البنادق، وعربات الجيب، والمدرّعات. لا بدّ من أنّه يتّصل بتشجوين عبر الهاتف في مكانٍ ما من سماء نيكاراغوا. «اقتحم بينما تُطلق الرصاص». هكذا طلب إليه تشجوين. الآن ينقصه أغوستين لكي يُرسل التيليغراف. مهما كان المنظار المُكبِّر قويّاً، لن يُقرِّب قوّات الدعم. حتّى إن فركه كأنّه مصباحٌ سحريّ.

ترك بلوتاركو المقبض، وعانق نفسه. لفَّ نفسه بين ذراعيه. بدا أنّ كلّ عصبٍ في جسده يُفكّر. بدا له أنّ كلّ نقطة دم منتبهة ومُتحفّزة. شعر بالرعشة في جذور شعره.

قال له ساليناس:

- إنّه أمر.

ردَّ مُتكوّراً على نفسه:

- أنا لست جنديّاً.

لم تعد هناك همساتٌ متسرّبةٌ عبر الجدران. الصرخات تصل من الشارع بالأسماء والألقاب: بلوتاركو، يوجد رهائن! السيّد تشيبي رهينة! السيّد أنطونيو رهينة! لا مونشا! عائلة أيبينور! سايدة ميندیتا رهينة!

قال ساليناس:

- إذنْ، سأترك السائل يتدفّق بنفسي.

توقَّف صوت سارينة الحريق. ملأت الرياح أنابيب الأرغن بنغمةٍ تهبط من العمود الفقريّ حتّى الركبتين، كأنّ الهواء الأخرس يحلّ محلّ سريان الدم في الأوردة.

تنفّس بلوتاركو عميقاً، وقال:

- افعل هذا.

اهتزاز السائل المضغوط جعل أيادي أهل الحيّ ترتعش. لم يكن هناك وقت للتعليقات. انتفخ نسيج الخرطوم المُرتخي، وانتفض كضربةٍ قويّةٍ من ذيل حصان. أفرغ البنزينُ حميّته الكاسحة بدفقاتٍ مثيرةٍ للنوبات القلبيّة، وبعطره البركانيّ الذي سيدخل في حالة نشاط. شعرت الأيادي المتردّدة أنّها منصهرةٌ في ذلك الدم الذي يشتعل في دقائق، ربّما في ثوانٍ. شعر أهل الحيّ أنّ أجسادهم تكبر على نحوٍ سحريّ، فمنحهم هذا الفعل قوّة أعصابٍ أكبر، وعظاماً أُخرى، وعزماً مختلفاً في العضلات، ومنحهم قوّةً لا يمتلكها أيّ شخص، الشخص المهان في غرفته منتظراً مجيء قوّات

الحرس الوطنيّ لتدهس الأوراق، والشبابيك، وأثداء البنات، وأدوات المائدة. كانوا يرون الشوكة كبندقيّة، وكلّ سكّينٍ لبسط الزبدة كسونكي تابع لساندينو، وفتات الخبز كرصاصات، وفي حظيرة الدجاجات الهزيلة، التي كانوا يسرقونها على أيّة حال لعمل الحساء، كانوا يرون قوّات الفرسان الساندينيّة التي ستدخل المعسكرات ذات يومٍ بالحراب لتقطع أعناق المدافعين عن نيكاراغوا السخيّة المسيحيّة الغربيّة، المحبّة للاقتصاد الحرّ، نيكاراغوا النبيلة ذات الأساس الإعجازيّ، وذات العائلة الكبيرة؛ حيث يحقّ للجميع أن يعيشوا في كنف أمّ الديمقراطيّة، المؤمنة بأبيها الموجود في الأعالي، أخت أمريكا، واقية من المطر في الشتاء، وواقية من الشمس في الصيف.

البنزين النهريّ الذي ينطلق عبر فم معدة الشعب.

الأيادي التي تملؤها النجوم. الهيكل العظمي لهم جميعاً مرنٌ، وخفيفٌ، وقويٌّ مثل السوط.

لم تتذكّر كبرى النساء المعمّرات في البلدة مثل هذا الجلال، ولا حتّى في أفضل القداديس طوال حياتها، أو حتّى في جنازة زوجها المقدّس إكسيكيل أورتيغا، الذي مات من دون أن يُطلق رصاصةً واحدةً طوال حياته، لكنّ كلماته الأخيرة كانت: «عندما يموت سوموثا، ابحثي عن طريقةٍ لإبلاغي». لم تشهد مثل هذا الإجلال حتّى وسط الصمت الثقيل في الكاتدرائيّة قبل عامٍ، عندما صلّى الأسقف في ذكرى الصحفيّ خواكين تشامارو، الذي اغتاله سوموثا في ماناجوا.

رأت كبرى النساء المعمّرات في البلدة كيف تمرّ النار عبر غرفة نومها، بينما تتناول رشفاتٍ بطيئةً من شاي «إيرل جراي»: الشاي الوحيد

المحترم الذي ما زال يصل سنويّاً من إنجلترا في علبٍ معدنيّةٍ مربّعةٍ ماركة «توينتجز». رأت النيكاراغويّين قصار القامة، والسُمر. الوجوه التي اكتست فجأة عزّةً يمكن مقارنتها فقط بصور القدّيسين في تقويماتهم. عدّدت كبرى النساء المُعمّرات في البلدة الستين، أو السبعين جاراً الذين يمرّ البنزين عبر بيوتهم بضجيج قاطرة، مثل حيوانٍ وحيدٍ، ربٍّ مُقتلعٍ من أساطير المايا، أو ناهوتل، ربٍّ جمعيٍّ هو في الوقت ذاته سحابةٌ، وشمسٌ، ورمالٌ، ومطرٌ، ونبتةٌ، ومحيطٌ، وبطنٌ، وذكاء. كبرى النساء المعمّرات في البلدة رأت أوردة ملاكٍ قياميّ في البنزين النافر الذي ينبش بمخالب وحشٍ لاتينيٍّ أمريكيّ. فكّرت وسط هذيان اللهاث، والتنهّدات، والإرشادات كلّه، واللوم والتوتّرات؛ بأنّ سقوط سوموثا لن يتوافق مع موتها؛ فهي ستعيش لتشهد هذا. انتابها هذيانٌ. بدا لها أنّها في المئة والخمسين من عمرها، وأنّها ستلد بنفسها ذلك الحيوان الناريّ كلّه في تلك اللّحظة. وانتهت باستعارةٍ سيّئة: كان الابن الذي لم أنجبه على الإطلاق مع إكسيكيل أورتيغا. رشفت شايها «إيرل جراي» بتمهّلٍ فلسفيّ. رفع معصمها النحيل المجعّد -لكنْ المتماسك- يد الفنجان من دون ارتعاش. رأت وجهها في الجانب المقابل لصورة إكسيكيل المُعلّقة في الزاوية المتقشّرة من المرآة التالفة (التي فقدت الزئبق) في بعض أجزائها، والمعلّقة على الجدار الذي ثقبه الخرطوم. قالت لنفسها: «لقد عشت الكثير. ربّما لن أموت على الإطلاق، وإن منحني الربّ الصحّة اللازمة سأقبل الأبديّة من دون اعتراضٍ، أو شكوى». اعترفت كبرى النساء المعمّرات في البلدة -ببهجةٍ في قلبها- بتدهور أرستقراطيّتها الإنجليزيّة التي جعلتها تتقيّأ في بنما في عزّ مراهقتها، عندما رأت لون الجلد اللاتينيّ الأمريكيّ. رشفةٌ أُخرى من الشاي جعلتها

تتذكّر أنّ أباها قد غطّى أنفها بمنديلٍ مبلّلٍ بعطر «أتكينسون»، الذي كان يحمله بعنايةٍ في جيب السترة، كما كان يحمل زجاجة ويسكي «بالانتاينز» الصغيرة. كان إكسيكيل قد أتى بها إلى ليون بعدما خدع أباها، الذي عانى ضيق التنفّس، بعيّناتٍ من الأنسجة الحريريّة متعدّدة الألوان، التي ستتيح له إنشاء دكّانٍ في نيكاراغوا، على شاكلة «جاث وتشافيز» في تشيلي، أو «لي جوبلينز» الباريسيّة. ابنته، التي ستصبح كبرى النساء المُعمّرات في البلدة؛ سيكون لها إرثٌ، فهُم يمتلكون ما يكفي من الجنيهات لملْء خزّانات حلبات سباق خيول لونج تشامبز، وسانت كلود في باريس، وحلبات العشب في لندن، وكميّة كبيرة من الماركات إلى درجة أنّ موظّفي موائد القمار جامدي التعبيرات في «بادين بادين» سيتبلّلون مثل الصراصير بعد المطر عندما يمدّون بضعة آلاف، مرّة واحدة، مع سماع: «انتهى وقت وضع المراهنات». كان العام ذاته الذي كتب فيه داريو: «منتصف النهار، مَلِكُ الصيف، كما كان الأجنبيّ الفرنسيّ يغنّي/ ذات منتصف نهارٍ متّقد/ الجزيرة تحترق. تشتعل النباتات المائيّة/ وترسل النار الزرقاء/ إنّها جزيرة كاردون، في نيكاراغوا/ أُفكّر باليونان، بموريا، أو بزانثينتو. ومع بريق السماء، ورقّة الماء/ تنهض في المواجهة شجرة كشمش أحمر استوائيّة، كأنّها جزيرة كورنث».

كانت قد قرأت القصيدة في مدّة راحةٍ من الإيروتيكيّة في مدينة ريباس؛ حيث كان شخير إكسيكيل يفضح قيلولَته للتعافي من رحلة زواجٍ بدت بداياتها مُبشّرة: فنادق أرضيّاتها مُغطّاةٌ بالسجّاد، وبها مراوح أقوى من تلك التي يستعملها رعايا الملكة في الهند، وعندما وصلوا إلى مدينة سان خوسيه نزلوا إلى الفنادق التي يرتادها مستعمرون حزانى، وباعةٌ

متجوّلون، ومدرّسو مرحلةٍ ابتدائيّة، وربّما زميلٌ ما لداريو ذاته، أقلّ شهرةً، ويرتدي بنطالاً أكثر تقشّفاً بكثير. المُفردة الأخيرة في تلك القصيدة كانت كلمة «حشرة الزيز». كبرى النساء المعمّرات في البلدة، التي كان نهداها في ذلك الحين صلبين وبحجم ثمرة الخوخ، وكانا ينتصبان مع لعقةٍ خفيفةٍ من لسان إكسيكيل على الحلمة، تركت الصحيفة التي نُشرت بها قصيدة الشاعر، وأخذت تتأمّل تناقضات ما تصفه مقارنةً بتجربتها الشخصيّة بين المُلاء المصنوعة من نسيج شوالات الطحين في ذلك الفندق الجنوبيّ، عندما تسلّل حيوان كبيرٌ بقدْر ما هو مقزّز، من الحمّام حتّى الباب، الذي كان مُحكم الإغلاق لسوء الحظّ. دفعت إكسيكيل بكوعها شاعرةً بالرعب، والرجُل الذي كان يعرف حُبّ المرأة للشعر الغنائيّ، تلك المرأة التي ستصبح ذات يومٍ كبرى النساء المعمّرات في البلدة، وصف لها الفأر المقزّز بأكثر كلمةٍ رقيقةٍ عثر عليها في نعاسه، وقال لها: «لكنْ يا حبيبتي، إنّه طائر سنونو». في عام 1917 كانت قد حصلت على شهرةٍ كمُعلّمةٍ ممتازةٍ للّغة الإنجليزيّة «باللّكنة البريطانيّة» بين تُجّار ليون الذين كانوا يرسلون بناتهم ذوات الجلود المائلة إلى الحُمرة والنحيلات لكي يتعلّمن لغة المُستقبل في نيكاراغوا، في دورسٍ خاصّة على يد من ستصبح ذات يومٍ كبرى النساء المعمّرات في البلدة؛ حيث كانت تنتهز الفرصة لكي تخرج بتفاصيل حميميّة عن حيوات الجيران، وبعد ذلك تنشرها خلسةً برباطة جأشٍ في السوق، وفي المتاجر. بمثل هذه التقنيّة والكفاءة، وفي عام 1978 كانت تتظاهر بالتدهور العقليّ المصطنع أمام الحرس التابع لسوموثا؛ لتدخل أكثر البيوت توتّراً لنقل الإخباريّات وشعارات الثورة الساندينيّة. قالت لإغناثيو: «كيف لشيءٍ بديعٍ للغاية، مثل: الرسالة الثوريّة،

أن يُطلق عليه (ذبابة)، في حين يطلقون كلمة سنونو على شيءٍ مقزّزٍ للغاية مثل الفأر؟ عندما يتعلّق الأمر باللّغة، فإنّ نيكاراغوا تمسي أكثر اضطّراباً من غواتيمالا». في عام 1936 دخل محلَّ الأقمشة رجُلٌ يحمل نظّارات ثخينة، بابتسامةٍ كالمدية، ويضع منديلاً كالبلطجيّ على عنقه، فأشار إلى أفضل الأماكن إضاءةً في الجدار، وأعطى لإكسيكيل وزوجته صورةً للرئيس الشرعيّ الجديد لجمهوريّة نيكاراغوا، وقدَّمه قائلاً: «أناستازيو سوموثا».

عندما رحل الرجُل وضع إكسيكيل الصورة في أعماق دولابٍ ذي مفصّلاتٍ تُصدر صريراً، وقال لزوجته آمراً: «ستعلّقين هذه الصورة في حالة الطوارئ فقط». وأضاف بينما يدخّن سيجاراً كوبيّاً من ذاك الذي مُنع عنه الهواء حتّى مات مختنقاً في بدايات عام 1950: «إنّه اللعين الذي قتل ساندينو». من ستصبح في عقد السبعينيّات إحدى أكثر النساء المُعمّرات في ليون، وفي عام 1979 ستصبح كبرى النساء المُعمّرات على الإطلاق بعد وفاة ماتيلدي إجلاسياس بسبب رصاصةٍ طائشةٍ، قالت له في ذلك الحين: «إنّ ساندينو ذاك يحظى بالإعجاب بين السود والسكّان الأصليّين من الهنود والفلّاحين». نظر إليها إكسيكيل نظرةً تشبه طعنها بسكّينٍ، وقال لها، قبل أن يضع قبّعته ماركة «باناما» لكي يذهب إلى النادي الاجتماعيّ، ويلعب مباراة كوتشينة: «نيكاراغوا». وعندما أصبح بجوار الباب أضاف: «إن كنت ترغبين في المزيد ممّا تحبّين، توقّفي عن الرهافة والترّهات». في 21 أيلول/ سبتمبر 1956، طرقَ باب دكّانهما فتيان شاحبان، زهرتا زنبق، ذاويان كشمعتين، ومُسلّحان بعتادٍ يكفي كتيبةً في الحرب. كان الوقت فجراً، فطلبا الاختباء لديها لبضعة أيّامٍ. كان الحرس الوطنيّ يبحث في ليون عن الشباب والمراهقين سعياً وراء بعض المجانين الذين أطلقوا

النار على سوموثا في «بيت العامل». اعتذرت من ستصبح كبرى النساء المُعمّرات في البلدة، وتعلّلت: «أنا مجرّد أرملةٍ مسكينة». لكنْ بالتزامن، جاءها الإلهام، وفتحت الباب قليلاً، وقادتهما إلى المخزن. وهناك، بين الأنسجة التي تملؤها العثّة، وأمتار القطيفة حائلة اللّون، والبريكال الذي قرضته الفئران، أو طيور السنونو كما يُطلقون عليها، عرضت عليهما شاي «توينتجز» واستمعت باهتمامٍ وانبهارٍ إلى حكاية الفتيَيْن: شاعرٌ زميل، اسمه روبرتو لوبيث بيريث، أفرغ رصاص مسدسه في جسد «تاتشو(*)»، بينما كانت الأوركسترا تعزف أغنية «كابايو نيجرو»، ليترك في صدره ثقباً شبيهاً بحفرة. قال الآخر: «ثُقبٌ مميتٌ كالقبر».

كبرى النساء المُعمّرات في البلدة، التي كانت تعيش الترمّل بلمسةٍ من البهجة في المكياج، وشيءٍ من الفخر في النهدين المنتصبين اللذين كانا معتادين على الفيتامين اللسانيّ للمرحوم إكسيكيل، وضعت إبهامها مثنيّاً بين شفتيها، فقبّلته، ثمّ قالت: «أُقسم بهذا إنّني لن أخونكما». فتحت الدولاب ذا الأوصال المُفكّكة، وأخرجت صورة تاتشو، فاستعملت شريطاً لاصقاً لتثبيت شريطٍ أسود للحداد عليها، وعلّقتها بابتسامةٍ تشفي في المكان الذي كان يشغله، وقبل خمس سنوات، إكسيكيل أورتيغا، مؤسّس متجر «ماريبوسا»، وفي اليوم التالي، عندما اقتحمت قوّات الحرس المدنيّ المكان ببنادقها متوتّرةً، اكتفت بالنظر إلى الصورة بحزن، ومن دون الكثير من الجهد، متذكّرةً المسرحيّات التي تُذاع في المذياع بعد الغداء، وأسقطت دمعةً ثقيلةً على وجنتها البريطانيّة.

في تلك اللّحظة، وسط تلك الفوضى التي تغمر البلدة، وتتشعّب فيها،

(*) لقب لأناستازيو سوموثا. (م).

لم تشعر فقط بمذاق المفارقة وغير المعقول اللذان يسودان أمريكا اللاتينيّة بالكامل؛ حيث يقوم رجال الإطفاء بإلقاء النيران عوضاً عن الماء، إنّما شعرت أيضاً بالمتعة الخالية من المفاجآت، التي تابعت بها كلّ ميليمتر من التمرّد.

كما كان يحدث في حفلات الرقص في شبابها، عندما لم تكن تنتبه إلى أن قدميها تتحركان بطلاقة مع نغمات الشارلستون تحت زهور فستانها الحريري وردي اللون وشلالات اللؤلؤ التي تملؤه، وتجذبان النظرات ذات الزرقة الغامضة للطلاب الإنجليز في نورويتش، أصابتها عدوى إيقاع التمرد من دون أن تدري، تقريباً من دون قصد، حتى ذهبت ذات يوم إلى الكنسية لتعترف للقسّ بعلاقة زنا عابرة ضدّ إكسيكيل قبل عقود، خطّطت لها، لكنّها لم تنفّذها قبل عقود، حينئذٍ قال لها القسّ: «أنتِ الآن كبرى نساء البلدة عُمراً». همست له عبر النافذة بينما يخنقها حرٌّ منتصف النهار: «إنّها كلماتٌ مقزّزةٌ كعبارة غزل». وردَّ القسُّ بإلحاح: «لكنّها إنجازٌ كرمزٍ في النضال ضدّ الديكتاتوريّة». وترك شفتيه عالقتين طويلاً بحلمة أذنها البريطانيّة الرقيقة. قالت له:

- آي جوت إت. لقد فهمت.

منذ ذلك الحين، قامت بإعداد قنابل يدويّةٍ من الألياف، وتبرَّعت بلفائف من الكتّان الأحمر والأسود لصنع الأعلام، وقصاصات وبقايا الحرير لعقدها على أعناق الشباب، والقطن لتضميد الجروح. وأصبح مكتبها مستشفى، وترسانة أسلحة، ومخبأً، ومقرّاً للعلاقات العامّة بين الثوّار الساندينيّين والكنيسة، وسكرتارية لأعضاء السلك الكهنوتيّ للشدّ من عزم الثوّار الساندينيّين. لكنْ في تلك اللّحظة، بينما ترى الخرطوم

مُعلّقاً بين جدارين في غرفة نومها، مثل الحبل المرتخي للاعب الأكروبات الانتحاريّ في الميدان الرئيس، شعرت بالرائحة النفّاذة للمادّة الحارقة التي تتساقط نقاطها فوق نسيج الدبلان، وشعرت أنّ نبضها المتسارع فجأةً، كان يُسقط بدوره بضعة نقاطٍ من الشاي على الطبق الصغير للفنجان. كانت ترتعش، وتوجّهت بالحديث إلى الرجُل ذي الشعر الرماديّ الذي كان يحاول التحكّم في مرور الوقود بضغط الخرطوم على صدره، وقالت له: «إنّه ليس مرض الباركينسون، لكنّني أضحك لأوّل مرّةٍ بهذه الطريقة».

عندما قالت أكبر النساء المُعمّرات في البلدة هذه الكلمات، أشار ساليناس لبلوتاركو لكي يذهب إلى مقياس الخزّان، وأغلق رجُل الإطفاء المقبض بتعبير إذعانٍ، ونظر إلى العينين المتوسّلتين لأمّ أغوستين، ثمّ أعلن:

- الخزّان فارغ.

ثبّتت السيّدة آماليا نظرتها عليه، وقالت:

- إنّها إرادة الربّ.

اتّجه بلوتاركو نحوها، وأمسك بيديها، وجذبهما لكي تتحقّق المرأة من أنّ وجنتيه متّقدتان، كتلميذٍ شقيٍّ، بفعل الدموع المنصهرة في البنزين والعرق.

- لكي تتذكّري طوال الحياة، يا سيّدة آماليا؛ أنّني أفعل هذا الآن باكياً.

قالت له:

- لا تكن مثليّاً عاهراً يا رجُل!

ذهب بلوتاركو إلى التجويف؛ ذلك الثقب الافتتاحيّ الذي مرّ عبره الخرطوم المتخبّط، والمستحيل، والمجنون، والنافر، والساخر،

والمرتحل؛ النفق النسيجي الذي يتوّج الخطّة الحارقة التي جرى تدبّرها خلال جلسات سهادٍ من الملاحظة، وجسّ نبض المتمرّدين المحتملين من الجيران، واستجوابات الشرطة، والاعتداد بالنفس، والإهانة أمام ضبّاط صف، وأمام فلوريس ذاته، وسخريةٍ وتهكّمٍ من الثوّار الساندينيّين الثملين برحيق النصر، الذين كانوا قادرين على الذهاب إلى الموت، والهجوم مرّةً أُخرى على مقرّ القيادة الحصين من الشارع قبل تجربة تخطيط رجُل الإطفاء. بلوتاركو راميريث، في خدمتك. وشعرَ بثقل نظرة السيّدة آماليا على عنقه المتين كمخلس. ومن دون وَلَهٍ، أو حماسٍ كما حَلم مرّاتٍ عديدة، وضع شفتيه فوق الثقب، وافتتح بصوته السلسلة التي ستحيل واجهة مقرّ القيادة إلى محرقةٍ بعد ثمانين ثانيةً بالضبط.

- 25 -

نارٌ منطلقة العقال، حاميةٌ، ممتلئةٌ بالعيون، كثيرة الألسنة، متأخّرةٌ، مفاجئةٌ، نجمة من الذهب، لصٌّ حطبٍ، مُخربٌ صامت، طاهٍ للبصل، ماكرٌ شهيرٌ بالشرر، كلبٌ مسعورٌ ذو مليون ناب. اسمعني، يا قلب البيوت، يا زهرة لا يمكن إفسادها، مُدمّرة للحيوات. أبٌ سماويٌّ للخبز والفرن، مُنجبٌ شهيرٌ للعَجلات والحدوات، لقاح المعادن، أساس الحديد الصُلب. اسمعيني أيّتها النار. يتّقدُ اسمكِ، ويشعر المرء بالمتعة لقول كلمة نار، إنّه أفضل من قول حجر، أو طحين. الكلمات تموت بجوار سهمك الأصفر، وبجوار ذيلك الأحمر، وبجوار عُرفك القرمزيّ، تصبح كلماتٍ باردة. تُقال كلمة نار، نار، ويشتعل شيءٌ ما في الفم: إنّها ثمرتك التي تحرق، إنّها أكاليل الغار التي تحترق، لكنّك لست كلمةً فقط، على الرغم من أنّ أيّة كلمةٍ لا تمتلك قبساً، تنفصل وتسقط عن شجرة الزمن. أنتِ زهرةٌ، طيرانٌ، اكتمالٌ، عناقٌ، مادّةٌ لا يمكن الإمساك بها، دمارٌ وعنفٌ، حيطةٌ، جناحٌ عاصفٌ للموت والحياة، خلقٌ ورماد، شرارةٌ باهرة، سيفٌ ممتلئٌ بالعيون، قُدرةٌ، خريفٌ، صيفٌ مفاجئٌ، رعدٌ جافٌّ من البارود، انهيارُ الجبال، أنهارٌ من الدخان، عتمةٌ، صمت. أين أنتِ؟ ماذا فعلتِ بنفسك؟ فقط الغبار

الذي لا يمكن لمسه يُذكِّر بمحارقك، ليبقى على الأيدي أثر الزهرة، أو الاحتراق. في النهاية أجدكِ في أوراقي الفارغة، وأُرغم نفسي على الغناء لكِ، يا نار، الآن أمامي، لتظلّي هادئةً بينما أبحث عن ليرا في كلّ ركن، أو الكاميرات ذات البرق الأسْود لأصوّرك. في النهاية أنتِ معي، ليس لكي أدمّر نفسي، أو لكي أستخدمكِ لإشعال الغليون، إنّما لكي ألمسكِ، وأمسّد شعركِ، خيوطه الخطرة كلّها، ولكي أصقلكِ قليلاً، ولكي أجرحكِ، ولكي تكوني جريئةً، أيّتها الثور القرمزيّ. لتكوني جريئةً، أحرقيني الآن، وادخلي في أشعاري، واصعدي أوردتي، واخرجي من فمي. الآن تعرفين أنّكِ لا تقدرين عليَّ؛ فأنا أحوّلك إلى قصيدةٍ، أصعد بكِ وأهبط بكِ، أحبسكِ في مقاطعي، أسلسلكِ، أجعلكِ تصفرين، تنسابين في زقزقةٍ، كأنّكِ طائر كناري محبوس في قفص. لا تأتي بعباءتكِ الشهيرة كطائر من الجحيم. أنتِ هناك محكومٌ عليكِ بالحياة والموت. إنْ صمتُّ ستنطفئين. إن غنّيتُ ستذوبين وستعطينني ما أحتاج من النور. بين أصدقائي كلّهم، وبين أعدائي كلّهم، أنتِ الأصعب مراساً. الكلّ يحملونك مُقيّدةً، شيطاناً في الجيب، بركاناً مختبئاً في صناديق وقرارات. لكنْ أنا لا. أنا أحملكِ بجواري، وأقول لكِ: لقد حان الوقت لكي تكشفي لي عمّا تستطيعين فعله. انفتحي، أطلقي شعركِ المعقود، واصعدي، وأحرقي أعالي السماء. اكشفي لي عن جسدكِ الأخضر والبرتقاليّ، وارفعي أعلامكِ الخضراء، واتّقدي فوق العالم، أو بجواري، هادئاً مثل حجر توبازٍ بسيط، وانظري إليّ ونامي. اصعدي السلالم بأقدامك العديدة. احصديني. عيشي؛ لكي أتركِ مكتوبةً، لكي تغنّي كلماتي على طريقتكِ، بينما تتّقدين.

مكتبة
t.me/t_pdf

- 26 -

رفع فلوريس رأسه حائراً، ولم يستطع لَمْحَ أدنى أثرٍ لطائرةٍ، أو هيلوكوبتر في الهواء. كانت قوّات الحرس قد تركت مواقعها في الأبراج، كانوا ينتظرون الأوامر وسط الفناء بينما خلعوا السترات العسكريّة لكي يختلطوا بالرهائن. كان حصار اللهب كاملاً. في أيّة لحظةٍ يمكن أن يهبط الثوّار الساندينيّون من السقوف، أو يتعلّقوا من الأسلاك كالعناكب، أو يصعدوا على الأعمدة الخشبيّة كالسناجب. النار مثيرةٌ للدوار. فلوريس الرائد يرقص مع مارتا، التي تقول له: «خذ حذرك يا فتى». الشقّ بين النهدين. زهرة سوسن. آل ديبالي هُم عرّابو حفل الزواج، البِدَل السوداء على رجالٍ قُدّوا من الإسفنج. فساتينهنّ الطويلة تبدو صواريخ خفيفة. لم يكن خوان بدرو قد وُلد بعد، ولا أليخاندرا، وبابلو أندريس. بلدٌ جميلٌ للغاية، مُشتعلٌ! ربّما يأتي تشجوين بعد ذلك بالدبّابات والبازوكا. وربّما يصل رجال الإطفاء، وتاشتو -صديق الروح، وأبٌ روحيّ- إن كان حيّاً كان سيدخل مخبأه المحصّن، ويجهّز للهجوم عليهم. مقابل كلّ رصاصةٍ يُطلقونها عليه سيهجم عليهم بالقنابل. الطيران يُغرق الأرض المعشبة المجاورة. لم يكن تاتشو من أولئك الذين يتخلّون عن الأصدقاء في ساعة

الضيق. لم يكن مثل القائد آرايا الذي يزجّ بالآخرين في السُفن، ويظلّ هو على الشاطئ. كان تاتشو سيمضغ ماناجوا بصفّي أسنانه المنتظمة، وبابتسامته الجديرة بالظهور في التلفاز، ومن هنا ستأتي الثورة المضادّة. كان سيقول: إنّ هذا الأمر «فينيش»، أو مُنتهٍ. حسناً إذنْ. ها هو قائده فلوريس عالقٌ وسط تلك الحلقة الناريّة. يا داريو. تسقط القوائم، ألسنة خضراء، الجنود ينتظرون خروجي، وأنا أنظر إلى السماء فقط. «خُذ حذرك يا فتى». نيكاراغوا تحترق، بلدٌ جميلٌ للغاية! مشكلاتٌ ثانويّةٌ خاصّةٌ بالمهنة. يا تشجوين. الرجُل العسكريّ يمتلك خصيتين تحت البنطال، وليس حمّالةً للأشرطة، أو ملابس داخليّة منقوشة، أو قميص نوم. قُطعت الاتّصالات. أغوستين مينور الساندينى الناكر للجميل، والتعِس. لم يكن هناك ما يكفي من الوقت لتغيير الشيفرة. كلّ هنديٍّ حقيرٍ من السكّان الأصليّين يمكن أن يبثّ ما يخطر له لمركز العمليّات في «لا باث». أغوستين فوق عمود تلغراف يدسّ أظافره ليفسد إشارة دبّاباتي، وعربات الجيب خاصّتي، وفتياني المرهقين تحت إمرة ثيفوينتس، الذين يحملون زمزميّات وبراميل المياه، ومُحمَّلين بالعواصف والغرق، بهذا العطش، وهذا العجز. أغوستين مينور ابن العاهرة الخائن! أراه فوق عمود التلغراف، بينما يشوّش على الأوامر، ويربك جنوداً من الشمال، ومن الشرق، مثل طفلٍ يلعب بدمى صغيرة من الرصاص، بينما أتحمّص داخل هذه النار اللعينة. الماء يخرج مغليّاً من المواسير. نقطة فنقطة. لقد قطعوا الخدمات العموميّة. ابتلعت الأرضُ الخزّانَ الاحتياطيّ الأخير. هؤلاء الجبناء متوتّرون. يتوقون لكي أخرجهم من حيرتهم، وأعطيهم التعليمات التي ستنقذهم. يُطلقون عليّ لقب «البركان» -وهذا أمرٌ غريب- وهُم من أوقعوني في النار، لكنّني سأعيش، يا أغوستين، يا ابن العاهرة، يا خائن! سأعيش يا تشجوين.

سأخرج من هنا مع هؤلاء البلهاء، وسأشقّ الطريق بالرصاص حتّى ملجأ تاتشو الحصين في ماناجوا. إن كان ألّيندي الذي كان شيوعيّاً قد مات في هجوم، فلا بدّ من أنّ تاتشو الذي أعرفه كان سيقف كالأسد فوق مدفعه بونتو 50. يجب أن تكون ماناجوا ممتلئةً بالطائرات الوفيّة، تنسيق أمريكي. تشجوين سيكون هناك. إن كنت هناك، فابقَ هناك. فلوريس لا يحتاج إليك يا عاهر! سأخرج من هنا مع هذه الحفنة من الكلاب، وسأصنع تاجاً جميلاً من الرهائن.

درعٌ من الرهائن يا فتيان. سنخرج مُحصّنين بلحوم هؤلاء الوحوش. إنْ أرادوا قتلنا، يجب أن يخترقوا أجسادَ آبائهم، وأخواتهم، وجدودهم أوّلاً.

ركب فلوريس عربة الجيب. نادى على السائق بإشارةٍ من إصبعه. وقف فوق المقعد وصاح:

- سنخرج! ليمسك كلّ جنديٍّ برهينةٍ، ويستخدمه كغطاء، وأحيطوا بعربة الجيب.

تفرَّق الجنود في فناء مقرّ القيادة الترابيّ. كان الفزع أسرعُ من التفكير. أمسكوا بالرهائن المصفّدين، بأياديهم المقيّدة. أحاطوا أعناقهم بأذرعهم، وثبَّت كلٌّ منهم زاوية كوعه الداخليّة على أوردة العنق، ورفعوا البنادق بأذرعهم اليمنى، القدرة السحريّة للردع بحضورها، الواقي من الصواعق. قال أحدهم للحلّاق: «اِبق ساكناً يا عاهر، أو سأقتلك الآن». وأصيب الآخرون بالخجل، أو الفزع، ورغبوا بالتحدّي، أو الأمل، مرتعشين، أو عازمين. كلّ جنديٍّ أمسك رهينته كطفلٍ أنانيٍّ ممُسكٍ بدرّاجته. ككلبٍ يمسك بالقمامة. أحاطوا بعربة الجيب لاهثين. وقفت الدبّابة في الخلف،

وضجيج محرّكها يلفت انتباه الفتيان في الشارع. ليون بالكامل أصبحت بحيرةً محترقةً، وعبر بوّابة مقرّ القيادة التي تنفتح، يعتقد فلوريس أنّه يرى سفناً طافيةً ذات أشرعةٍ حمراء وسوداء.

يُجلس فيكي إلى يساره في عربة الجيب، ويُحيط كتفها بذارعه، ويضع فوهة المسندة على صدغها بأصابعه المتوتّرة. أحاط عنق السيّد أنطونيو بذراعه الأيمن، وثبّته بقوّةٍ إلى الجانب الأيمن من العربة. أشار للسائق ذي الملامح الصينيّة لكي يتقدّم. تحركّت عربة الجيب، وتعثّر السيّد أنطونيو في الأمتار الأولى، فصاح به القائد:

- تماسك يا أبله؛ سنسرع الآن.

وضع الجنودُ من تبقّى من الرهائن في تشكيلٍ على هيئة حدوة، ممتصّ صدمات: بائعة الزهور، والخبّاز، وزوجة الخبّاز، والطالبة، والسيّد لوثيو، وعازف الساكسفون، والقادة الأساسيّون الثلاثة للساندينيّين في متاجلابا بهياكلهم العظميّة البارزة، والجلود الممتلئة بجروحٍ عميقة.

حلّقت صرخة ميريام أعلى وأسرع من أوّل رصاصة.

- لديهم رهائن!

- معنا رهائن!

صاح الجنود بينما يحتمون خلف أجساد الرهائن. لم يعد هناك أيّ شخصٍ أمام بوّابة المُعسكر المؤطّرة بالنيران، فتقدّموا. كان السجناء ينتظرون أن تقوم وجوههم المتوسّلة بإخراس الرصاص، وحدسوا بالرصاص الغزير الذي سيحيلهم أشلاءً من الخلف إن حاولوا الفرار؛ ليسقط العنق مثل دمية ماريونيت بلا صاحب. خفتَ صوت الرصاص طويلاً. كان الساندينيّون فوق أسطح البيوت، وينظرون إلى بنادق طراز فال

بتوتّرٍ، وعزم أيديهم متشوّقٌ إلى الحركة، يُفكّرون بينما يصرخون، والوجوه مُتّقدة فوق الأسطح. أجل، كانت لحظةً يشعر المرء فيها بالتردّد. الصرخات تُخفض الأسلحة التي تطلب إسدال ستارة النهاية، والهوة للجنود، قبر من العلّيق المتّقد. لا توجد انفجارات. فقط مرجحات وتقلّبات النار. الرهائن تائهون في الدخان الكثيف غير الشفّاف.

- «سيخرج الرهائن!». يصيح الجنود.

- «سيخرج الرهائن!». يزأر فلوريس أيضاً، وينهض في عربة الجيب بعنق فيكي تحت ذراعه، وقفا رقبة أنطونيو مُتقلّصٌ تحت أصابعه.

يُفكّر الفتيان: «إنّه فلوريس». يشعرون بنبض الدم في مؤخّرات رؤوسهم، وتنقطع أنفاسهم لبرهةٍ، مُعلّقةً مثل أنفاس السيّد تشيبي على الباب، ومثل أنفاس أعضاء النقابات في متاجالبا. يقترب عامل العرض في السينما من ميريام بخفّة ظلّ منزلقٍ على سور.

- ماذا سنفعل؟

تعتقد ميريام أنّها ترى أعين الجميع منتبهةً في انتظار أوامرها لفضّ عقال الرصاصات، كأنّ هناك احتمال لتوجيه الطلقة الدقيقة إلى الجنديّ عبر ثنايا الدخان، وتقضيب جبهات البنادق لحصد رؤوس القتلة، وإنقاذ الألمعيّة العصيّة على التقليد في جبهة السيّد تشيبي، الحلّاق الذي امتلك نهديها بين أصابعه الماهرة مرّاتٍ كثيرة، ليضمّخهما بالزيوت والعطور من أجل حفلات أيّام السبت، وروّض الشعر البروليتاريّ من أجل حفلات الزفاف أيّام الأحد.

- ما رأيك أنت؟

نظّف عامل السينما العرقَ على جبهته بضربةٍ من يده:

- «الأمر لكِ». قال.

تقدَّمت ميريام حتّى منتصف الشارع، ورفعت البندقيّة بالمنديل الأحمر والأسود، مكشوفةً على نحوٍ لا لبس فيه، وأطلقت دفقةً في الهواء، ثمّ صاحت:

- لا يطلق أيّ شخصٍ آخر الرصاص.

داخل المعسكر، ارتطمت عربة الجيب بمؤخّرتي: السيّد تشيبي، والجنديّ المرافق له.

- تقدَّموا يا ملاعين!

الفضول على الأسطح حلَّ محلّ المهارة في الأصابع. تركَّز التوتّر في حدقات العيون. من القادم؟ من خرج؟

على الرغم من عدم إطلاق الرصاص، صاح السيّد تشيبي:

- لا تُطلقوا النار.

كان أعضاء النقابة من ماتجالبا مُعلّقين في أذرع سجّانيهم، مثل قطع النسيج، واضطرّ الجنود إلى رفع رؤوسهم حتّى يتمكّنوا من الاحتماء بها. كان التعذيب قد أتى عليهم، حتّى في لا وعيهم. عندما عبرت مُقدّمة عربة الجيب التي يركبها فلوريس البوّابة، أدركت ميريام أنّ البنادق كلّها، واحدةً فواحدةً، ستكون أسرع ممّن يمسكون بها. أدركت أنّ طلقات الرصاص ستتطاير قبل أن يكبح العقلُ الفتيانَ. وعلى الرغم من هذا فهمت حالة الشلل عندما رأت وجه فيكي المصبوغ بالدخان بجوار فلوريس، الذي كان يخنقها بعظامه، ورأت العنق المُستسلم، وتعبير الكلب الصغير المنهزم على وجه السيّد أنطونيو. وصاحت:

- فيكي! أنا ميريام، ميريام!

وصل إليها الصوت بعزم رصاصةٍ ذاته، وبقوّة مسدّس فلوريس الذي يضغط على وجنتها. صرخت فيكي:

- أطلقوا النار!

ظهرت القافلة المُكوّنة من عربتين على أرض الشارع. كانت ثقيلةً، والدبّابة تبدو كالجرّار، والجنود يحتمون بالرهائن كدروعٍ بشريّةٍ مُتعثّرةٍ مثل سبّاحين فوق رمالٍ ساخنةٍ. بدا أنّهم قد أتوا معهم بدخان الحريق؛ حيث باتت ظهورهم قِطعاً من اللهب، ومزقاً من النسيج المتكلّس المتماوج في النغمات العبثيّة في الأرغن الذي يضغط عليه القسّ. الأقدام كالإعصار فوق دوّاسات الدرّاجات، والسلالم التي تسلّقتها الأذرع، أو القبضات قبل الأصابع الملوّثة بالصراع. تقدَّموا كأنّهم سرابٌ، من دون حركةٍ تقريباً. الساندينيّون على أبواب البيوت والأسطح، والوجوه مُتّقدةٌ فوق قنوات تصريف الأمطار، وكانت أطراف أصابعهم تداعب الزناد، فانتظروا مرّةً تلو الأخرى الأمر البديل من ميريام، وتمنَّوا أن تُصاب حنجرتها بعدوى ذلك اللّهب، وأن تثق مرّةً واحدةً في دقّة تصويبهم التي تستطيع التمييز بين قلب الجنديّ الفاشي وعين الجار، وبين جبهة فلوريس المزيّتة ووجنة فيكي المُشتهاة، وبين قلب «البركان» الجامد الذي لا بدّ من أنّه ينبض في تلك اللحظة كضربات الأقدام، وصدغي السيّد أنطونيو المألوفين.

أخذ القتلة والأسرى الطريق نحو الجسر الصغير الذي سيقودهم إلى الطريق السريع، ومن هناك إلى الحصن، ومن الحصن نحو الفرار. الجنود أحرار. أظافر قدمي سوموثا، وحوافره المألوفة تحت رحمة رصاصاتنا، يقتربون من الفرار سنتيمتراً بسنتيمتر؛ هكذا فكّرت ميريام بينما تتقدَّم بجوار القافلة، وتضبط إيقاعها مع كلّ ميليمتر، ومع كلّ انتفاضةٍ على

أرض الشارع، ومنظار السلاح المشهر المُصوّب على الجزء الذي يكشفه فلوريس بين سجينيه. كانت فيكي قد صاحت: «أطلقوا النار!». لكنْ بم يفيد النصر بعد ساعةٍ إن ماتت، وانسحق السيّد أنطونيو تحت الدبّابة؟

توسَّل إليها عامل السينما:

- ميريام!

وسمعت ميريام ما كان صوت عامل السينما يطلبه. كان بسيطاً: سمعت الإحباط في قلوب كتيبتها واضحاً مثل الانفجارات الصادرة عن أنبوب عادم الجيب، وجرجرة الدبّابة. على الرغم من أنّ الصرخة كانت موجّهةً إليها، إلّا أنّها ظلّت صامتةً. كانت إجابتها الوحيدة هي الابتعاد عن السور، والاتّجاه إلى الشارع، فعرَّضت نفسها للخطر لكيلا يشكّ السائق، وكلّ واحدٍ من الرفاق في قرارها. كانت هذه هي ميريام التي تسير بجوار عربة الجيب، المألوفة والمعتادة في شوارع قريتها، كأنّ فلوريس وتابعيه أصبحوا بين أيديهم، كأنّ كلّ شيءٍ قد انتهى، ولا يفصل بين أتباع سوموثا والحريّة سوى بضعة أمتارٍ، وإن عجزوا عن الفرار فجأةً فسيقتلون الرهائن فور الوصول إلى الجسر. فكَّرت ميريام: «إنْ فكَّر الكلّ مثلي، سنكون جميعاً أمواتاً».

حاولت التكهّن بتكتيك فلوريس. واحد: أن يعبُر الجدول. اثنان: أن يُسرع. في هذه الحالة عليه أن يُطلق الرهائن. يربح الزملاء، ويفرّ الجلّادون. هؤلاء سيدعمون وحداتٍ عسكريّة أُخرى، أو ربّما يتفرّقون، وسيظهرون بعد النصر ليلقوا بقنبلةٍ على أحد مواقع الميليشيات، أو يطلقون رصاصةً على صدر مُعلّمةٍ، أو يشعلون النار في حصادٍ، أو يلقون الرمال في خزّانات وقود الحافلات، أو ربّما سيعطونهم هديّةً أخيرةً قبل الفرار؛

جثث إخوتهم المتناثرة فوق الجسر. في أيّة سيّارة يمكن ملاحقتهم؟ كيف يمكن لبلوتاركو، بلوتاركو الماهر، ألّا يكون قد مدَّ خطّته بمرونة النبلة التي استعملها عندما كان طفلاً لكسر زجاج بيوت منافسيه الغراميّين؟

بلغت عربة فلوريس الجيب الجسرَ. لأوّل مرّةٍ منذ نصف ساعةٍ يصل الهواء إلى رئتيه. منحه قلبه هدنةً من هذا الحصار الدمويّ، ومن هذه الدفقة الانفعاليّة.

أمكنه التنفّس مرّةً واحدةً قبل أن تتجمّد نظرته على الناصية المُقابلة للجسر. ظلّ الهواء عالقاً في شعبه الهوائيّة مرّةً واحدةً. كانت هناك عقبة، عظّاءة خضراء وقذرة. حذرة وماكرة، ومُغطّاة بالقشور والشوك. فكَّر المُقدّم فلوريس مرّةً واحدةً في عربة الجيب التي تواجهه مثل حيوانٍ، مثل حيّةٍ مصنوعةٍ من هذا الغبار السائل ذاته، ومن ذلك الوحل الذي يبدو أنّ المخلسين مجبولون منه. كان قد غرس عظامه على الجانب الآخر من الجسر بسرعة طيفٍ، وبانسياب شبحٍ. مرّةٌ واحدةٌ، وخلال لحظةٍ، قال فلوريس لنفسه: إنّ هناك أمراً ما على سطح الأرض لم يفهمه على الإطلاق، أمراً يبدو أنّ الديدان ذات المئة ساق، والحشرات، والطيور، والصراصير المقزّزة تفهمه. هناك شيفرة، جسرٌ لا يمكن الوصول إليه، يربطه بذلك الشعب الذي بذل من أجله الكثير.

لكنْ في الثانية التالية، عندما رأى أغوستين يهبط من عربة الجيب المواجهة له بالعجرفة الصاعقة لذوي السبعة عشر عاماً، متفاخراً بالمنديل ذي اللّونين: الأحمر والأسود. فتى مخلس من حيٍّ فقيرٍ، وماسح أحذيةٍ في مدينة ليون، يترك الغنج الثوريّ يلعب بعقله، غندور يحمل عملتيْ كوردوبا في جيبه، ويتمشّى ببطءٍ أمام سينما جونتالث بينما ينظر إلى

فخاذ الطالبات الملساء مثل الأسماك. ظهرت صورته الحقيقيّة في السائل السحريّ بالمعمل. استعاد ثِقله ورباطة جأشه. هبط من العربة كالمالك، كربّ العمل، كالعاهل، كالمعبود في الموقف المُحمَّل بالتَّرقّب. شعر بكلّ بندقيّةٍ، وكلّ نظرةٍ على قفاه، وحدس بالرصاصات التي ستفجّر عينيه، وتتركهما فارغتين مثل حدقات العميان الذين رآهم بالعشرات ذات مرّة في زيارةٍ إلى أحد مراكز الرعاية بينما كان يحرس تاتشو، ووقف في نقطةٍ أعلى من الأهالي، مثل نصبٍ تذكاريٍّ ضخمٍ، مثل غوّاصةٍ تطفو على ذلك البحر من الفضلات والسماد العضويّ، ومشروب عرق قصب السكّر الذي يسري في ذلك الدم الساندينيّ الذي سيسلّم نيكاراغوا للشيوعيّين الذين سيطعمون أبناءهم من الفضلات بعد شهور، على أفضل التقديرات المتفائلة، وسيلبسونهم مزقاً من الخيش، ولن يمتلكوا الصابون لغسل مؤخّرات الرُّضّع الذين سيولدون كعيدان الخوص، وستفوح نساؤهم برائحة عطورٍ محليّةٍ رخيصةٍ؛ لأنّ مزيلات العرق ستظلّ في ميامي، في مدينة كولون، ومدينة سان خوسيه، وسيحصل القادة على ثلاث نساء ممتلئات بالفطريّات، والأميبا، وداء المشعرات، مقابل دولارين، أو لقاء زوجٍ من الجوارب. نهض من عربة الجيب بكبرياء سهم. نهض داخل جسده المقدود من الحجر والرخام الذي لا بدّ من أنّهم سيشيّدونه في القريب العاجل تكريماً لدوره في الكفاح ضدّ الشيوعيّة، ولاحترامه العميق للعالم الغربيّ المسيحيّ والعائلة، من دون أسوارٍ خانقةٍ، أو نقابيّين بأجسادٍ بدينةٍ تسبح في حمّامات سباحة الفنادق الفاخرة. سيقاوم آخرون أفضل منه ذلك الوباء الذي أصاب النيكاراغويّين بهذيان الحمّى، الذين كانوا ذات يومٍ مجرّد حناجر تهتف للثورة، وفجأةً! أصبحوا رصاصاً، والمزيد من الرصاص، وتاتشو، بقلبه الكبير، يلتزم بلعبة الديمقراطيّة حتّى أخر ساعة.

نهض، كما لا بدّ من أنّ سوموثا يقف في تلك اللحظة في مخبئه، بينما يوزّع عباراته كاستراتيجيٍّ عبر الهواتف، واللاسلكي، والتلغرافات، التي ستصل إلى قادةٍ آخرين مصهورين في نار الوطنيّة في الأكاديميّة، والذين سيسحقون الهنود من السكّان الأصليّين كالحشرات السوداء التي كانوا عليها، مثل جِرار المياه الحمراء الهشّة الرخيصة التي يستعملونها. وقف فوق عربة الجيب، وسط نشوة وسكرة المجد، وذقنه متعجرف، وعيناه صاعقتان كالبرق، والحدقتان متّقدتان، وتوقّف أمام صورة أغوستين لبرهة، ثانية من الطيبة، من العظمة والكبرياء، والسلام مع نفسه. قال له:

- كنت أبحث عنك يا لعين!

رأى أغوستين ارتفاع السلاح حتّى أصبح ذراع فلوريس مشدوداً تماماً. اتّجاه الماسورة، نفخة في قلبه. وسار بضع خطواتٍ من دون اكتراثٍ لمعرفته بأجزاء الجسر كلّها، والنتوءات وتخلخل أحجاره، ولون نظرات كلّ جارٍ من جيرانه ورطوبتها، التي كانت تتوجّه في تلك اللحظة بشيءٍ مألوف؛ الدفء الحميميّ لتلك السماء فاقعة الزرقة التي أراد لمسها مرّات كثيرة عندما كان طفلاً بينما يُبَدِّل على تلك الدرّاجة ماركة «ريكورد» التي أهداه إيّاها أبوه أنطونيو في أعياد ميلاد عام 70، الشيء الوحيد الفاخر في حياته، التي جعلت فخذيه ينموان كجذوع الأشجار، تلك الدرّاجة كانت تحمله إلى بيوت الفتيات بسرعةٍ يحسده عليها سائقو سيّارات الأجرة المتعطّلون عند إشارات المرور كالأحجار، وتمنحه عضلات بطن رياضيّ، وجعلت ظهره مرناً كالنمر، ذلك الظهر الذي انحنى على ثديي ميريام في الأرجوحة الصيفيّة في الفناء الخلفيّ، وملأهما بسائلٍ لزجٍ؛ تحديداً كان المني الذي أبعدته نحو بطنها النحاسي: لا أحمل حبوب منع الحمل.

لمح من كانت صديقته في ذلك الوقت على جانب الطريق، والسلاح المتمايل بين جسديْ: السيّد أنطونيو، وفيكي. لم ير أغوستين ابتسامة أخته؛ لأنّها كانت تنظر إليه بجديّة، كسيّدةٍ عائدةٍ من التناول، مثل كبرى النساء المُعمّرات في البلدة، عندما كان يأتي لها بدرّاجته بالموستازا وأصناف الشاي الإنجليزيّ من بلدة بونلويا، لكنّ ابتسامتها ظهرت على فمه، وبالتحديد التجعيد على طرفيْ شفتَيْ فيكي، الذي كان منقوشاً بصلابة الجرانيت، وممتلئاً بالرفرفة؛ الارتعاش الفضيّ لسمكة تروتشا كهربائيّة في النهر، وقال له:

- أطلقْ سراح عائلتي أيّها الجبان!

قبل أن تُسقطه الرصاصة بتصويب فلوريس الاحترافيّ، شعر أغوستين بصرخة التحذير في نظرة ميريام. فكّر أنّ دمه يغلي، لكنّه رفع سلاحه كتحيّةٍ أكثر منه دفاعاً عن النفس، كأنّه يخرج من بحرٍ بطيءٍ؛ حيث غرقت الذكريات كلّها بين كنوز الطفولة التي حلم بها وسط اجتماعات الدعوة للعصيان مع فيكي وإغناثيو، وكان يراها تمرّ حوله، كرائد فضاءٍ بينما يطفو، بسترةٍ غير مرئيّةٍ مصنوعةٍ من الروائح والغبار أمام أبواب البيوت، ونفخة صدرٍ بينما يرافق أجمل فتيات البلدة من المدرسة في طريق العودة إلى البيت. على أسفلت الجسر، لم يستطع الشعور بذلك التأثّر المثير للاضطّراب، المختلط بأشياء كثيرة، الذي كان الموت.

ارتمى السيّد أنطونيو وفيكي على الفتى. كان فلوريس مُعرّضاً للبنادق الساندينيّة مثل الألواح التي كان المجنّدون يتدرّبون على التصويب عليها، وأدرك عدل الموت بهذه الطريقة، مُخترقاً بالرصاصات المُصوّبة عليه من الجهات الأصليّة الأربع، من الارتفاعات كلّها، والمستويات، والغضب.

شعر أنّ رباطة جأش العالم كلّها حاضرةٌ في عظام صدره المتعجرف، وأنّ قوّة الرصاصات ستجعله يسقط ويتمايل سفينةً تغرق، وتطفو في الأمواج الساخنة التي هزمتها. قبل أن تُطلق ميريام الرصاصة الأولى عليه، قال: «كلّ رصاصةٍ تُعدّ وساماً».

- 27 -

بدا لهم بديهيّاً وعصيّاً على التصديق أن يكون للنصر يومٌ في التقويم. كانوا يتجمَّعون في كلّ ناصيةٍ، وفي أيّ زقاقٍ، وعلى سلالم الميدان، وفي صفوف مقاعد الكنيسة، وكانوا يعزفون ويعزفون، ولا يستطيعون إخراج صرخةٍ أُخرى من حناجرهم. عندما وصلت القوّات الساندينيّة فوق تلك الدبّابات التي يمتطيها مراهقون ذوو ذقونٍ طويلةٍ شعثاء، بأصوات جُشّة قبل الأوان، كان الأهالي يرافقونهم كما الأطفال مع قائد فرقةٍ إقليميّةٍ في صباح الأحد. وسط هذا الزحام كلّه، شعر كلّ شخصٍ بنبض قلب الآخر، ولم يعرف أيٌّ منهم إنْ كان المذاق المالح في فمه يعود إلى عرقه أم إلى عرق الشخص المجاور. كانوا قد أعلنوا أن بورخيه سيتحدّث باسم المنتصرين، وتوافد الناس في صفوف، في طوابير نشوانة، من كلّ مكان، للاستماع لما كانوا جميعاً يرغبون بسماعه في ذلك اليوم من شهر تموز/ يوليو، حتّى إن أرعدت، أو أمطرت، أو فارت الأرض بالغليان، أو هبَّت نسمةٌ لطيفةٌ من بونيلويا: رغب الجميع بسماع بلوتاركو بينما يقول للقائد بورخيه، ويشير بإصبعه: «أيّها الرفيق، ها هو أمامك مقرّ القيادة التابع لسوموثا الذي أحرقه شعب ليون». بينما كانت المظاهرة تنحلّ وتنعقد، والقُبل تكتسي

أحياناً بشراسة العضّ، لم يكن أيّ شخصٍ يعتقد باستحالة قيام كبرياء هؤلاء الناس كلّهم على حمل عربة إطفاء الحريق طراز INSS, FCB 137 بعشرة آلاف ذراع إلى المنصّة التي سيعتليها بورخيه لإلقاء كلمته. واقترح سوبليمي ساليناس إطلاق اسم بلوتاركو على أحد الميادين، متعلّلاً بأنّ الكثير من الشوارع تحمل ألقاب أشخاصٍ بلهاء، وأقلّ ما يستحقّه الرجُل هو إطلاق اسمه على طريقٍ رئيسٍ، أو على ملعب البيسبول، أو على مسلة. كان بلوتاركو قد تلقّى التهاني والاقتراحات بحماسٍ لم يسمح له – في أوّل يوم – بتمييز السخرية المحتملة. الحُبّ والمودّة اللذان جاء كلّ جارٍ ليربّت بهما على كتفه، والروج المثير للاضطّراب على شفاه الفتيات المطليّة كما في الحفلات جعله يحلم بأوسمةٍ، ونياشين، وتكريمات، وكؤوسٍ فضيّةٍ وذهبيّة، وأشرطة تكريمٍ منقوشةٍ بدقّةٍ إنجليزيّةٍ على الأنسجة الفاخرة لدى كبرى النساء المُعمّرات في القرية. تمثال له ولعربة الإطفاء الملوّنة؟ نعم يا سيّدي، إضافةً إلى هذا، سيرسمون العربة باللّون الأحمر، والخرطوم باللّون الأسْود.

قال بلوتاركو بينما يرتشف زجاجة البيرة السادسة، التي قدَّمتها أمُّ إغناثيو هذه المرة: «إن عرضوا عليَّ تكريماً سأقبله». كانت المرأة التي يدفعها الناس كسفينةٍ سعيدةٍ في قلب البحر في يومٍ ممتلئٍ بالرياح. لا بدّ من أن تظهر في الأفق كتيبة «خوسيه بنيتو إسكوبار»، وبين صفوفها إغناثيو بعد شهورٍ وأسابيع من الاختباء؛ حيث كانت شوارع ليون الحبيبة محظورةً عليه. مرةً واحدةً فقط، في اللّيل، اتّفقا على لقاءٍ في الضواحي، وهو ما طحن كليتيها، وأوشك على إصابتها بسكتةٍ قلبيّة.

عندما اقترب ساليناس من مساعدي بورخيه، ووسط دوار النصر،

ونشوة الروم، خرج عليهم بفكرة أنّ أهل مدينة ليون لن يروا ضرراً في شيءٍ من الاعتراف الرمزيّ بالخدمات الجليلة التي قدّمها بلوتاركو راميرث للثورة. عندما طلب إليه المساعدون أن يعطيهم مثالاً، كان تفكير سالیناس مُجنّحاً وغائماً، وبدا لسانه أسرع من قدمي ميركوريو: وهو اللقب الذي أبغضه دائماً، ورأى من الملائم أن يخرج من بين شفتيه شيء هائل كمثال: المطار. حثّ رجُل حرب العصابات الخطى ليصل إلى القائد، الذي تظاهر بتحيّة وداعٍ حزينةٍ وصاح: «لقد وصلتَ متأخّراً، لقد أطلقنا على المطار اسم سيزار أوجوستو ساندينو».

رجلٌ واحدٌ فقط نزل عن الشاحنات التي تنقل مئات رجال حرب العصابات إلى الميدان، كانوا يتقدَّمون بين الهتافات والقبل التي توزّعها الفتيات. أسرع الفتى الخطى، وأصبح بعد دقيقتين أمام باب دكّان الحلاقة. رأى دون تشيبي أمام المرآة وهو يُتقن عقد ربطة العنق التي كانت تفوح بالأناقة فوق سترة الحفلات، وقماش إنجليزيّ اشتراه بعرق موسى الحلاقة من أكبر نساء البلدة عُمراً. صاح به:

- دون تشيبي!

استبق العناق الذي كان يطفر من قلبه بالكلمات. رأى الحلّاق وجهه في المرآة، ولم يكن قادراً على التعرّف إليه تحت الأوساخ، واللحية الشعثاء، والشارب المتهدّل الذي أخفى الفم الذي نطق بلقبه بهذا الحماس كلّه. استدار وصهره بشوق من لا يمكنه فكّ لغز كتابةٍ هيروغليفيّة.

- «أنا ليونيل!». صاح الفتى الذي سقط على صدر الحلّاق، والذي مرَّ بشفتيه على كلّ شعرةٍ في تلك اللحية الشرسة التنكريّة، التي لا تسمح بالتعرّف إلى صاحبها.

- «يا فتى». قال له: «يا فتاي الجميل!».

- لقد عدتُ حيّاً، اللعنة!

- «أنت حيٌّ، اللعنة!». استمرّ السيّد تشيبي في تقبيله. أراد فتحَ طريقٍ بقبلاته وسط تلك الغابة، وتذكر الوجه اللامع لطالب القانون الذي عقد معه نقاشاتٍ حاميةً للغاية حول الموضوعات كلّها في هذا العالم، ونصف موضوعات العالم الآخر.

- «سيد تشيبي!». صاح ليونيل: «سيّد تشيبي، اللعنة! هذا حُلم. أنا أعانقك هنا في دكّان حلاقتك، وما زلت حيّاً كأسد الجبال. لن أطلقك يا عجوز، حتّى إن جذبوني بجرّار».

- «عانقني بقوّة أكبر، اللعنة!». صاح به السيّد تشيبي: «لقد عدتَ كاملاً».

- أصبحت مثل سفينةٍ عابرةٍ للمحيطات يا سيّد تشيبي، وأصبحت ساقاي صلبتين مثل قوائم البغل.

أبعده السيّد تشيبي، وظلّ ينظر إليه حتّى طفرت منه الدموع غزيرةً.

- أنت مليح يا ليونيل.

- ماذا تقول يا رجُل؟! أنا ممتلئٌ بالأعشاب البريّة، وأسناني ممتلئةٌ بالوحل، وقدمايَ مسوّستان، ثقوب بحجم صخرة، وجلدٌ صلبٌ كحدوة الحصان، ورائحةٌ كالتيس؛ لهذا يتجمّع الذباب أينما توقّفت.

- «يا بُني». قال السيّد تشيبي متأمّلاً: «أنت رائع! كأنّ رسّاماً شهيراً قد رسمك».

- أجل، بيكاسو في المرحلة التكعيبيّة.

هزَّ ليونيل كتفيّ الحلّاق الضعيفين، وعندما أبعدَ يديه رأى البقعة

السوداء على سترة الحفلات الناصعة. أدخل أظافره بين أسنانه، وفتح عينيه عن آخرهما كأنّما ينسخ إجابة امتحانٍ من زميله على الدكّة. وعندما أراد نفض الضرر الذي أوقعه بظاهر يده، لم يؤدّ إلّا إلى توسيع البقعة الكبيرة.

- «معذرةً يا سيّد تشيبي». قال.

نظر الرجُل إلى كتفيّ السترة، ونفخ عليهما من دون حماسٍ، ومن دون نجاح.

- كنتُ ذاهباً إلى الميدان.

- انتظر قليلاً؛ أنا في حاجةٍ إلى أن تصنع لي معروفاً.

- تحت أمرك.

- أوّلاً: أريد أن تشذّب هيئتي قليلاً. هكذا أبدو كمحاربٍ في فيلمٍ أمريكي.

- هل تريد أن أحلق ذقنك؟

- لا يا رجُل! أريد أن تسوّيها قليلاً؛ أن تقصّ اللحية قليلاً، وأن تلقي على جسدي لترين من مزيلٍ للعرق.

- يا بُني، لن ألمس شعرةً في تلك اللحية بمقصّاتي.

- حسناً، على الأقلّ، استعمل المقصّ في شعري؛ قُصَّ نصف مترٍ.

فحص السيّد تشيبي الشعر، بينما يأتي رأسه بحركتين ميكانيكيّتين، مثل دمية ماريونيت يحرّكها طفل.

- يا ليونيل كاستيو، حتّى إن وصلت الدُّرجة في هذه البلدة اللعينة إلى ربط الأحذية بأفرع الشجر، ومات هذا الخادم العجوز بمقصّه صدئاً، وبموسه غير مصقول، لن ألمس شعرةً واحدةً؛ لأنّ هذا سيكون تدنيساً.

تقدَّم ليونيل إلى المرآة البيضويّة، التي عكست صورته في شكلٍ دائريٍّ، وسمحت له برؤية نفسه على نحوٍ حقيقيٍّ لأوّل مرّة. رمشت عيناه بسبب البريق الصادر عنهما. ظلّ يتفحّص نفسه بجديّةٍ ذاهلةٍ خلال عشر ثوانٍ، وبعد ذلك التفت إلى دون تشيبي بينما يرمش؛ كان يشبه حشرة فزعة تدور حول اللّمبة.

- سيّد تشيبي، لقد نسيت كيف كان شكلي!

- وماذا؟

- إن رأتني فيكي هكذا ستموت.

- أيّة فيكي؟

- فيكي مينور.

فرك السيّد تشيبي يديه بعدما غسلهما، ثمّ وضعهما في جيبي السترة. بعد خمس ثوانٍ أخرجهما وحكَّ وجنته. بعد ذلك ألقى شعره إلى الخلف، وربّت على تموّجات شعره الرماديّ فوق أذنه اليسرى، وعاد إلى نفخ البقع على كتفيّ السترة، ووضع قبضتيه مرّةً أُخرى في جيبيّ البنطال، وبعد خمس ثوانٍ أخرجهما، وحكّ جبهته بأظافره العشرة. أُصيب ليونيل بالتوتّر شيئاً فشيئاً.

- ماذا حدث يا سيّد تشيبي؟

- لنتحدّث قليلاً بينما أصفّف شعرك.

نظر ليونيل إليه ثانيةً، وترك نفسه ليسقط على مقعد الحلاقة الدوّار بينما يختلس النظر إلى تعبيرات دون تشيبي في المرآة. أمسك الأخير بالفرشاة المكوّنة من أقوى الألياف وغرسها في النباتات الكثيفة على شعر المحارب من دون أن يصل حتّى للمس جلد الرأس.

- «تصفيف وقصّ». أوضح السيّد تشيبي: «لن نقصّ الكثير، لكنْ سنحلّ العُقد».

سمعا صرير مكبّرات الصوت القادم من الميدان. قال السيّد تشيبي:

- سيتحدّث بورخيه.

- ماذا حدث يا سيّد تشيبي؟

- ماذا؟

- لقد تغيَّرتَ فجأةً!

ضغط الحلّاق بقوّةٍ على مقدّمة الشعر، ومن هناك أخذ في فكّ عقد الشلّال؛ شعر بمقاومة لبلابٍ متشابكٍ، جعلت معصميه يتحرّكان كالخلّاط.

- ماذا تخفي بشأن فيكي مينور؟

سقطت يد ليونيل كمنقار طائر نورسٍ على معصم الحلّاق.

- هل قتلوها؟

- لا يا رجُل، لا!

احتفظ الفتى بضغط قبضته من دون أن تطرف عيناه.

- هل رافقت شخصاً آخر؟

- «لا». قال الحلّاق: «هل يمكن أن تطلق معصمي؟».

كان الفتى منتبهاً إلى شفتيّ الرجُل، كأنّه يتلمّس الكلمات قبل خروجها من فمه، وقال له:

- ماذا حدث؟

- قتلوا أخاها.

مكتبة
t.me/t_pdf

مسّد ليونيل لحيته ببطءٍ. فكّر خلال نصف دقيقة، وهبطت نظرته، ثمّ هزّ كتفيه قليلاً.

- هذا العاهر سعى إلى الموت، كان في صفوف جيش سوموثا.

وسط حركة معصمه السريعة، شعر السيّد تشيبي بارتعاش اليد التي تقبض على الفرشاة، وانتبه إلى أنّ عينيه مبتلّتان، وأنّ مذاق الدموع في تلك اللّحظة يختلف عن مذاقها قبل خمس دقائق، عندما عانق ليونيل وصهرَه، وكانت هناك دوّامةٌ تصعد من عقبيه، وتدير رأسه كأنّه شرب شامبانيا في الإفطار. قال بصوتٍ أجشّ خشن:

- من الأفضل أن تسأل قبل أن تتكلّم. ربّما لا تكون مُصيباً في حكمك.

«شمس الشروق لم تعد غواية». بهذه الكلمات صدحت مكبّرات الصوت في الميدان، والهتاف يعمُّ المدينة؛ أمّا الألعاب الناريّة، فحلّت محلّ الرصاص، لكنّ أصغر المحاربين عمراً؛ الأطفال تقريباً، رافقوا أضواء الألعاب الناريّة، والخراطيش، وشلّالات الغبار اللامع، برصاصاتٍ حقيقيّةٍ، ما دفع آباءهم إلى نهرهم، وأخْذ الأسلحة منهم، كأنّهم يأخذون منهم كيس حلوى، ليعيدوا إقامة علاقة تبعيةٍ متبادلةٍ مع أبنائهم، فتركتهم حائرين مؤقّتاً. كان القسّ قد طلب مساعدةً من ساليناس، وقام هذا بدقّ الأجراس بالقوة ذاتها التي رآها في السينما، عندما كانت الأفلام تبدأ بصورة رياضيٍّ يمتلك عضلةً في مسامه كلّها، ويضرب على وسط القرص النحاسيّ الضخم، هذا الصوت الفخْم الذي تظلّ رعشته موجودة منذ حفل الماتينيه طوال أسبوعٍ كامل.

نهض ليونيل من المقعد في صمت، ونزع بيديه الفرشاة التائهة في شعره كالحشرة.

- «توقَّف». قال: «ستضيّع علينا كلمات القائد لبلاهتنا».

- «فيكي مينور كانت سجينة». قال السيّد تشيبي، كأنّه لم يسمع تعليق الفتى، تحديداً كأنّه لم ينهض عن المقعد، ولم يصبح بجوار الباب. رتَّب القوارير على الرفّ الزجاجيّ، فقط لكي ينتهي به الأمر بوضعها في أماكنها الأصليّة. اتّجه ليونيل إليه، وأمسك بكتفيه، داعياً إيّاه لكي يستمر: «في المعسكر».

اختفت يدا الفتى في شعره، وبحث في أرجاء المكان كلّها عن الهواء الذي افتقده فجأةً! وعاد بظهره المنكسر إلى المقعد، ونظر إلى السيّد تشيبي في المرآة، وقال له برقّة، كأنّه يحاول تفادي أن تأتي الكلمات بالمآسي:

- اِحكِ لي ما حدث.

- 28 -

انضمّ ابني إلى صفوف الثوّار الساندينيّين قبل وقتٍ طويلٍ من العصيان. شارك في انتفاضات عام 78، وفي ذلك الحين كنت أذهب مع صديقةٍ لي وأراه. قلتُ لها: «ها هو فتاي بزيّه الرسميّ، من يدري إلى أين سيذهب». بعد ذلك كنت أذهب في ذلك الاتّجاه، وأسأل إلى أين اتّجهوا. فيقولون لي: إنّهم انضمّوا إلى كتيبةٍ مقاتلةٍ. حينئذٍ بقيت هناك، ورَجوتُ له الخير. لم أره ثانيةً بعد ذلك، بلْ رأيته بعد ثلاثة وعشرين يوماً تقريباً؛ لأنني لم أكن هنا في يوم مغادرته. فقط قالت لي أخته: «ابنك يقول لك: وداعاً؛ لأنّه لا يوجد من يعرف إن كان سيعود إلى البيت». كانوا يريدون استعادة بعض الأسلحة من البيت الأبيض. واستعادها مع كتيبته؛ كتيبة «خوسيه بنيتو إسكوبار». بعد بضعة أيّام، عندما عرفت أنّ أمورهم سارت بخير على نحوٍ ما. رغبت بالذهاب إلى حيّ (لا باث سنترو)؛ لأبحث عنه هناك، لكنّ شخصاً لا يُمكن تخيّله أعاطني معلوماتٍ مختلفة. لا يمكنك تخيّل أنّه كان ساعي البريد ساليناس. قال لي ألّا أذهب إلى (لا باث سنترو)، إنّما أبحث عنه في نواحي مدرسة «ريناجا». وحينئذٍ ذهبت وسألت إن كان إغناثيو موجوداً. قلت لقائده: «أنا أمّه». وسألته إن كان ممكناً أن أراه. قال لي: «بالطبع،

إن كنتِ أمّه. يمكنكِ أن تأتي لرؤيته كلّ يوم، لكنْ لا يجب أن يراكِ أيّ جنديّ». قلت له: «كيف يخطر على بالك قول هذا يا سيّدي؟». ذهبت لرؤيته لمدّة أربعة أيّام تقريباً. وفي اليوم الأخير قال لي: «أمّي، لا تأتي غداً، من يدري إلى أين سيرسلوننا». وأصررت على الذهاب. وذهبت. وقلت لقائده: «وابني؟». فردَّ عليّ: «إنّه يستحمّ، انتظريه». وانتظرته. وألقيت عليه التحيّة. كانت آخر مرّةٍ أراه فيها. بعد ذلك ذهبت أخته لتراه؛ لأنّني قلت لها: «يقول أخوكِ: إنّه لن يبقى في المكان ذاته، ولا يعرف إلى أين سيرسلونه». ذهبت أخته، لكنْ لم تجده. كان المكان خاوياً. لم يكن الفتيان هناك. في ذلك الوقت، كانت شهورٌ قد مرَّت من دون أن أراه، وذات يومٍ أرسلت ابنتي لشراء شيء من الفاصولياء من دكّانٍ بجوار المستشفى، حيث كان سعر الفاصولياء أربعة بيزوات. وفي ذلك اليوم جاءت مبتهجةً، وقالت لي: «ماما، أنا أعرف مكان إغناثيو». وقالت لي: إنّه هناك، على الرصيف بالقرب من المستشفى، وإنّ السيّد تشيبي قد أخبرها بهذا. كانت الساعة الواحدة ظهراً عندما وصلت، وقلت لها: «آه، إنّ ابني في خطر!». وسألتني: «لماذا يا ماما؟». وأجبتها: «إنّكِ لا تسمعين الأصوات الصادرة عن الحصن. صوتٌ رهيبٌ ليلاً ونهاراً». وأعدت عليها كلماتي السابقة: «إنّ ابني في خطر!». وقال لي: «ونحن أيضاً يا ماما». لأنّ الخرطوم مرَّ ببيتنا. الخرطوم الذي استُعمل للوصول إلى مقرّ القيادة. ليس الخرطوم بالكامل بالطبع، بلْ جزء منه طوله من هنا حتّى الجدار. هل ترى؟ وبعد ذلك لم أفكّر به أكثر من هذا؛ لأنّ الحريق قد وقع. كان مروّعاً. وخرج فلوريس بينما يمسك بالرهائن. وحينئذٍ قلتُ: «أين يمكن أن يكون ابني؟». كنت أريد أن أريه أنّنا حرقنا مقرّ القيادة. وفي ذلك اليوم، كما أقول لك، كان أسعد

أيّام حياتي. نادوا علينا لنسير في المظاهرة. سرنا في المظاهرة. عند الساعة السادسة، قلت لزوجة أحد أبنائي: «لنذهب إلى كنيسة لا ميرثيد». دخلت الكنيسة راكعةً ومتوسّلةً من أجله، من أجلنا جميعاً؛ لأنّنا رأينا أنّنا سنتحرّر. تناولت، وسمعت القدّاس، كان ذلك اليوم مُبهجاً. في ذلك اليوم جاء توماس بورخيه؛ حيث تمّ الحشد. شاركت في ذلك الاحتشاد، وشعرت أنّني سعيدةٌ للغاية، وكنت أصفّق، وأصرخ، وأفعل كلّ شيء. وفي لحظةٍ ما جاءت سيّدةٌ وقالت لي: «سقط بعض القتلى بجوار الحصن». لم يخطر على بالي أن يكون ابني بينهم. بعد ذلك جاء فتى مبتهجاً، وعانق امرأةً من عائلته. قال لها: «لقد حرّرنا الوطن». كنت سعيدةً؛ لأنّني قلت لنفسي: إنّني سأرى ابني في أيّة لحظة، هل ترى؟ بعد ذلك مرَّت شاحنة بناصية سان رامون، باتّجاه سينما جونثالث، وبعد سينما جوثالث اتّجهت إلى جانبٍ. وقال الناس: إنّ القتلى في الشاحنة، في تلك الشاحنة. لم أتخيّل على الإطلاق أن يكون ابني فيها. لم أشعر بأيّ أثرٍ للحزن، على الإطلاق، بلْ ببهجة فقط. بعد ذلك مرَّ موكب توماس بورخيه الذي كان مُتّجهاً إلى سان فيليبه. شعرت بابتهاجٍ شديدٍ. كنت هناك عندما جاءت سيّدتان وسألتاني: «من يوجد معكِ؟». فرددت عليهما إنّني بمفردي؛ لأنّ ابنتي قد ذهبت. كنت هناك، وما زلت سعيدةً، خلف المظاهرة. عندما وصلنا إلى ناصية كنيسة «لا ميرثيد»، قالتا لي: «لنعُد؛ لأنّ الوقت أصبح ليلاً. الشوارع مظلمة للغاية. لنعُد». كنّا ثلاث سيّدات. كنّا مبتهجات، نتحدّث ونتناقش، كما ترى. عندما أخذنا طريق العودة، ووصلنا إلى ناصيةٍ يُطلقون عليها هنا ناصية «العرّافات»، نادت سيّدةٌ على صديقةٍ لي اسمها رامونا. قالت لها: «مونشيتا، وهذه الأمّ شديدة السعادة، ألا تعرف أنّ ابنها قد مات؟».

كانت تقول لها هذا همساً، لكنّني سمعتها. حينئذٍ قلت لها: «مونشيتا، هل مات ابني؟». قالت لي: «لا، لا، لا. لنكمل طريقنا». عندما مررنا أمام مقرّ القيادة، بالقرب من أورلاندو باررروسو، سمعت بعض الصرخات. «ميّتٌ آخر». قلت لنفسي. وقلت لها: «مونشيتا، لقد قلت دائماً ألّا يكذبوا عليّ يوم موت ابني». وردَّت عليّ بالنفي، وقالت: إنّه في البيت، لكنّه جريحٌ. فكّرت بأنّ الجريح لا يجب أن يذهب إلى البيت، إنّما إلى مستشفى، إلى عيادة. عندما وصلت إلى ناصية البيت، قالت لي: «لقد حانت اللحظة، فيما يتعلّق بما قلتِ من قبل، إنّك ستمتلكين القوّة التي منحكِ إيّاها الربّ». حينئذٍ قلت لها: «أجل، سأحتمل هذا. لقد مات ابني». عندما التففت حول الناصية، رأيت التجمهر على الرصيف. رأيت الناس تجري لتخبرني، لكنّ آخرين كانوا يهتفون بهم كيلا يقولوا لي أيّ شيء؛ لأنّني أوشكت على الوصول إلى البيت. عندما دخلت عبر باب بيتي، شعرت أنّني أطفو في الهواء، هل تصدّق هذا؟ أسندتني الفتيات. كنت أرى البيت ممتلئاً بالناس. كان ابني مُمدّداً هناك في صندوق، في هذا المكان حين نجلس الآن، السيّدة روسا كانت واقفةً بجواره. إنّها كبرى النساء المُعمّرات في البلدة، وإنجليزيّة، صلّت عليه صلاتها. والشيء الوحيد الذي قلته: إنّ هذه هي مشيئة الربّ. وقمت بمباركته، وصلّيت عليه. وقلت: «اخلعوا عنه هذه الملابس المبتلّة التي يرتديها». وحينئذٍ أعطوني قرصاً، وأخذ الناس في تقديم العزاء لي. أنا، ماذا سأقول لك؟ حاولت الشعور بما كان يوصيني به، إنّني لا يجب أن أحزن يوم موته، لكنّني لم أشعر بأيّ شيءٍ من الحزن. قال لي ألّا أبكي، وهذا ما فعلت، هل تصدّق؟ مرَّ اليوم، ودُفِن، ومرَّ كلّ شيء، وها أنا هنا، هادئةٌ كما تراني الآن. كان قد قال لي: «أمّي، يوم أسقط،

فلْترتدي -إن كان ممكناً- فستاناً أحمر، أو تنّورةً قطنيّةً سوداء، وقميصاً أحمر. لا ترتدي الأسود على الإطلاق؛ لأنّك ستشعرين أنّك أكثر الأمّهات فخراً». حينئذٍ قلت له: «هذا وحشي، هل تعتقد أنّني لن أشعر بأيّ شيء؟» قلت له هذا. وحينها كان يضحك فقط.

جاء توماس بورخيه في اللّيل، مع أصدقائه، ومع قائده؛ قائد ابني، زكرياس. دخلتُ، وهم يقومون بتهيئة جسد إغناثيو. وقفت بجواره، وكنت أنظر إليه. قالوا لي: «إن كنتِ تمتلكين القوّة على رؤيته، يمكنكِ النظر إليه». كنت هنا، وقالت لي مونشيتا: «ابنك مات في الشاحنة. كانوا في الطريق إلى هنا، مبتهجين، وهُم يقودون الشاحنة، وخرج بعض الجنود المنسحبين من جيش سوموثا، وأطلقوا عليهم النيران». وهكذا مات الخمسة الذين كانوا في الشاحنة، وابني بينهم. لا أعرف من الآخرين سوى واحدٍ، وكان جاراً لنا. اسمه ماريو سوتو. هما الاثنان سقطا من الحيّ معاً؛ أمّا الآخرون، فكان أحدهم من جوادالوبيه، والآخران من كويو لارجو. حينئذٍ جاء توماس بورخيه مع زكرياس. دخل وسأل عن أمّه. وقالوا: «هذه السيّدة». وأمسك بذراعيّ، وعانقني، وقبّلني برقّةٍ، ثمّ سألني: «كم ابناً تبقّى لك؟». قلت له: «أربعة ذكور». فقال لي: «لم يتبق لك هؤلاء فقط. لديكِ آلاف وآلاف الأبناء، أنت لست بمفردك. نحن بجوارك». قلت له: «شكراً». فقال لي: «إنّني أراك أمّاً قويّةً؛ أعنّي أنّك لا تبكين، أو أيّ شيء من هذا القبيل». فقلت له: «هذا ما طلبه إليّ ابني، ويجب أن أوفي بما طلب». ثم قدَّم لي زكرياس العزاء. وبقيا لبرهةٍ أُخرى، ثمّ ذهبا. ومن الحيّ مات ابن أنطونيو مينور أيضاً. من يدري إن كانا قد ذهبا هناك أيضاً. أنا لا أشعر أن ابني ميّت؛ أتذكّره حيّاً. وأقول لك: إنّني لا أعدّه ميّتاً. قال لي أن أشغّل

الموسيقا التي يحبّها يوم يموت، ويسجّى مُمدّداً هنا. هل ترى؟ وكنت أقول له: «يا بني، أطفئ هذا المُسجّل؛ لأنّهم سيسمعوننا وسيأتون لقتلنا». كان يرفع المسجّل بأعلى صوت على هذه المائدة. لم يشعر بالخوف على الإطلاق، وطلب إليّ أن أضع الموسيقا طوال اليوم حتّى تخرج الجنازة. وبما أنّه لم تكن هناك كهرباء، أو بطّاريّات، طلبت إلى الأصدقاء أن يذهبوا للبحث عن بطّاريّات؛ لكي نضع الموسيقا التي يحبّها «قبر المحارب». وتلك الأغنية الأُخرى «الشعب المُتّحد». طلبت إلى الأصدقاء أن يذهبوا للإتيان ببطّاريّات. إن أرضيتموني، سترضون إغناثيو؛ لأنّني لا أمتلك بطّاريّات. وهكذا أتى صديقٌ بمُوَلّد، وشغّل ذلك المسُجّل حتّى خرجت الجنازة. لقد طلب إليّ هذا.

- 29 -

رآه الجيران يجوب المناطق المجاورة لبيت فيكي بهيئةٍ يُرثى لها. كانت بندقيّة الفال مُعلَّقةً على كتفه اليُمنى كالعصا، والمسدّس على خصره لامعٌ تحت الهلال. غلب فضولهم إرهاقهم، وعبْر خصاص النوافذ رأوه يتوقّف ويتجرَّع الهواء. بعد ذلك رأوه برأسه المنخفض يتراجع ويجلس على الرصيف ككلبٍ بلا صاحب، ثمّ أخذ ينبش بابَ بيتها بنظرةٍ أصابت المراهقات بالسهاد، وأيقظت مشاعر الأرامل الحزينات، وحيّدت القطط المتعجرفة عن طريقها، وأصابت ساليناس بالدوار؛ الذي كان حضور الفتى يمثل بالنسبة إليه عاصفةً أطفأت الشجاعة التي دفعته لكي يجوب الشارع ذاته. قبل أن يذهب، كان قد صاغ شجاعته من آلاف مشاعر الخجل، والاختناقات، والاضطّرابات، والتلعثم، والتنهّدات، إلى درجة أنّ هذا كلّه قد لفت انتباه المحامي ريباس، فحيّاه لأوّل مرّةٍ في تلك اللّيلة خالعاً قبّعته البنميّة الغالية بتهذيبٍ من دون الاكتفاء بلمس حافّتها. كأنّ ركبتيه رخوتان من الصوف، فمرَّ على الرصيف المقابل، وهو يُصفر بأغنية (مقهى بوينوس أيرس(*))، ولم

(*) Cafetín de Buenos Aires

يرغب حتّى بأن ينتبه منافسه إلى وجوده، كان غارقاً في صمته مثل رائد فضاءٍ في الفضاء.

بعد وقتٍ طويلٍ، طويلٍ بالفعل، من وصول ساعي البريد إلى البار الأخير؛ حيث يقوم السكارى بلعق رطوبة البيرة فوق الطاولة المهترئة، وبعدما وضع فوق الطاولة ورقةً من فئة خمسين كوردوباس تعِسة، جعلته مُحاطاً في ثانيةٍ بأصدقاء حميميّين، وعِشرة عُمر، وأصدقاء أقدم من اكتشاف طحين الذرة، وسابقين لسير الجنس البشريّ على قدمين عوضاً عن الحَبْو على أربعة، وخُبراء في التخلّص من الآلام، والمآسي، والصعاب. بعد هذا كله، تشجَّع ليونيل للوقوف على بُعد نصف مترٍ من بيت فيكي بحذرٍ لا يتناسب مع حجمه، أو مع مظهره. كان يبدو منتظراً إشارةً لحرق ذلك البيت الشبحيّ، تلك السفينة الجنائزيّة التي كانت أشرطة الحداد غير المرئيّة مُعلّقةً في كلّ شقٍّ من شقوقها.

بعد ساعات، عندما أمكن لقبضته أن تتكوّر وتصبح كرأسٍ دقيقٍ لببّغاء لكي تخدش وتنزلق وتلعق الباب، أطفأ الحيّ بأكمله الأضواء باحتفاليّة كتومة. جرجر الآباءُ أبناءهم إلى الفُرش، وهُم أنفسهم حاولوا إغماض أعينهم، التي احتفظت حدقاتها النابضة بالرعشة الكهربائيّة التي سبّبها بورخيه على المنصّة بينما يقول: «النصر».

– «فيكي». نادى بصوتٍ خفيضٍ، جعله يشكّ في أنّ الفكرة خرجت من شفتيه. لكنّ صوته تسبّب في إنارة غرفة المعيشة. تهاوت ساقاه، وبسط نظرة حيوانٍ هاربٍ على الشارع كلّه. بدا له أنّ جسده كلّه يتحوّل إلى أذنين تضخّمان كلّ خطوةٍ من خطوات الفتاة نحوه. مُستبقاً الشعور بملمس جلد فيكي على المقبض الداخليّ للباب ذي الخشب المتمدّد، رغب بألّا يكون

قد ذهب. شعر بحنينٍ للحظات الغرق في الخجل التي لطالما ألقت به إلى الشِعر ليكتشف فزعاً بين المُلاء الفارغة، أنّ الفنَّ بديلٌ تافهٌ للحُبّ. كان قد كتب شعراً تافهاً، ورسائل ممتلئةً بالأوصاف الفخمة، وكان قد صمت في اللّحظات الحاسمة، حينما توخّى عدم اللجوء إلى الكلمات الزائفة، حتّى إن منعه هذا من غوايتها. أمضى أكثر من نصف حياته يقدّ مقاطع تتمتّع بالمغناطيسيّة بها إيحاءات، أو على الأقل هذا الصمت الجادّ لممثّليه المفضّلين الذي أصابه بالرعشة في مقاعد سينما جاربو في سان خوسيه: توم كورتيني في فيلم «وحدة وكيل البورصة»، وألبرت فيني في «مساء ليلة السبت، صباح الأحد»، وعلى وجه الخصوص ريتشارد برتون بين الضباب المُسْكر الذي ينفخ في الترومبيت قبل أن ينفخ عرقانَ على جسد زوجته الواهنة في فيلم «التذكّر غاضباً».

أقبلت الفتاة بِحيرة من يذهب للقيام بمهمّةٍ، وفي الطريق ينسى الهدف من حركته. ظلّت نظرتها ثابتةً على صدر الفتى لبرهة، وببطءٍ صعدت إلى عينيه. ضاعف ضوءُ مصباحٍ مائل من غموض التعبير على وجنته، وغطّى الحداد الذي يلفّه حتّى قدميه بنبرةٍ أُخرى. صهر ليونيل ماسورة سلاحه، وأغلق عينيه بينما يرفع رأسه المتمرّد إلى السماء المُرصّعة بالنجوم. سمع كلٌّ منهما أنفاس الآخر. اللّيل أيضاً كان مُحمّلاً بهذا السكون الجاد.

- «لا تبكِ». قالت.

مدَّ الفتى يداً إلى أذنها. أراحت فيكي رأسها على كتفه. ظلّا هكذا لبرهةٍ، لم يكن قادراً على التنفّس. بعد ذلك تباعدا مسافة نصف مترٍ، ونظرت إليه حتّى قدميه.

- «افتح عينيك». طلبت إليه بهمس.

- «لا». قال الفتى.

وضعت الفتاة إصبعين على جفنيه، وتحسّست الرطوبة المتسرّبة من رموشه الضعيفة.

- افتح عينيك يا ليونيل.

- «لا». ردَّ بصوت أجش.

غرست أظافرها في لحية المحارب، وأخذت تنزلها حتّى شعر صدره.

- أُدخل.

اتّجه ليونيل بسرعةٍ إلى وسط القاعة، وتخلّص بضربةٍ واحدةٍ من المادّة التي أعاقت بصره، واستنشق عميقاً الهواء كلّه الموجود في أنفه، ثمّ ابتلعه. انتظرت الفتاة أن يستدير، وفقط عندما فعل ليونيل هذا مرتعشاً، وضعت ذراعها على هيئة نصف دائرة بينما تريه البيت وعادت لثني عنقها الوادع.

- «اِحكي لي». قال، بحدقتيه اللتين ظلّتا أسيرتا ورق الحائط الذي يحوي دوائر متشابكة.

وضع الفتى كعب البندقيّة على الأرض، واتّكأ على الماسورة، بينما يشعر أنّ الحداد هوة تفصل بينهما، وأنّ كلّ شيءٍ مُغطّى بالغبار، وهناك حيوانات بطيئة متعثّرة، وسفن في بحر من دون أمواجٍ، أو رياح، كأنّها تخشى إيقاظ الموت النائم على الأرائك، وفي ألبومات الصور على المائدة، وفي الفطريّات على التقويم، وعلى البلاط ذي الحوافّ المتآكلة، وفي اللّيل الذي يبتعد إلى النجوم. سمعها الفتى تقول: «اِحكِ لي». كان صوتها قد عبر ألواحاً زجاجيّةً ليصل إليه في النهاية شاحباً للغاية. كأنّ نيكاراغوا الحارّة قد امتلأت بجليدٍ متجهّمٍ، سريعٍ، بخطى كالنمور، مختبئاً في الحواجب، ويدور في مجرّة درب التبّانة.

- «ها نحن هنا». قال، بينما يشعر بنفسه مُطفأً، وخارج السياق، وعصيّاً على الاختراق، بقلبه النابض فوق البندقيّة، وبعضلات وجهه المتوتّرة؛ أمّا لحيته وشعره، فباتا ملاذاً، وليس مظهراً خارجيّاً.

ألعابٌ ناريّةٌ لاحقةٌ أضاءت الغرفة بوميضٍ أصفر ووورديّ، وبعد ثانيةٍ سقطت زهورها كشُهبٍ دقيقة.

- «قتلوا أغوستين». قالت، ثمّ أشارت بإصبعها إلى الجزء الداخليّ من البيت.

- «وأبواك؟». حكّت فيكي وجنتيها. «هل هما نائمان؟».

عندما حرّكت رأسها نفياً، بدا للشاعر أنّ التعبيرات التي بدأتها تدخل في حالةٍ لا نهائيّةٍ من اليقظة في أثناء النوم، ورسمت الكلمة بدقّةٍ لدنة، كما واصلت في تلك اللّحظة قول «لا» بإفراط، بينما تصاحب الحركة بنبرةٍ كئيبة.

- لا أحد نائمٌ هنا.

اعتقد ليونيل أنّه يسمع صوت تنفّس السيّد أنطونيو، وارتعاشات صغيرة في الهواء، وشبكة عنكبوت دقيقة في أحد الأركان. وضع الحقيبة على ظهره، ورفع البندقيّة عن الأرض، ثمّ قال بينما ينظر إلى أزراره:

- يجب أن أذهب إذنْ.

- «ستبقى هنا». قالت.

- «هنا؟». سأل ليونيل، محيطاً البيت بنظرته، إضافةً إلى مخالب الصمت كلّها، والأشياء الأكثر شبهاً بالظلال منها نفسها، والسحابة المُحمَّلة بالنبوءات، واللمسة الخفيفة على الذراعين المعقودتين على تنّورة الحداد التي أخفت انحناءات مؤخّرتها.

- وأين ستذهب إن لم تبق هنا؟

- إلى المعسكر.

ألقت الفتاة الشعرَ الساقط على وجنتها المُعرّضة لضوء المصباح إلى الخلف، وذهبت إلى الجزء الداخليّ من البيت، ثمّ فتحت باب غرفة نوم أبويها من دون أن تطرق الباب. كأنّهما مرسومان على لوحةٍ: آماليا، وأنطونيو، بانا فوق الفراش، وظهراهما مستندان إلى الحائط، عالقان في ذلك الصمت المهيمن على قاعة المعيشة، والفناء، وتواطؤ الجيران. برمشةٍ من عينيها أشارت للشاب لكي يتقدّم نحو الباب.

عندما أصبح في إطار الباب، قرأ في ملامح أبيها الجهدَ للتعرّف إلى ذلك الوجه المحاط بالشعر الهائش، وتعرَّف في وجع آماليا إلى يقظة وعيها بسرعة. كانت يداها متشابكتين في العتمة، كمن يغزل صوفاً غير مرئيّ، وصاحت فجأةً!

- إنّه ليونيل يا أبي!

أحنى أنطونيو رأسه موافقاً بجديّة قاضٍ.

- الشاعر.

- «أنا قادمٌ من الحرب». قال الفتى، ورفع البندقيّة متعثراً. على نحوٍ ما، كان في حاجةٍ إلى براهين مرّةً أُخرى أمام أنطونيو، ومسوّغات أُخرى مُقنعة لهذا العجوز السياسيّ الحصيف.

- «أهلاً يا فتى». قال له الأب بصوتٍ شديد الرقّة.

نهضت آماليا لعناقه، وكانت ملتحفةً بشالها الأسْود، فضمّته بقوّةٍ شديدةٍ داخل النسيج غير المستوي. بدا غياب أغوستين كبرودة سكّينٍ من الفضّة. وضعت وجنتها على عظام صدره، وسمعت الضجيج العاصف

لدم الشاب، الذي أصبح أقوى عندما أحاط رأسها بيده التي دبغاها: البارود، والشمس.

- «سيّدة آماليا». قال الفتى، بينما يُقبّل شعرها. مرَّغت الأمُّ جبهتها على قلب ليونيل. غرس هذا حدقتَيْ عينيه في السيّد أنطونيو. بدا كلُّ شيءٍ له كرقصةٍ لم يعرف خطواتها من قبل، وحركات مُعقّدة يجب عليه أن يرقصها من دون موسيقا، العقل الفارغ من العزاء، من العبارات السطحيّة، من السؤال عن الساعة، من الحثّ على الشعور، من كلمات: سننتصر، وانتصرنا، اللعنة! ولا كلمة واحدة.

- «غداً». قال أنطونيو، كمن يقرأ شيئاً ما في الجريدة المحليّة: «سنذهب باكراً إلى السجن للإدلاء بشهاداتنا. هل عرفت أنّهم قتلوا «تين»؟».

- نعم يا سيّدي.

- «في صباح الغد، باكراً». قال الرجُل، ولمح اللّليل المتقدّم ببشائر الفجر.

- «قُل له أيضاً: إنّني كنت سجينة». قالت فيكي، بينما تنظر إليه بعزم.

جذب السيّد أنطونيو الملاءة من خصره حتّى كتفيه. ظلّ يفرك جبهته لبرهةٍ، أراد بدء جُملةٍ، لكنّه كتم كلماته.

- «هل ثيفوينتس سجين؟». سأل ليونيل راغباً بهرش جسده كلّه، لكنّه لم يتحرّك.

- نعم.

- هل الأمر يتعلّق بهذا غداً؟

ابتعدت الأم عن جسد الشاب، وهندمت المنديل الساندينيّ فوق السترة العسكريّة.

- «سأذهب لإعداد الفراش». قالت، متّجهةً إلى غرفة أغوستين.

أوقفتها فيكي قبل الوصول إلى الردهة.

- لا ترهقي نفسك؛ ليونيل سينام في غرفتي.

لم تحتج آماليا إلى النظر إلى أنطونيو كي تشعر بالتعبير المتزامن عن الدهشة والخجل، الذي احتجز الاعتراض في حنجرتها كترياق. عرفت مذاق الإساءة الجديدة في لعابها. وحينئذٍ قالت:

- كما تريدين.

ظلّ الأربعة فيما يشبه العتمة، كصورةٍ أُخرى بين الصور الموجودة على الرفوف، حيث بدت أوراق الأشجار والفراشات التي تنام بين الخضراوات أكثر حياةً منهم.

- «من الأفضل أن ننام». كسرت آماليا الصمت، بنظرتها العموديّة على الطرقة المغطّاة بالبلاط.

- «أجلْ، الإجراءات غداً». غمغم أنطونيو، كأنّ شخصاً آخر يستخدم شفتيه ليقول هذا.

عندما سعل ليونيل لتجلية حنجرته في تلك اللّحظة، بدا له هذا غير لائقٍ أيضاً:

- «قال بورخيه: إنّنا لا يجب أن نكون انتقاميّين». كان يُخفض صوته، وهو يُكمل العبارة: «قال: إنّ الأمر لا يستحقّ عناء القيام بالثورة إنْ لم يكن كلّ شيءٍ مختلفاً تماماً عمّا قامت الثورة عليه».

بحث عن عيني فيكي فجأةً! ردَّت الفتاة بحدّةٍ، ومن دون تمهّلٍ، كأنّها جزءٌ من حركة الفتى:

- بورخيه هو بورخيه، وأنا هي أنا.

بدا خلال برهةٍ أنّ الأربعة يزدردون اللعاب في الوقت ذاته، كما لو أنّ الصمت حمى كاسحة، وبلدٌ بلا حدود، والمقعدُ الذي لا يسعه أيّ مكان، وموتُ طائر.

– «تعال». قالت فيكي. خرج الفتى من ذلك المستنقع شاكراً، واتّبعها إلى الغرفة. دخلا العتمة. أدارت المفتاح الكبير في ثقب الباب قبل أن تشعل الضوء. تقدّمت في العتمة وتفادت اللمبة المتدلية من السقف، وذهبت حتّى مفتاح النور. عندما جذبت الحبل، أُضيء مصباحٌ سماويّ اللون بشياهٍ ورديّةٍ، ورعاةٍ يحملون فلوت كبيرة، وببغاوات تشبه الصقور، وملاك يعزف على أوتار قيثارةٍ ليست أكبر من قطعة حلوى.

عندما وضع بندقيّة الفال فوق الدولاب، تعرَّف إلى خطّه على إحدى الرسائل. قرأ خلسةً ثلاثة سطورٍ من النصّ، وغطّى عينيه خجلاً. بعد ذلك غطّى الرسالة بالمسدّس الذي خلعه من خصره. كانت هي قد التفّت بالملاءة البيضاء ذات النسيج الخشن فوق ملابس الحداد. ميّز طائر الطنّان الذي خطّ الأحرُف الأولى من اسمها على أحد أطراف الملاءة.

تأمّلت ليونيل كما ينظر رحّالةٌ إلى مكانٍ بعيدٍ. قدَّمت إليه دعوةً لجولةٍ غير واقعيّةٍ نحو غرفةٍ، وفراشٍ، وبساطٍ، ومصباحٍ، وبضع حشراتٍ عالقة في خصاص النافذة، ولم تكن هذه الأشياء هي الموجودة في المكان ذاته، أو في الساعة ذاتها.

– ها نحن هنا.

تنهّد ليونيل. كان قد أصبح أعزلَ بعدما خلع أسلحته. أراد أن تكون ابتسامته أشبه بذاك التخمّر البطيء الذي يحفّز فيها البريق المُعرّف في تاريخ الحيّ بـ«جاذبيّة فيكي مينور المغناطيسيّة»، لكنّ جهوده ارتطمت بغيابٍ أكثر تماسكاً.

- «إنّك تقف بعيداً مثل عمود نور». قالت له بعد وقتٍ طويل.

فكّر الفتى بأنّ هناك أحجاراً متدليةً من يديه. لعنَ الرجال المتلعثمين. تاق إلى إلهامٍ يُطلق أسود الجبال في الغرفة، وعاطفةٍ بحريّةٍ تؤدّي إلى هذيان الخيالات، وأفعالٍ حرّة في الرياح، وهدنةٍ صغيرةٍ لكي يستعيد حظّه، ليستعيد الملاك الحارس الذي حمله في حقيبته خلال العصيان، والذي يبدو مخدّراً في تلك اللّحظة أمام أكثر امرأةٍ أحبّها في حياته.

- «أجلْ». قال، بينما كان غارقاً في حيرته.

مكتبة
t.me/t_pdf

- تمدّد بجواري.

- في الفراش؟

- أين إن لم يكن في الفراش يا ساذج؟!

اتّجه الشابّ إلى الفراش، وقبل أن يتمدّد تحسّس ملمس الحشية كسبّاحٍ يختبر درجة حرارة الماء. وضع وجنته على غطاء الفراش، واستعان ببقايا هدوءٍ مصطنعٍ ليحتمل نظرتها المرنة التي لم تمنحه هدنة.

- لقد عدتَ.

رسم ليونيل ابتسامةً على شفتيه، وفي هذه المرّة احتفظ بها. لمست فيكي جبهته لتقيس حرارته، وبعد ذلك غرست يداً في لحيته. رغب بترويض الهذيان الذي تسبّبت فيه هذه اللمسة البسيطة، ورسم ابتسامةً تعلّمها من ممثّليه المُفضّلين. حينئذٍ فكّر في قول: «إنْ كان ما نعيش فيلماً، وأنا أمثّل، فمن المؤكّد أنّني كنت سأحصل على جائزة يهوذا الإسخريوطي»، لكنّه لم يقل هذه الكلمات. وعندما التزم الصمت، توطّدت ابتسامته، وأمكنه الشعور بأنّها تصعد حتّى عينيه. شعر أنّ وجهه بدأ يشبهه شيئاً فشيئاً، ليصبح كما كان يرى نفسه.

بعد دقيقةٍ لم يعد الصمت فخاً وخصماً، وتحوَّل إلى شريكٍ متواطئٍ، بلْ إنّه فكّر بخلع فردة حذاءٍ عن طريق دفعها بطرف قدمه الأُخرى، ليلقي بها على الأرض من دون الاكتراث بالضجيج الذي قد يوقظ الديَكة والجيران، ومن يدرى إن كان سيلقي بفردة القدم الأُخرى لكي يريح هذه الأصابع المسودّة كالفحم، وتورّم إصبعه الأصغر.

قالت فيكي بصوتٍ ناعس:

- «سأنام». وأضافت، وهي على أعتاب النوم: «احرسني».

عجز الفتى عن الحركة، كان منبهراً لتأمّل كيف يستولي التوتّر في اليقظة على هذا الوجه. كلّ جزيئةٍ من حساسيّته عندما دخل في اللاوعي، حتّى أصبح كثمرة فاكهة، كجلدٍ مشدودٍ لثمرة خوخٍ مثيرةٍ للشهيّة.

رغب بها بحمّى ساكنة. انتفخ عضوه خلال ثانيةٍ سحريّةٍ. وضعَ يداً عليه، واختبر كلّ نفسٍ من أنفاس الفتاة بفمها القريب من شفتيه كأنّه سيقبّلها. أخذ يمتلئ بهواءٍ مثيرٍ للاضطّراب، بذكرى التعبير المرن المتأرجح بين السذاجة والسخرية الذي كان يترك فتيان منطقة سوبتيابا خائري القوى عندما يرونها تمرّ في طريقها إلى المدرسة. استعاد العبق الخالي من العطر الذي كان يصدر عن حمّالة صدرها، ليشقّ نسيج الزيّ الموحّد. كانت هذه الجوهرة الغرائزيّة هناك، وذلك الذكاء، وتلك المهارة التي يتمتّع بها الجرّاح؛ هذا التنفّس الدافئ، وتلك الرطوبة المصبوغة بالحداد، المتّشحة بالسواد فوق فراشٍ جديرٍ بعملٍ بطوليٍّ، وإن كان هذا مسموحاً. ستتطلّب الفتاة من يعرف الكثير من المفردات الكونيّة لكي يجسّدها في قصيدة.

استعاد بعض الهدوء بينما يتنهّد. وحيّد نظرته إلى السقف العاري، وتاهت عيناه في البقع والظلال، محاولاً تخيّل وجوه، أو أشكال حيوانات،

كما كان يفعل عندما كان صغيراً يستلقي في الفراش بعد أن يجري تأنيبه لعدم إنهاء واجبات المدرسة، متخيّلاً عالماً من دون مُدرّسين، أو كتب مدرسيّة، وشهادات تقييم شهريّة، ومصروف شهريّ ممنوع، ودموع غزيرة يوم الأحد عندما لا يحصل على إذنٍ بالذهاب إلى السينما. عقد أصابعه فوق قلبه، وعندما أغلق عينيه أدرك أنّ فتحهما سيشقّ عليه. في دفقةٍ قبل الأخيرة من البصيرة، ورعشة شمعة قبل الانطفاء، فكّر مرّةً أُخرى بخلع حذائه، لكنّ دفء الكسل، وعدم الرغبة، كانا أكبر من المهمّة. قبل أن ينخرط في نومٍ بدا له أنّه يفوق حجم جسده، اعتقد أنّه يسمع القليل من المطر فوق أوراق الأشجار في الفناء.

بعد ذلك، عندما غاب عن الوعي، سمع خطواتٍ حذرة، وكلماتٍ قصيرةً جشّة، وتُوِّج ذلك كلّه برائحة قهوةٍ كاسحة. على الرغم من هذا كان الإجهاد كافياً لكي ينقلب إلى جانب، شاعراً بجلده فوق غطاء الفراش النظيف بمتعةٍ لا تُقاوم. «سأنام قرناً». سمع نفسه يقول هذه الكلمات داخل حلمٍ رأى فيه قارباً ذا مُحرّكٍ يقطع البحيرة مخلّفاً زبداً ليحمله إلى مدينة سولينتينامي لزيارة أجوديلو.

أخذت أشّعة الشمس تتقدّم على الجدار، عابرةً ذرّات الغبار الذي تُطلقه المادّة التي يتكوّن منها اللّيل، وتقدّم من دون توقّفٍ نور غمر جبهته.

حينئذٍ سمع صوت فيكي. جلس في الفراش، وعيناه مفتوحتان عن آخرهما، وحنجرته خشنة.

كانت الفتاة عاريةً في حلق الباب، وشفتاها ما زالتا ترتعشان بالمقطع الثاني من اسمه. تواردت الصور على رأسه. قال لنفسه: إنّها شمسٌ غير حارقة، إنّها شجرتي، إنّها الثمرة، إنّها السحب كلّها، إنّها الطيور كلّها،

إنّها الجلد كفيضان، إنّه لعابها الذي يشبه الرحيق، وعضوها الجنسيّ يبلعني، فتنطق اسمي لأوّل مرّة: ليونيل. إنّها كلّ نقطةٍ في عنقها المحروث بالشمس، إنّها ذلك الوتر في نيكاراغوا، إنّها بيتي، ومغامرتي، وتهوّري، وجنوني، الشلّال الصغير، والزرع في حلق الباب، وإنّها كتبي، إنّها حقيبتي الممتلئة بالقصائد، إنّها الرفيقة، إنّها هذا الانتصاب الحانق، إنّها الزيارة المثيرة للاضطّراب، إنّها سفني الشراعيّة التي تشقّ البحر، إنّها دوّامةٌ في عمق البحيرة، وهدوءٌ في المحيط، وصرختي المصوغة من السهاد، وسلاحي على الرفّ، وطريقتي المدرسيّة في الإملاء، والكلمات التي تسبح في فم شجرة جوافة، إنّها فيكي الخفيفة، بريشها كلّه، إنّها إلهي، ها هما ثدياها الإعجازيّان، وابتسامتها، ونورها يلفّها، هي ذاتها كالهالة يرسمها رسّامو ماسايا لتضيء العذراء.

قالت له:

- تعال.

دُهش الفتى في لحظة جمودٍ رسميّة. فجأةً! ذكّره عُريّها بوضعه كزائرٍ، كزائرٍ محترم.

- «أين أبواكِ؟». سمع نفسه يقول.

- ذهبا للإدلاء بشهادتهما في السجن.

مسَّد ليونيل شعره مرّةً تلو الأُخرى، مُستعملاً أظافره كمحراثٍ ليخدش جلده، ويوقظه من رؤاه.

- وأنت؟

وضعت الفتاة ظفر البنصر على شفتيها، وأخرجت طرف لسانها بين أسنانها الصغيرة لتقول له:

- لقد أعددت الحمّام لكي تستحمّ معي.

ظلّ ليونيل جالساً على الفراش، وفكّ أزرار القميص، وأخفض نظرته إلى صدره، وابتسم بتواضع.

مكتبة
t.me/t_pdf

معلومات توثيقية :

الفصل السادس مستوحى من تفصيلة لأرييل دورفمان.

الفصل التاسع عشر من كتابة إيفان جيفارا.

الفصل الخامس والعشرون مُقتبسٌ من بابلو نيرودا.

أنطونيو سكارميتا:

كاتبٌ من تشيلي، ولد في عام 1940 لوالدين من أصولٍ كرواتيّة.

درس الفلسفة والأدب في تشيلي، ثمّ في الولايات المتّحدة الأمريكيّة.

حصل على عدّة جوائز أدبيّة، أهمّها: الجائزة الوطنيّة للآداب - تشيلي.

تُرجمت أعماله إلى عشرين لغةً حول العالم، وجُسِّد بعضها في أفلامٍ سينمائيّةٍ، منها: كتابه الأشهر ساعي بريد نيرودا (الصبر المتحرّق)، وأب سينمائي.

كتب وأخرج عدّة أفلامٍ سينمائيّةٍ، كما عمل لمدّةٍ سفيراً لدولة تشيلي في ألمانيا.

مكتبة
t.me/t_pdf

عبد السلام باشا:

مترجم مصري مقيم في إسبانيا، ترجم عن الإسبانية العديد من الكتب، أهمّها: «سيرة ذاتية» و«حكايات» لخورخي لويس بورخيس، وروايتا: «الهرطوقي» و«المجنون» لميجيل ديليبس، و«سؤال عينيها» لإدواردو ساشيري، وروايتا: «تنفس صناعي» و«الطريق إلى إيدا» لريكاردو بيجليا، و«ملحمة الجاوتشو مارتين فيرو» الأرجنتينية.

892 | مكتبة

telegram @t_pdf

ساعي بريد آخر من سكارميتا، ولكنه وُجد هذه المرّة في نيكاراغوا؛ ليكون شاهداً على الأسابيع الأخيرة التي مهّدت لسقوط "سوموثا" ديكتاتور نيكاراغوا الأخير، وفي تلك اللحظات الحاسمة، ينقسم سكّان مدينة ليون بين أغلبيّةٍ مؤيّدةٍ للمتمرّدين بقيادة أوجوستو سيزار ساندينو، وبين أقلّيّةٍ موالية لنظام الحُكم وعَساكره، ومنهم يصنع سكارميتا عالماً سحرياً خاصّاً، فساعي البريد يقرّر أنّ الرسائل التي تحمل أخباراً عن الموت من الأفضل ألّا تصل، وكبرى المعمّرات في المدينة تتظاهر بكونها أرملة عجوز؛ للتغطية على نشاطها السياسيّ، وفيكي الحسناء تطلق صرختها في وجه العسكر، وبرفقة هؤلاء نرى القسّ، والحلّاق، وغيرهم.. يبتكرون "حصانَ طروادة" خاصّاً بهم لإنجاح التمرّد، والسيطرة على المدينة.

عبر نصٍّ متعدّد الإيقاعات والأساليب السرديّة، وممتلئٍ بالاستعارات، يبيّن سكارميتا كيف يمكن لحدثٍ واحدٍ أن يختلف في وقْعه ومعناه باختلاف الزاوية التي يُنظَر منها إليه؛ فالخسارة والهزيمة بالنسبة إلى بعضهم نُمسي نصراً، ولحظةٌ لا تُنسى بالنسبة إلى آخرين.

في هذا العمل يحمل سكارميتا هموم نيكاراغوا؛ لأنّ الصراع في وجه الديكتاتوريّات بالنسبة إليه واحدٌ باختلاف المكان.

تمّت ترجمة ونشر هذا الكتاب بدعم من مبادرة أضواء على حقوق النشر التي أطلقها معرض أبوظبي الدولي للكتاب 2021 والذي ينظمه مركز أبوظبي للغة العربية دون تحمّلهما أية مسؤولية عن محتوى الكتاب أو جودة الترجمة.

ISBN 978-9933-641-13-9

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع